دراسة

أحمد أمين .. مفكر سبق عصره

د . محمد الجوادى

هذا كتاب صغير الحجم ولكنه عظيم الفائدة ، واضح الهدف ، مُركّز العبارة ، مترابط الأفكار شائق العرض .

وهو كتاب كتبه ابن عن أبيه ، فنجامن العاطفة الأنانية وضيق الأفق وروح التعصب ، ثم هو بعد هذا ينجو من نفسه التى قد تسول لشخصه أن يلقى الضوء على دوره ، فإذا هو بفضل ثقة بهذه النفس ينبه إلى أنها أكبر من مجرد دور تؤديه فى قصة حياة رجل لم تكن على أقل تقدير إلا حياة مباركة .

وهذا كتاب لا يمكن أن نقول عنه إنه نموذج لما يجب أن تكون عليه كتابة الإبن عن أبيه ، فليس من الممكن أن يتمتع كل ابن بهذه الخصال التى تمكنه من صياغة كتاب على هذا النحو الطريف الممتاز ، وليس فى وسع كل أديب أن ينهج هذا المنهج ، وليست كل حياة من حيوات شخصيات الدنيا على هذا النحو الذى كانت عليه حياة أحمد أمين إنما هى قدرات وخصائص فى الإبن وفى الأب قبل ذلك ــ تجمعت ، فتبلورت على هذا النحو الذى يجده القارىء فى كتاب سيظل يذكره كثيراً .

لم يشأ الأستاذ حافظ أحمد أمين أن يبدأ كتابه بمقدمة ، أو بفصل عن حياة والده ، وانجازاته ومؤلفاته ، بل بدأ كتابه بهذا العنوان ، فيقول إن أباه « مفكر سبق عصره » ، ثم هو يضع لنا حياة الرجل وفلسفته وكتاباته تحت الأضواء إحدى عشرة مرة يستجلى فى كل مرة من هذه المرات ــ أو فى كل فصل من هذه الفصول جانباً من جوانب شخصيته وفلسفته وانجازاته ومدرسته ، ثم يصوغ هذا كله فى أسلوب رشيق تدعمه نصوص من كتابات أحمد أمين أو كتابات معاصريه . . (وإن أُخذ على المؤلف أنه فى بعض الأحيان لا يذكر مصدر هذه النصوص فى الهامش على النحو المتّبع فى الكتابات العلمية موثقة الأسانيد) .

١ ـ يبدأ الأستاذ حافظ أمين هذه الفصول بفصل يقول عنوانه صراحة إن أحمد أمين كان امتداداً لمحمد عبده على حين كان طه حسين امتداداً للأفغانى . . ويأخذ حافظ أمين من كتابات والده دليلاً على فهم الرجل ووعيه لهذه الفكرة .

« يكاد يكون فى كل جماعة نوعان من القادة : نوع طموح يريد القفز إلى الأمام ، ولا يرضيه السير البطىء ، ولا التفكير الهادىء ، ونوع يرى الخير فى الهدوء ، والسير فى معالجة الأمور برفق ، والإيمان بقانون السبب والمسبب ، فإن أردت النتيجة فكوّن مقدماتها » .

ويمتد حافظ أمين إلى الواقع ليؤكد هذه الفكرة .

ويلمع أصحاب المزاج النارى فى فترات الحكم الإستبدادى وأثناء ثورة الشعوب على حكامها ، إذ يُهيّج هؤلاء القادة الناس ضد المستبدين ويثيرون فيهم الحماسة للإصلاح . بينما يزدهر أصحاب العقول الهادئة فى أوقات البناء البطىء ، لهذا ظهرت أحسن أعمال أحمد أمين العلمية والأدبية خلال عقد الثلاثينات من القرن العشرين ، عقد البناء البطىء ، عندما كتب سلسلة فجر الإسلام وضحاه ، وعندما ساهم فى إنشاء مجلة

الثقافة ، والجامعة الشعبية ، وكان من أكبر المؤثرين فى نشاط المجمع اللغوى وكلية الآداب ، وكتب أحسن مقالاته للمجلات والإذاعة ، ورأس اللجان واشترك فى المجالس والمؤتمرات .

كذلك كانت أحسن أعمال الشيخ محمد عبده ما كان يكتبه فى (الوقائع) وعندما عمل مفتياً للديار المصرية وغيرها من الأعمال التى قام بها،بعد أن رجع إلى مصر من منفاه ،بعد أن خمدت الثورة العرابية ، بينما كانت أحسن أعمال طه حسين ما قام بها فى السنوات التى سبقت ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ، وكانت أشد الفترات انتعاشاً بالنسبة للأفغانى فترة التمهيد للثورة العرابية .

وينتهى حافظ أمين إلى أن أحمد أمين كان راهباً فى محراب العلم ، محباً للحق والبناء ، كارها للسياسة والصخب ، زعيماً من زعماء الإصلاح .

ثم يطرح الأستاذ حافظ أمين سؤالاً هاماً يجعله عنوان الفصل الثانى فيقول : هل كان أحمد أمين يميل إلى الإعتزال ؟ وينصف المؤلف نفسه وقارئه حين يقدم لهذا الفصل بنبذات عن الإعتزال ، ونشأته ورجاله ، والظروف التى مرّت بها أفكار المعتزلة والفروق بين كل من المعتزلة والخوارج والمرجئة ، فى عبارة سريعة سهلة ودسمة فى آن ، ثم يخلص من هذا إلى أن يلفت نظرنا إلى أن أحمد أمين كان مقدراً لهذا الفكر متعاطفاً معه .

ويفاجأ القارىء بعد هذا بفصل شائق عن أحمد أمين بين العمامة « والطربوش » وهو موقف قد يدهش له قارىء اليوم الذى لا يعلم أن هذه التعنية قد شغلت بال أهل الثقافة والفكر لفترة طويلة . . . ولهذا يعمد الأستاذ إلى إعطاء فكرة وافية عن القضية ، ثم فكرة خاصة عن موقف أحمد أمين الذى كان يتعمم ويتطربش فى اليوم الواحد أكثر من مرة .

كان أبوه مترددا بين توجيهه إلى الدراسة الدينية أو توجيهه إلى المدارس المدنية ، وكان كثيراً ما يستشير من يتوسم فيهم حُسن الرأى ، فيشير هذا بالأزهر والإتجاه الدينى ، وذاك بالمدرسة الإبتدائية ثم الثانوية ، فلما لم ينقذه أصحاب الرأى من حيرته ، أمسك العصا من وسطها ، فكان يرسل إبنه أحمد إلى الأزهر لحفظ القرآن والمتون فى الصباح الباكر والمساء ، وإلى مدرسة أم عباس ببنبا قادن بين الوقتين ، فكان أحمد أمين يستبدل ملابسه فى اليوم الواحد أكثر من مرة. وكان يقول : « كلما لبست البدلة والطربوش أحسست علوا فى قدرى ، ورفعة فى منزلتى ، إذ كنت أخالط فى مدرسة أم عباس تلاميذ من الطبقة الوسطى أو العليا ، لا نسبة بينهم فى نظافتهم وجمال شكلهم وبين زملائى فى الأزهر » .

وقد كان هذا الذى فعله به أبوه مصدراً من أكبر مصادر التعب والشقاء لدى الصبى أحمد أمين : « ولكن جزاه الله خيراً على تعبه المضنى فى التفكير فى مستقبل ، وغفر الله له ما أرهقنى به فى دراستى » .

ولكن المصيبة الكبرى كانت حين يراه من معه فى المدرسة وهو يلبس القباء والجُبة والعمة والمركوب ، فقد كان يظن أنه مُسخ مسخاً ، وتبدّى بعد حضارة كان كالفرع قُطع من شجرته ، أو الشاة عُزلت عن قطيعها ، أو الغريب فى بلد وهكذا تبدو خطورة هذه القضية (البسيطة) أمام أعيننا وبخاصة أنها أثرت فى حياة أحمد أمين وفى مطلع حياته تأثيراً واضحاً ، فمع أنه قد صادق مجموعة خريجى المعلمين العليا ، وانضم معهم إلى « نادى الجزيرة » معقل الأرستقراطية المصرية بعد ذلك إلا أنه لم ينج من آثار سيئة للعمامة .

وما تعرضّ له أحمد أمين من جرّاء الجبة والعمامة فى صباه وشبابه ، تكرر له عندما قرر أن يتزوج ، بعد أن بلغ التاسعة والعشرين من عمره ، وبلغ مرتبه ثلاثة عشر جنيها ، فقد وقفت العمامة حجر عثرة فى الطريق : « فكم تقدمت إلى بيوت رضوا عن شبابى ورضوا عن شهادتى ورضوا عن مرتبى ، ولكن لم يرضوا عن عمامتى ، فذو العمامة فى نظرهم رجل متدين ، والتدين فى نظرهم يوحى بالتزمت وقلة التمدن ، والإلتصاق بالرجعية ، والحرص على المال ، ونحو ذلك من معان منفرة ، والفتاة يسرها الشاب المتمدن اللبق ، المساير للدنيا ، اللاهى الضاحك ، فكم قيل لى أن ليس عندهم مكان لعمة . ورضى بى قوم أولا واحبوا أن يرونى ، فأحببت أن أريهم أنى متمدن ، وذهبت إليهم أحمل كتاباً إنجليزياً ، وجلست إليهم أتحدث حديثاً على آخر طراز ، وحشرت فى كلامى بعض كلمات إنجليزية فاستغربوا لذلك ؛ وفهمت أنهم أعجبوا بى ورضوا عنى ، ولكن بلغنى أن الفتاة أطلّت علىّ من الشباك وأنا خارج فرأت العمامة والجبة والقفطان فرعبت ورفضت رفضاً باتا أن تتزوجنى رغم إلحاح أهلها » .

وأخيراً دلّه مدرس معه فى مدرسة القضاء على بيت عريق يضم فتاة يتيمة ، كان أبوها مستشاراً كبيراً ، مات هو وزوجته ولم يتجاوزا سن الأربعين ، وبعد الإجراءات التى كانت متبعة فى ذلك الوقت تم عقد الزواج يوم ١٣ أبريل عام ١٩١٦ .

إلى أن أصبح أحمد أمين مدرساً فى الجامعة . . . . وبعد عام من التدريس قابل يوماً صديقه الحميم الدكتور عبد الرزاق

السنهورى فسأل : « لماذا تصر على لبس العمامة ؟ العمامة رمز لرجل الدين ؟ ولست الآن رجل دين . . ثم إن لبس العمامة فى وسط كله برانيط وطرابش يجعلك غريباً فى بيتك . . . ، وفكر أحمد أمين . . . . وعاد إلى الزى الأفرنجى بعد سبع وعشرين سنة من خلعه . . منذ كان تلميذاً فى مدرسة أم عباس » .

قد يبدو هذا الفصل فى قيمته الفكرية أقل أهمية من الفصلين السابقين ، لكن الذى لا شك فيه أن حافظ أمين الذى استوعب حياة والده على خير ما يكون الإستيعاب كان هو الذى سيتولى لوم نفسه مرة بعد أخرى إذا لم يكتب هذا الفصل الشديد الأهمية وقد كتبت أنا شخصياً فصلاً عن الصراع بين العمامة والطربوش فى الصحافة المصرية فى كتاب تحت الطبع ، وكنت كلما أعدت ترتيب فصول هذا الكتاب أرفض هذا الفصل ، إلى أن أعدت قراءة كتاب حياتى لأحمد أمين ، فانتبهت إلى الآثار العميقة التى قد يتركها مثل هذا المظهر الذى لم نعد نحس به اليوم .

ونقرأ بعد هذه الفصول الثلاثة فصلاً عنوانه « أحمد أمين يقف من الشعب دون غوغائية » . . وفى هذا الفصل فقرة مهمة جداً تبين فى صدق وصراحة كيف أن زعماء الفكر وقادته فى مصر لم يكونوا فى أحسن حالاتهم النفسية فى مطلع ثورة ١٩٥٢ .

وينتقل حافظ أمين ليحدثنا عن اراء أحمد أمين فى اللغة ، ولغة الكتابة خاصة :

وكما كانت الفجوة الواسعة بين الفقراء والأغنياء من أهم ما يؤرق أحمد أمين ، كذلك كانت تؤرقه بشدة ـ ويراها من أهم العوامل التى تقف وراء تأخر الأمة العربية ـ الفجوة الواسعة بين اللغة الفصحى واللغة العامية ، فصعوبة الفصحى ـ ولا سيما من ناحية الإعراب ـ تحول دول انتشارها فى جمهور الشعب ومن أجل هذا اقترحت فى بعض مقالات نشرتها ، وفى محاضرة فى المجمع أن نبحث عن وسيلة للتقريب ، وبهذا نكسب اللغة العامية والفصحى معاً ، واللغة الفصحى الآن لا تغذى كثيراً من الإستعمال اليومى للكلمات ، وهذا الإستعمال اليومى فى الشارع وفى البيوت وفى المعاملات من طبيعته أن يكسب اللغة حياة أكثر مما تكسبها الحياة بين الدفاتر وفى الأوساط الخاصة . كذلك فإن التقريب بين اللغتين يُكسب اللغة العامية رقياً ورواجاً ، ويمكننا من نشر الثقافة والتعليم لجمهور الناس فى سرعة ، ومن تقديم غذاء أدبى لقوم لا يزالون محرومين إلى اليوم ، وهو إجرام كبير كإجرام حبس البرىء وتجويع الفقير .

بل ويمضى حافظ أمين على نفس الخط ليقول إن أحمد أمين المؤرخ كان هو نفسه أحمد أمين عضو المجمع اللغوى ، وصاحب الآراء السياسية فى الثورة الجديدة ، كان هو ذلك الرجل الذى يقف مع الشعب دون غوغائية .

وكان أحمد أمين عندما يترجم للزعماء والأدباء والفنانين ، يختار أخلصهم إلى الشعب وأقربهم إلى طبيعته ، فهو إذا كتب عن الثورة العرابية اختار الترجمة للنديم لا للبارودى ، وإذا ترجم للشعراء اختار حافظ لا شوقى ، وقد فسر هذا فى مقدمة ترجمته لعبد الله النديم . « لئن كان يستحق الإعجاب من نبغ والظروف له مواتية ، فأولى بالإعجاب من ينبغ والظروف له معاكسة ، لا حسب ولا نسب ، ولا غنى ولا جاه ، ولا القوت الضرورى الذى يمكّن الفتى من أن يجد وقت فراغ يثقف فيه نفسه » .

ولعل السبب فى هذا حب أحمد أمين للشعب وللبيئة الشعبية ، فهو فى مقالاته لا يملّ أبدا من وصف الحارة وسكانها ، والكُتاب وسيدّنا ، وفتوات الحسينية والمنشية ، و (الجباسة) و (الميضاه) ، والشيخ أحمد الشاعر الذى كان يروى قصص (عنترة) و (الزير سالم) و (الظاهر بيبرس) ، وعم أحمد الصبان الذى بدأ حياته بائعاً للفحم على باب الحارة ، ثم سكنت جسمه العفاريت أو أدعى ذلك ، فتحوّل إلى الشيخ الصبان الذى يعلم الغيب ويخبر بالمستقبل ، ويعمل التعازيم والأحجبة . وكتابه (قاموس العادات والتعابير المصرية) ملىء بمثل هذه الصور والأوصاف .

ويختم حافظ أمين هذا الفصل الرائع بالحديث عن التطبيقات العملية لأفكار أحمد أمين فى هذا المجال التى توجها بإنشاء الجامعة الشعبية .

ولا يفوت حافظ أمين بعد هذا كله أن يصحح مفهوماً على قدر كبير من الأهمية حين يناقش موقف أحمد أمين من الأصالة والمعاصرة ، ويبدأ بايراد رأى العقاد فى أحمد أمين فى هذا الأمر بالذات ويقول فيه إن أحمد أمين كان يقف موقفاً وسطاً بين المدرسة التى تنادى بإحياء القديم ورفض الحديث ، والمدرسة التى ترفض القديم وتدعو إلى نقل كل ثمار الحضارة الغربية . . ويبدو أن حافظ أمين لا يجد حرجاً فى أن يهاجم العقاد « لم يكن العقاد بقادر على أن يتصور أن يقف المفكر العربى خلال النصف الأول من القرن العشرين إلا موقفاً من ثلاثة مواقف . . إمّا أن يكون هناك موقف يرفض التقليد بكل صوره ، ويدعو إلى الإبتكار والإبداع فى كل شىء ؛ فهذا أمر بعيد كل البعد عن ذهن العقاد » . و : « كان أحمد أمين مدركاً للفارق الكبير بين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عملية النقل من الحضارات القديمة والحديثة وعملية الإنتفاع منها .

ويعود حافظ أمين ليروى موقفا بالغ الشأن يصوّر فرقاً هاماً بين عقليات قارىء الفكر عندنا فيروى أن أحمد أمين كتب هذا فى وقت كان طه حسين قد اكتوى بنار مهاجميه ، إثر صدور كتابه ، (فى الأدب الجاهلى) ، وأراد أحمد أمين أن يدلى برأيه فى المعركة بطريقة فيها من التلميح أكثر مما فيها من التصريح . « . . . يُطالب الجامدون إذا ركب الشاعر طيارة أن يتغزل فى الناقة ، وإذا شم ورداً أن يتغزل فى العرار ، وإذا سكن قصراً أن يتغزل فى الأطلال ، وأذا عشق ثريا أن يتغزل فى هند . فأين إذاً صدق العاطفة وصدق الوصف ، وأين حرية الأديب ، وأين دعوى أن الأدب سجل الحياة ؟ » .

ولكن يبدو أن طه حسين لم يكن ليرضى من أصحابه إلا أن يقفوا إلى جانبه بوضوح وصراحة ، لهذا ما أن سنحت الفرصة للهجوم على أحمد أمين حتى قال : « . . . ومنهم من اتخذ السجن سبيله إلى الإنتاج ، ومنهم ــ يقصد نفسه ــ من لم تَعُقْه ظلمة الحياة العامة ، وشدة الحياة الخاصة عن أن يجول فى عالم الفن جولات ثم يعود منه ومعه زهرات فى النثر أو الشعر ، يهديها إليكم لتلهو بها وتستمتعوا بشذاها، وتستعينوا بذلك على المضى فى أعمالكم الهادئة المطمئنة » .

لم يغضب أحمد أمين من هذا الكلام ، فهو يعترف أنه لا يحب المقامرة ، ويكره السياسية ومعاركها ، ويفضل عليها الأعمال البناءة فى بطء وهدوء ، لهذا لم يأبه كثيراً بما قاله طه حسين ، وواصل سلسلة مقالاته فى (جناية الأدب الجاهلى) « . . . أليس عجيباً أن يفتح المسلمون بلاد الدنيا ولا يقول الشعراء فى ذلك شيئاً يذكر ؟ وليس عجيباً أن يكتسح التتار العالم الإسلامى ، ثم تأتى الحروب الصليبية ، وتتوالى فيها الأحداث تذيب القلوب ، ثم يتحول أكثر ما قيل فيها إلى مدح الملوك الفاتحين ؟ وكل ما يُلتمس من التعليل أن يقال إن الجاهليين لم يقولوا شعراً فى هذا المعنى أو ذاك ! .

لقد آن لنا أن نفك هذه الأغلال ، كما نفك قيود الإستعمار سواء بسواء ، لأن الأدب الجاهلى يستعمر عقلنا وذوقنا ، فيشلّنا شلل الإستعمار .

لقد حلّت الطائرات محل الإبل ولا زلنا نقول (ألقى حبله على غاربه . وأمدتنا المخترعات الحديثة بألوان وألوان يمكن العقل الخصب أن يستمد منها آلافا من التشبيهات والإستعارات ونحن لا نزال عند (الصيف ضيّعت اللبن) ، وأصبح كرم حاتم من النوع السخيف والإسراف الممقوت ولا نزال نقول الكرم الحاتمى ، وهناك الآف من أنواع الخيبة التى تصلح للتشبية ، ولكن لا يزال (خُفّا حنين) وحدهما هما مضرب المثل » .

وفى الفصل السابع يتحدث المؤلف عن اهتمامات أحمد أمين اللغوية وكان من الممكن أن يجعل عنوان هذا الفصل « أحمد امين بين الفصحى والعامية » ولكن عقليته العلمية ساعدته على أن ينجو من الوقوع فى مطب صياغة العناوين على وتيرة واحدة .

غاية هذا الفصل أن يكشف عن فكر لغوى متحرر مثّلة أحمد أمين عضو المجمع اللغوى (منذ ١٩٤٠) حين قال فى وضوح :

على القارىء أن يفهم ما يقرأ ، فإذا فهم قوّم ، فإذا قوم احتفظ بالصحيح واستبعد على الزائف فإذا احتفظ بالصحيح فكر فى العلاقة بينه وبين ما سبق له إدخاره فى ذهنه ، ثم كوّن من ذلك كله وحدة متجانسة ينظر من خلالها إلى العالم ، ويصدر بها حكمة على الأشياء »

وحين يقول فى موضع آخر

« . . . يتبادر إلى الذهن أن اللغة ليست إلا وسيلة للتعبير عن المعانى ، ولكن المسألة أعمق من ذلك فهناك تفاعل بين اللغة والتفكير ، فاللغة المنظمة تعمل فى تنظيم الفكر ، والفكر المنظم يعمل فى تنظيم اللغة ــ وكذلك العكس ــ فالمتكلم باللغة الإنجليزية لا يخضع لمنطقها وطرق تفكيرها كما يخضع لاختيار كلماتها وأساليبها ، فيؤثر ذلك فى تفكيره وجدله وحججه . المتحدثون بلغة راقية يشعرون بأن هناك غرضاً محدداً واضحاً يرمون إليه فى حديثهم فهم يضعون لأحاديثهم خُططاً كالتى يضعها لاعب الشطرنج الماهر . .

وهناك ارتباط قوى بين اللغة والخلق ، فلست تجد فى لغة أجنبية من ألفاظ الملق وعباراته ما تجده فى اللغة العربية مما أدخله عليها الفرس والأتراك ، ومدلول الكلمة فى اللغة لعربية غير مدلوله فى اللغة الأجنبية ، فكلمة (سأفعل) فى اللغة الإنجليزية أو الألمانية تعنى أن المتحدث سيفعل ، أما كلمة (سأفعل) باللغة العربية فتعنى أن المتحدث قد يفعل وقد لا يفعل . . . »

وهكذا نجد أنفسنا أمام فكرة واضحة عن اللغة فى ذهن أحمد أمين وعلى قلمه بحيث تتمثل لنا جهود إصلاحية فى مجال اللغة منذ بواكير عهد المجمع اللغوى فهذا عضو من الذين دخلوا المجمع مع طه حسين والعقاد ، وهيكل والمازنى ، والشيخ المراغى لا يجد حرجاً فى أن يصرح بمثل هذه الأفكار :

كان أحمد أمين لا يرى فخر اللغة العربية أن يكون فيها ثمانون إسمًا للعسل ، وخمسون إسماً للأسد ، وأربعمائة للداهية .. الخ ، بل يكفى من كل ذلك أربعة ألفاظ أو خمسة ، ثم نفسح المجال للكلمات الجديدة التى نحتاج إليها .

« .. كم أعمار ضاعت ، وكم صحائف سودت من غير طائل بسبب اعتقادنا أن اللغة مقدسة ، وأن مالم يوجد فى (القاموس) فليس بعربى .. هب أن العرب لم ينطقوا بكلمة ، فلماذا لا ننطق بها نحن إذ جرت على أساليب العرب وأوزانها وأصولها ؟ إن كل أمة حية تعمل على تسيير لغتها فى خدمتها ، وتبذل جهداً كبيراً لتكميلها من النقص ، وجعلها صالحة للحياة المتجددة »

بل إن أحمد أمين لم يكن يرى بأساً فى أن يكتب بعض الأدباء بعض إنتاجهم بالعامية الراقية وكان فى هذا مخالفا لطه حسين ، الذى كان يستنكر على الأدباء العرب استخدام بعضهم للغة العامية فى بعض كتاباتهم . وقد نبع رأى أحمد أمين هذا من ثلاثة حقائق آمن بها إيماناً عميقا : الحقيقة الأولى : أن من حق الشعب أن يحصل على غذائه الذهنى والفنى ، كحقه فى الغذاء المعوى .

الحقيقة الثانية : أن الكتابة بالعامية الراقية ؛ وبالفصحى السهلة ، تؤدى فى النهاية إلى الوصول إلى لغة واحدة ، خالية من الغريب ولعل أهم مقياس لرقى الأمة تضاؤل الفرق بين لغة التخاطب ولغة الأدب .

الحقيقة الثالثة : أن العامية فى بعض الموضوعات أطرف وأنسب ، وكما قال الجاحظ إن النكتة العامية إذ حولت إلى لغة فصحى سمجت .

وكان أحمد أمين يرى أن العرب ، بعد أن غزاهم التتار ، أصيبوا بصدمتين شنيعتين فى وقت واحد ، إقفال باب الإجتهاد فى التشريع ، إقفال باب الإجتهاد فى اللغة . وقد حاولنا ، فى العصر الحديث ، فتح باب الإجتهاد فى التشريع بوسائل ضعيفة ، وحيل سخيفة « .. فلما لم تنجح هذه الحيل كان أغلب الإعتماد على التشريع الأوروبى ، إلا فى حدود ضيقة كالأحوال الشخصية » .

كذلك فى اللغة : نمت اللغة العامية على حساب اللغة العربية ، واستعمل الناس فى حرفهم وصناعاتهم وحياتهم اليومية الكلمات التى يرون أنفسهم فى حاجة إليها ، ولو أخذا من اللغات الأجنبية محرفة ، ولم تبق اللغة العربية الفصيحة إلا فى تعليم التلاميذ ريثما يؤدون الإمتحان .

إن جمود اللغةالعربية لا يقل خطراً عن جمود التشريع ، ومصداق ذلك انصراف أكثر المتعلمين عنها متى نالوا حظا من لغة أجنبية ، وقلة من يجيدها قراءة وكتابة ، كأنها لغة إضافية لا لغة أصلية .

إن فتح باب الإجتهاد فى اللغة العربية ينظمها ، ويحد من الفوضى فيها ، ويرفع من شأنها ويزيد من حيويتها ويكثر من سواد من يجيدها .

وفى فصل طريف عنوانه أحمد أمين يكشف عيوبه ، يأبى حافظ أمين أن يكشف عن كل العيوب التى يظنها فى والده ، ويركز على عيب واحد ، هو ذلك الحزن أو الشعور بالحزن الذى كان يلازم هذا الرجل العظيم.. ومن أن ينقل المؤلف من كتاب أحمد أمين « حياتى » أحد تفسيراته لهذه الظاهرة حين يقول :

« كان لى أخت فى الثانية عشرة من عمرها ، قامت يوماً تعد القهوة فهبت النار فيها وفارقت الحياة بعد ساعات ، وكان ذلك وأنا حَمْل فى بطن أمى فتعذبت دما حزينا ، ورضعت بعد ولادتى لبنا حزينا ، واستقبلت عن ولادتى استقبالا حزينا ، فهل كان لذلك أثر فيما غلب علىّ من الحزن فى حياتى ، فلا أفرح كما يفرح الناس ، ولا أبتهج بالحياة كما يبتهجون ؟ علم ذلك عند الله والراسخين فى العلم . »

ولكن أحمد أمين لم يستسلم لهذا الطبع ، بل كان يبذل جهده فى مغالبته ويظل أحمد أمين يجاهد نفسه ويغالب طبيعته ليستأصل هذا العيب ، فينتهز كل فرصة للجلوس مع أصحابه من ذوى الطبع والمرح ــ وكانت لجنة التأليف والترجمة والنشر غالبا هى مكان الإجتماع ــ أو يخرج مع أصدقائه (فى الهواء الطلق » ابتغاء التريض والمتعة ، بل ويكتب المقال إثر المقال فى « فن السرور و(الإبتهاج بالحياة) و(الضحك) و(الحياة السعيدة) وغيرها من المقالات التى كان يحررها وكأنه يحاول إقناع نفسه بأنه قد انتصر على هذا العيب البغيض .

وفى موضع آخر يقول أحمد أمين ــ معبراً بطريقة غير واعية لنفسه عن أهمية النظرة المتفائلة !

« من أكبر النعم على الإنسان أن يعتاد النظر إلى الجانب المشرق فى الحياة ، فالعمل الشاق العسير يخفف حمله بالطبع والمرح والنفس الفرحة ، والإبتسام للحياة يضيئها . وقد أرتنا التجربة أن الفرحين المستبشرين بالحياة ، الباسمين لها ، خير الناس صحة ، وأقدرهم على الجد فى العمل ، وعلى احتمال المتاعب ، وأكثرهم استفادة وسعادة مما فى يده ولو قليلاً .

الصعاب فى الحياة أمور نسبية ، فكل شىء صعب عند النفس الصغيرة ، ولا صعوبة عظيمة عند النفس العظيمة ، :

والصعاب كالكلب العقور ، إذا رآك خفّت منه وجريْت نبحك وعدا وراءك ، وإذا رآك تهزأ به وتبرق له عينيك أفسح لك الطريق » . « . . . ومن أهم أسباب الحزن ضيق الأفق ، وكثرة تفكير الإنسان فى نفسه ، حتى كأنها مركز العالم ، وكأن كل شىء قد خلق لشخصه ، وهذا هو السبب فى أن أكثر الناس فراغاً أكثرهم ضيقاً بنفسه . وقد فرضت الطبيعة العمل على كل شىء ، ومن لم يعمل عاقبته بالسآمة والملل ، وكلما كان العمل لنفع المجموع كان جزاء الطبيعة عليه أوفى ، لأنه يتماشى مع أغراضها » .

ولكن حافظ أمين يصدقنا القول أن أباه قدمات وفى نفسه شىء من الشعور بعدم التقدير ، أو بالظلم : ــ

مات أحمد أمين بعد ست سنوات وأربعة أشهر من هذا الإحتفال الكبير ، وفى نفسه غصة من تنكر الأصدقاء ــ أو كان يظنهم أصدق ــ ومن قسوة الخصوم فى معاداته ، وكانت سنواته الأخيرة مليئة بالمرارة وانقباض النفس ، بعد أن فقد كل ألوان السلطة ، فإن كان هناك وصف ينطبق على حياته ، فهو وصف أحمد أمين للزعيم عبد الله النديم « ربما كان أعظم شىء فيه ثباته على مبدئه ، باع نفسه لأمته حسبما يعتقد الخير لها ، ولم يتحول عن ذلك على كثرة من تحول فى مثل مواقفه ، . . . ظل يجاهد ، ويُنفى فيجاهد ، ويُعفى عنه فيجاهد ، ويحذّر فلا يحذر ، ويطمع فلا يطمع ، حتى لقى مولاه ، رحمه الله »

ويستعرض الفصل التاسع موقف أحمد أمين من متجزات المدينة الأوربية فى فصل عنوانه « أحمد أمين والتكنولوجيا الحديثة » ، ولعل هذا الفصل من أهم فصول كتابه لأنه يحدثنا عن الإيقاع الوقتى والإنطباع الآنى الذى كان عند المفكرين تجاه ثورة التكنولوجيا التى لم نحس نحن بها لأننا طلعنا على الدنيا فوجدناها على هذا النحو وليقرأ القارىء وصف أحمد أمين للراديو قبل أن يقرأ خلاصة الرأى فى موقفه تجاه التكنولوجيا الحديثة .

أذكر مرة خادمة قروية كانت تعمل عندنا وأرادت السفر إلى قريتها لتتزوج ؛ فطلبت منا أن نعطيها أحد صنابير الماء ، ولمبة من اللمبات الكهربائية لتنيرها فى حجرتها ليلة زفافها ، فكانت هذه الحادثة مثار لنقاش ظريف بيننا ، انتهى إلى درس فى أن الشىء لا نَفْع منه إذا لم يسانده أساس راسخ من العلم . « . . . . ثم دار الزمن دورته ، وإذا بعامل يأتى ليحزّم البيت من جديد ،وآلة جديدة تنطق إذا أصغيت وتسكت أن أعْرضْت ، وتصلك بكل مكان وتنطق بكل لسان ، إن شئت مُعلما فمعلم ، أو غناء فمغن . أوفناً ففنان ، يهزل حيث تحب الهزل ، وتجدّ حيث تهوى الجد ، تمتاز عن التليفون بأن التليفون طالب ومطلوب ، فإذا كان طالباً فقد يفجعك بخبر ، أو يوقظك من نوم ، أو يحملك مطلبا يشق عليك ، أو يصلك بمحدث يثقل على نفسك . أما الراديو فليس إلا مطلوبا ، هو عبد مطيع وخادم أمين ، إما ساكت ، أو متكلم بما أجبت ، نديم ظريف ، جهينة أخبار ، وحقيبة أسرار ، ترياق الهم ، ورُقية الأحزان . . . قد تكون له مضار لم أتعرفها ، فإن جرّبتها فسأحدثك عنها .

ومع هذا كان أحمد أمين فى نظرته إلى الحضارات الغربية ينطلق من فكر آخر !

ورغم تفوق أوربا فى العلم ، ورغم اعتمادنا عليها فى منجزاته ، فإن هذا لا يدعونا إلى الإحساس بعقدة النقص ، لأن فى الشرق قوة لا تقل فى القيمة عن قوة الغرب : « . . . ففى الإنسان قوة غير عاقلة يستطيع أن يدرك بها نوعا من الحقائق لا يستطيع العقل أن يدركها ، هذه القوة تسمى (الوحى) أو (الإلهام) أو (الكشف) ، لا تعتمد على حساب للمقدمات وتقدير النتائج ، يصل إليها الإنسان بالمران الطويل والرياضة العنيفة فى محاولة تصفية النفس من التعلق بالمادة وشؤونها » .

« فإذا كان من مزايا الحضارة الغربية الإعتماد فى كل مرافق الحياة على العلم ، والجد فى اكتشاف قوانين الطبيعة واستخدامها فى الصناعة ونحوها ، ومرونة العقل وتفتحه واستعداده لقبول كل ما يرى خيره ، ونبذ كل ما يرى شره فإن الحضارة الإسلامية تمتاز بروحانيتها ، وتقويمها الإنسانية تقويماً كبيراً ، والنظر إلى الإنسان على أنه أخو الإنسان ، والإعتقاد بأن الله فوق الجميع ، والكل مخلوقاته ، وكل مخلوق للمخلوق قريب ونسيب » .

وكان أحمد أمين يرى فى كل حضارة عناصر ضعف ، وكل أمة فتية تنتفع دائما هى بعناصر القوة فى الحضارات المجاورة . وقد سبق أن انتفعت أوربا بالحضارة الإسلامية فى القرون الوسطى ، فلا بأس علينا الآن من الإنتفاع بالعلوم الأوروبية الحديثة ومخترعاتها .

يتناول الفصل العاشر أحمد أمين فيما بين العلم والإدارة ؛ ولعل هذا الفصل أصدق الفصول تعبيراً عن شخصية المؤلف وفكره ، وهو لهذا أكثر فصول الكتاب حرارة وحماسة .

ويبدأ الأستاذ حافظ من حيث انتهى والده فى ختام كتاب حياتى فقال : ــ

« لو استعرضت حياتى من أولها إلى آخرها لكانت (شريطا) فيه شىء من الغرابة وكثير من خطوط متعرجة ، فما أبعد أوله

عن آخره ، وما أكثر ما فيه من مفارقات ! . . . ومع هذا فإن أحمد الله إذ منّ عليّ بالتوفيق فى أكثر ما زاولت من أعمال . . . وهى ظاهرة يصعُب تعليلها العقل . . . فكم رأيتُ من أناس كانوا أذكى منى وأمتن خلقا وأقوى عزيمة ، وكانت كل الدلائل تدل على أنهم سينجحون فى أعمالهم ، ثم باءوا بالخيبة ، ولا تعليل لتوفيقى إلا أن « ذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

ولكن حافظ أمين يحاول أن يحلل المسألة ليصل إلى نتيجة فيقول !

« تفسيرى هو أن الناجحين نابغون دائما فى فن إدارة أعمالهم ، فلا نجاح فى علم أو فن أو أدب بغير امتلاك حقيقى لعناصر النجاح فى فن الإدارة .

وللنبوغ فى فن إدارة الأعمال مقوّماتٌ معروفة ، كتب عنها الكثيرون من علماء الإدارة ورغم اختلاف هؤلاء العلماء فى تقدير الأهمية النسبية لكل عنصر من عناصر المهارة الإدارية ، فإنهم يتفقون على أن عنصر (الحسم) من أهمّ أسباب النجاح ، إن لم يكن أهمها ، والمعروف أن أحمد أمين كان من أكثر الناس اتصافا بهذا العنصر » .

ثم يمضى فى طريقه ليتحدث عن صفة (الحسم) : ـ

والحق أن صفة (الحسم) هذه يحتاج إليها كل من يتطلع إلى لون من ألوان النجاح ، حتى ربة البيت فى أعمالها البسيطة تتعرض إلى كثير من الأمور التى تحتاج إلى الحسم ، ولعل مسرحية شكسبير الخالدة (هاملت) من أحسن الأعمال الفنية التى صوّرت ألوان الفشل التى تنتج عن صفة التردد .

وصفة التردد هذه تنتج ـ فى الأغلب ـ من رغبة الإنسان فى جمع المزيد من المعلومات قبل أن يصدر قراراً أو يأتى بعمل ـ كما كان يفعل هاملت ـ أما الشخص الحاسم ـ كأحمد أمين ـ فيقول لنفسه : « الآن سأبدأ عملى بناء على المعلومات المتوفرة لدى ، فأنا لن أنتظر المزيد منها ، إنى مدرك للمغامرة التى أتعرض لها نتيجة نقص المعلومات ، ولكنها مغامرة أقل خطورة من خطر المزيد من الإنتظار » . . هذا كلام لا يقوله إلا إنسان شجاع يجيد فن الإدارة .

وأكثر من هذا أن أحمد أمين نفسه يقول فى كتابه (حياتى) : « لى ذوق خاص فى تقدير الأدب :

فضّلتُ إتباعه مجتهداً ـ ولو كنت مخطئا ـ على تقليد غيرى فى تقديره ولو كان مصيبا . . . فلا يعجبنى من البحترى إلاّ قصائد معدودة ، ولا يهتز قلبى لأكثر شعر الطبيعة فى الأدب العربى لبنائه على الإستعارة والتشبية لا على حرارة العاطفة ، ويعجبنى المتنبى لولا إغرابه أحيانا وتكلّفه ، والمعرى لولا تعالمه ، وأفضّلهما على أبى تمام وتقعره . . .

هذا كلام إنسان مبدع ، والإبداع من العناصر التى لا تقل فى فن الإدارة عن عنصر الحسم ، يحتاج إلى ثقة فى النفس ومرونة واتساع أفق ، وإلى قدرة على تخليص العقل مما أدخلوه فيه أثناء الصغر ، وإلى شجاعة فى نبذ الموجود والبحث عن الجديد . أوضح مثال لهذا الفكر المبدع ما نجده فى سلسلة كتبه عن الحياة العقلية فى الحضارة الإسلامية ، فهو فيها لم يكن ـ كمن سبقه ـ مجرد ناقل ، كما لم يكن متعصباً لمذهب أو متحيزاً لعقيدة .

ثم يستشهد حافظ أمين بما قال الأستاذ أحمد حسن الزيات : ـ

« حسب أحمد أمين أنه حلّل الحياة العقلية للعرب والمسلمين فى كتبه فجر الإسلام وضحاه وظهره تحليلاً لم يتهيأ مثله لأحد من قبله ، وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذى لم يكل والعقل الذى لم يضل ، والبصيرة التى نفذت إلى الحق من حجب صفيقة ، واهتدت إليه فى مسالك متشعبة » .

ويستطرد حافظ أمين ليذكر دور أحمد أمين فى لجنة التأليف والترجمة والنشر وكيف :

ظل أربعين عاما ـ منذ عام ١٩١٤ حتى تاريخ وفاته عام ١٩٥٤ ـ يُنتخب بالإجماع رئيساً لهذه اللجنة الناجحة ، وهذا من أوضح الأمثلة على تفوّق أحمد أمين فى فن الإدارة ، وهو أيضا ما نراه فى كثير من أعماله الأخرى ، مثل رئاسته للإدارة الثقافية بوزارة المعارف ، وللإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، وعمادته لكلية الآداب ، وأعماله فى لجان المجمع اللغوى وغيرها من اللجان الثقافية ، ومثل إدارته لأسرته الكبيرة التى كان عميدها وعائلها ، وأخيراً ـ أو بالأحرى أولاً ـ إدارته لوقته ، كأحسن ما تكون الإدارة .

ويجد المؤلف فى نصوص كتابات أحمد أمين وعياً أكبر وأنضج لفن الإدارة وقيمة الوقت وأهمية الحسم : ـ

يقول أحمد أمين فى كتابه (الأخلاق) : « قيمة الزمن كقيمة المال ، كلاهما قيمته فى جودة إنفاقه ، فالبخيل الذى لا ينفق من ماله إلا ما يسد رمقه ، فقير ، كما إذا كانت أمواله مزّيفة ، كذلك من لم ينفق زمنه فيما يزيد فى سعادته وسعادة الناس ، فعمره مزيف ، وليس للإنتفاع بالزمن إلاّ طريق واحد ، ذلك أن يكونَ لك غرض فى الحياة ترضى عنه الأخلاق ، فتنفق زمنك فى الوصول إليه ، فما أضيع زمن قارىء يقرأ ما يقع فى

يده من الكتب من غير غرض ، وما أتعب من يمشى فى الطريق لا لغرض معين !

إن تحديد الغرض يوفر من الزمن الشىء الكثير ، ويعرّفنا كيف نتخب من الحياة ما يغذّى الغرض ، وكيف نتجب ما لا يتفق معه .

إن الذين لا يحددون أغراضهم ، ويتركون الزمن يمر عليهم كما يمر على الجماد ، قلّما يصدر عنهم خير كبير ، والإنسان بلا غرض كالسفينة فى البحر بلا مقصد » ولهذا يتساءل حافظ أمين فى صدق وإعجاب بوالده : ــ

أليس هذا الكلام تلخيصا رائعاً لأحدث نظريات الإدارة الحديثة .

ويأتى الفصل الأخير من هذا الكتاب أحمد أمين وزعماء الإصلاح وهو المقال الذى نشرته مجلة القاهرة فى الذكرى المئوية لأحمد أمين ، وفى هذا الفصل ينطلق الأستاذ حافظ أمين من فكرة أن المرء حين يكتب عن غيره يتعاطف معه ويعجب بإنتاجه ويسترشد بآرائه وتصرفاته . . وهى فكرة سليمة غير أنها ليست القاعدة ، وبخاصة فى زمن تتعدد فيه الأغراض ، وتتباين فيه المقاصد .

ويخلص الأستاذ حافظ أمين بعد هذا إلى أن أحمد أمين فى كتابته للتراجم كان معجباً بأولئك الزعماء الذين كانت صفتهم الغالبة : « الشجاعة فى مواجهة الحكام المستبدين ، والصدق مع النفس ومع الآخرين ، وقوة العقل فى الحكم على الأشخاص وعلى الأشياء والزهد فى المال والجاه ومتع الحياة .

وفى هذا الفصل فقرة كان الأولى بالأستاذ حافظ أمين أن يطعّم بها الفصل السادس الذى عنوانه أحمد أمين بين طبيعة العلماء وطبيعة السياسيين » وهى التى يتحدث فيها أحمد أمين عن الفروق بين عاطف بركات [رجل العلم] وفتح الله بركات [رجل السياسة] حيث يقول : ــ

« . . . إن كل متصدٍ للإصلاح وقيادة أمور الناس إما أن يكون عَليا أو معاوية ، فإن غلب عليه تحرّيه العدل المطلق فى كل صغيرة وكبيرة ، وعدم رضاه عن أى ظلم مهما كانت نتيجته ، فهو أقرب إلى نزعة علىّ ، فعنده أن الخط إما إن يكون مستقيماً أو أعوجا ولا شىء بينهما ، ويجب علىّ السير فى الخط المستقيم دائماً من غير نظر إلى العواقب ، أما معاوية فيرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، ويقول (إنّا لا نصل إلى الحق إلاّ بالخوض فى كثير من الباطل) .

والسياسيون ــ عادة ــ من قبيل معاوية ، ينحرفون عن الحق أحياناً بحجة أنهم يقصدون إلى منفعة كبرى ، فهم يضحّون بالحق أحياناً ، أملا فى تحقيق حق أكبر ، وقد يخدعون بذلك أنفسهم .

وهذا لم يمنع أن يهب الله مصر رجالاً صُلب عودهم ، واشتد خلقهم ، فوهبوا أنفسهم للحق ، لا شىء غير الحق .

كان من هذا القبيل عاطف بركات ، وكانت أكبر ميزة لشخصيته حبه للنظام الدقيق ، وتحرّيه للعدل المطلق ، والتمسك به مهما جلب عليه المتاعب .

تولى نظارة مدرسة القضاء الشرعى ، وظل فيها أربعة عشر عاماً ، فأشاع فيها روحه : كل أستاذ وطالب يعرف عمله ويؤديه فى وقته ، نراه دائباً لا يملّ ، فيخجلنا بجده ونشاطه ، فنقلده فى سيرته .

لا فرق عنده فى تحقيق العدالة بين قريبه وغير قريبه ، بل ولا بين من يحبه ومن يكرهه ، أمام عينيه قوانين العدالة وكفى ، فهو ليس إلاّ قاضيا يطبّقها معصوب العينين عن كل اعتبار وكل عصبية ، ومثل هذا الرجل ــ وخاصة فى مثل أمتنا التى اعتادت الإفراط فى المجاملة والمحسوبية ــ لا يكون محبوبا إلا من تلاميذه وخاصته ، ولكنه يكون محترماً من الجميع » .

أما أن أحمد أمين قد أنصف أناسا ، قد يكون التاريخ قد نصفهم بعد ذلك ، فإن فضله سيظل معقوداً لأحمد أمين ، الذى سبق الناس جميعاً إلى كتابة علمية رائعة موثقة عن زعماء الإصلاح فى الشرق فى العصر الحديث ، وإذا كان هناك كتاب فى تاريخ العصر الحديث يمثل المرجع الذى لا بد لنا أن نقترح على المبتدئين قراءته وعلى المجتهدين إعادة قراءته فهو كتاب (زعماء الإصلاح) ففيه بلغ الوعى التاريخى والدراسة التاريخية أرفع درجات العلم والفن والأدب . . العلم الذى لا يورد شيئا إلا ما حدث بالفعل وما يستحق الذكر .

العلم الذى يحلل قبل أن يحكم ، العلم الذى يصدق القارىء فى الرؤية والرواية . . والفن الذى يجعل التاريخ أحب القراءات ذوقا ومذاقا والأدب الذى يرقى بعلم التاريخ فى الصياغة والتقديم وفى التأثير ، التأثير الذى يخرج بعده القارىء بروح بناءة ونفس ناقدة منصفة وأمل فى المستقبل .

هذا كتاب لا بد أن يقرأه الجيل الجديد الذى يعاصر حياة هؤلاء الأعلام من أمثال أحمد أمين ولم يعرفوا مواقفهم الفكرية والإجتماعية والسياسية . وقد أحسنت « الثقافة الجماهيرية صنعا » حين نشرته من بين كتبها فى « مكتبة الشباب »

القاهرة . د . محمد الجوادى

دراسة

كاتب ياسين و « أعمال فى شذرات »

د . السيد عطيه أبو النجا

نشرت « المكتبة العربية سندباد » فى باريس مؤخراً كتاباً بعنوان « أعمال فى شذرات » للأديب الجزائرى كاتب ياسين (Kateb Yacine: L'oeuver en fragments) وهو يتألف من ٤٦٦ صفحة وينقسم إلى ثلاثة أجزاء : الشعر ، القصة ، المسرح . وقد جمعت هذه الشذرات جاكلين ارنو التى كانت قد أعدت رسالة دكتوراه عن كاتب ياسين ناقشتها بجامعة باريس فى ١٩٧٨ وكانت النصوص التى جُمعت فى هذا الكتاب مبعثرة فى مجلات فرنسية وتونسية وجزائرية ، كما كان بعضها حبيسا فى مخطوط من ألف صفحة استخدمه كاتب ياسين منذ أوائل الستينات ، كمادة خام لرواية « المضلع الكوكبى (باريس ، ١٩٦٦) ومسرحية « المرأة المتوحشة » وهى مسرحية أخرجها جان مارى سيرو ومثلت فى باريس فى ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ ، ومسرحيات أخرى ألفها كاتب ياسين باللهجة الجزائرية العامية ومثلت فى الجزائر منذ ١٩٧١ .

وتقول جاكلين ارنو إنها كانت منذ خمسة عشر عاما تحاول إقناع كاتب ياسين بأن يرخص لها بنشر تلك النصوص ولكنه لم يوافق على نشرها إلا بعد تردد طويل .

وقد أحسنت جاكلين ارنو صنعا بنشر تلك الأعمال التى كاد يطويها النسيان وبخاصة بعد أن توقف كاتب ياسين عن التأليف باللغة الفرنسية وبعد أن أعلن فى ١٩٦٧ أنّه قد « أصيب بالجفاف » . وقد لا ترقى « أعمال فى شذرات » إلى مستوى رواية « نجمة » ومسرحيات « دائرة الإنتقام » ولكنها لا تخلو من جمال . كما انّها تساعد على فهم بعض الجوانب الغامضة من فن كاتب ياسين هذاالأديب الساحر الساخر الذى حيّر القراء والنقاد وفتنهم بكتابات أصيلة يتفجر منها الشعر كبركان ثائر ، وأذهلهم عندما أعلن بعد استقلال الجزائر أن « ينابيع الشعر قد نضبت » ، وتحوّل إلى المسرح السياسى الساخر فنشر فى باريس فى ١٩٧٠ مسرحية « رجل له خف من المطاط » سخر فيها من هزيمة الفرنسيين ومن بعدهم الأمريكيين فى فيتنام على يد رجل بسيط يرتدى خفا من المطاط هو « هوشمين » ، ثم انصرف إلى الكتابة باللغة الجزائرية العامية منذ استقر فى الجزائر فى ١٩٧١ وفقد بذلك جمهوره من غير الجزائريين .

وبالرغم من أن مؤلفات كاتب ياسين لقيت نجاحاً كبيراً فى فرنسا ، فإنها ما زالت تسبب الحيرة والضيق للكثير من القراء فكم من شخص قرأ « نجمة » ولم يفهم منها شيئا ، كذلك لم تلق مسرحيات كاتب ياسين ما تستحقه من نجاح فى ترجماتها العربية . وقد فسّر كاتب ذلك بان مؤلفاته انتقلت من منفى اللغة الفرنسية إلى « غربة » العربية التى لا يفهمها معظم الجزائريين !

مفهوم الشذرات لدى كاتب ياسين

تتألف « أعمال فى شذرات » من « قطع » لا نعرف لها بداية ولا نهاية ، وكثيرا ما تتشابه فيها بينها فلا تختلف قصيدة عن أخرى إلا فى بعض الأبيات وكاتب ياسين يأخذ أحيانا جزءاً من قصيدة فيدمجه فى قصيدة أخرى أو فى قصة ففى قصيدة « بعيدا عن نجمة »

فقرات بأكملها من مسرحية « المرأة المتوحشة » . كما أن معظم فقرات قصيدة « الإيمان » وردت ضمن قصة « البردى والنحلة والثعبان » وقد يعالج كاتب ياسين موضوعا فى نص ثم يقترح نصا بديلا لهُ . كما هى الحال فى أشعار « بين الأعشاب التى تزدهر من جديد » والنص الشعرى الذى يليه فى ص ٢٢٤) وقد يتحول النص الشعرى إلى قص ثم تتحول القصة بدورها إلى مسرحية . كما هو الحال بالنسبة لموضوع « المرأة المتوحشة » وموضوع « موت الحركى » والحق أن الشعر والقصة والمسرح تتداخل وتمتزج فى تلك الشذرات ،والحوار المسرحى كثيرا ما يتسرب إلى القصيدة ، بينما تتحول القصة إلى شعر منثور .

إن اختلاط الأنواع الأدبية فى تلك الشذرات وافتقارها إلى الوحدة التقليدية وانقسامها إلى نصوص غير كاملة ، كل ذلك يذكرنا ببعض الأدباء الفرنسيين من أمثال « باتاى » و « بلانشو » و « بارت » و « بونج » و « شار » فعلى الرغم من اختلاف مشاربهم وحساسيتهم ، فإنهم يتشابهون جميعا فى ان أعمال كل منهم لا تشكل وحدة متجانسة متماسكة ولا تتجمّد فى مشروع واحد ، بل تصاغ فى صورة شذرات يكثر فيها التكرار وتفتقر إلى بداية ونهاية حقيقيتين ، ولا تعترف بوجود حواجز بين الأنواع الأدبية ، فهم يعطون إنطباعاً بأن الكتابة قد تصدعت فأصبح من العسير تنظيمها فى نسق متماسك ، وأنها أصبحت مفتوحة أمام الزمن « وكأنها بناء ضخم يتهدم ويجرى بناؤه فى الوقت نفسه » وتتيح هذه « الكتابة المفتوحة » الفرصة للإطلاع على فكرة تحدث وتشهد نفسها وهى تحدث ويتردد صداها من خلال التكرار ، كما تدعو تلك الكتابة القارىء إلى أن يشارك فى « الحدث » فيقتفى أثر تلك الفكرة ليكتشف فيها مجموعة حيّة ومكاناً يختفى ويظهر من جديد ويظل دائماً مفتوحاً لأنه لم يكتمل بعد .

ومن الجدير بالذكر أن كاتب ياسين يرى أن أعماله إنما هى « أطلال » لكتاب واحد صاغه فى أول الأمر شعرا ، ثم حوّله إلى روايات ومسرحيات . وهو يقارن كتاباته بأعمال « الأجداد الذين كانوا يكتبون فى الرمال رقائل مفتوحة للرياح التى تهب عليها من كل جانب » .

والحق أن تلك المؤلفات التى يمتزج فيها الشعر بالقصة والمسرح وتختفى فيها الحدود بين الأنواع الأدبية ، تعبّر عن رغبة عارمة فى التحرر من القواعد والأنواع الأدبية التقليدية ، وهى رغبة تقترن برغبة أخرى فى التحرر من سجن الحياة المعاصرة ومن جميع القيود ومختلف أنواع القهر والطغيان . كما ترمز إلى تمزق كاتب ياسين نفسه وإلى عالمه الذى تسوده الفوضى وتتنازعه قوى متعارضه متناقضه ففى تفكك الكلام وانقسامه إلى جزئيات وشذرات خير تعبير عن تحطم الذات وتداعيها . وفى هذا تقول جاكلين ارنو فى مقدمة « أعمال فى شذرات » .

« إن ما يقوله لنا كاتب ياسين فى هذا النص المجزأ ، الذى انبعث من بين أعشاب النسيان ، هو انفجار الذات والافتقار إلى الوحدة ، وعذاب الانفصام » .

ويحرص كاتب ياسين على إخراج الصفحة على نحو يوحى بالتمزق والعزلة ولذا يُكثر من الفراغات فى النص الشعرى ، مما يرمز إلى الخواء وقد ترد القصيدة فى عمودين ، بحيث يمكن قراءتها من أعلى إلى أسفل ومن اليسار إلى اليمين فى ذات الوقت ، كما فى قصيدة « المنفى » وفى الأشعار التى تضمّنتها قصة « المرأة المتوحشة » ، ويوحى إخراج النص الشعرى على هذا النحو بأنه ينتمى إلى عالم الحلم الذى يمزج بين زمانين مختلفين ، ويجمع بين مكانين مختلفين ، كما يرمز فى الوقت نفسه إلى انعدام التسلسل الزمنى فى مؤلفات يدور فيها الزمان حول نفسه ، ويتخذ فيها صورة حلقة أو دائرة . ولهذا تتكرر كلمة الدائرة فى تلك المؤلفات وترد فى عناوين المسرحيات (دائرة الانتقام) ، وتعطى انطباعا بنوع من الحصار ، كما هو الحال فى مسرحية « الجثة المحاصرة Le cadavre encercle والحق أن أشخاص كاتب ياسين أسرى للزمان ، فهم يتخبطون فى عالم سيطر فيه الماضى على الحاضر ، وامتزج فيه الحلم بالواقع .

لغة الشعر فى الشذرات

تسهم لغة كاتب ياسين فى خلق جو شاعرى غامض يستمد سحره من قدرة المؤلف على استخدام المفردات على نحو يعطى لها دلالات مختلفة وتفسيرات متعددة . وبالرغم من أن كاتب ياسين يستخدم اللغة الفرنسية ، فهو يختار لأبطال قصصه ومسرحياته أسماء عربية تحيط بها هالة من الشعر وتزخر بالرموز والدلالات ، فالبطلة الرئيسية اسمها « نجمة » ، وهذه النجمة تملأ حياة عشاقها نورا ، فإذا بهم يدورون فى فلكها ، وكلما ابتعدوا عنها عادوا فاقتربوا منها ، كما يوحى بذلك شكل النجمة فهو عبارة عن خطوط تتجه نحو الخارج ثم تتراجع إلى الداخل ، وتعود فتحاول الهروب إلى الخارج ولكنها تعود من جديد إلى الداخل ، ولعل ذلك يرمز إلى عالم كاتب ياسين المتقلب المذبذب بين الماضى والحاضر ، وبين الحياة فى الجزائر والنزوح عنها ثم العودة إليها .

وبالإضافة إلى تلك الأسماء تنتظم المفردات فى دائرتين : الأولى دائرة الأجداد بحيث تكثر الكلمات التى تعبر عن

الفحولة والدم والعنف ، كما تكثر الصور التى ترمز إلى الشموخ والقوة مثل النسر . والثانية دائرة نجمة بحيث تبرز من اللاشعور صور الكهف والظلمات والمياه والحمّام والحدائق وبعض الحيوانات التى راودت خيال الإنسان منذ أقدم العصور مثل السحلية والثعبان والقط ، كما يكثر فى دائرة نجمة الحديث عن الأمهات والأرامل . وكل ذلك ينتمى إلى عالم الرغبات الدفينة وإلى دنيا الطفولة الآمنة فى ظل الأمومة ، كما يشتد فيها الحنين إلى فردوس مفقود ، بعد أن حلّت اللعنة على أبناء « القبيلة » لارتكابهم خطيئة كبرى ، فتفرق شملهم وانقسموا على أنفسهم وتعرضوا للسجن والهوات ، واصبحوا مثل أشخاص أسطورة « حمّام » المسخوطين ، الّذين سخطهم الله بعد ارتكابهم للمحارم فى ذلك الحمّام . وتتمثل خطيئة أبطال كاتب ياسين فى تخليهم عن تقاليد القبيلة وتنكرهم لقيمها ، وبذلك ضعفت شوكتهم وفقدوا هويتهم وضاعت منهم الأرض . لقد رحل بعضهم إلى فرنسا حيث عانوا من الوحدة والاغتراب ، ولكنهم عندما عادوا إلى بلادهم تبينوا أنها قد تحولت إلى سجن كبير .

وهكذا تتخذ مأساة كاتب ياسين وجيله الحائر بين الثقافة العربية والحضارة الغربية ، وبين تقاليد الماضى ومتطلبات الحاضر ، أبعادا وطنية وتاريخية وتصبح رمزاً لكفاح أمّة بأسرها والواقع أن الشذرات تدور حول ثلاثة محاور (١) الأم وذكريات الطفولة (٢) ابنة العم نجمة (٣) الجزائر بين الماضى والحاضر .

الأم وذكريات الطفولة

الأم هى التى غمرت الطفل بحنانها ، وهى التى علّمته اللغة العربية وروت له الحكاية الشعبية التى نجد صداها فى المسرح السياسى الذى يحفل بشخصيّات جحا والقاضى والمفتى والقاضى والسلطان والتاجر الغنى والشاطر ، كما تحفل الشذرات بالأساطير الشعبية مثل أسطورة « حمام المسخوطين » وأسطورة « الغريبة بجزيرة جربا » « وأسطورة كبلوت » ، كما يتحدث كاتب ياسين عن السحر والزار والنساء اللواتى أصابهن مس من الجنون وعن تناسخ الأرواح .

اما النسر ، الذى يعدّ من الشخصيات الرئيسية ، فهو على حد قوله ، ذكرى من ذكريات الطفولة ، إنه يحكى لنا فى « الشذرات » أن صيّادا أهدى إلى أبيه نسراً ، وعندما حبس أبوه النسر فى قفص وقدم له الطعام فضل النسر الموت جوعاً على الحياة فى قفص ، وقد أصبح هذا النسر رمزاً للبطل كبلوت الذى دوخ جيوش الأتراك ، ولكنهم عندما حاصروه وهو فى داره ؛ القى بنفسه فى البئر حتى لا يقع فى الأسر ، كما يرمز هذا النسر إلى الشعب الجزائرى الثائر ، وإلى الحرب التى تغسل أدران الماضى فى الدم .

وقد أحسن كاتب ياسين ، عندما التحق بالمدرسة الفرنسية وابتعد عن امه وعن الثقافة العربية ، أنّه قد حُرِمَ من عالم الطفولة وعندما اصيبت أمه بالجنون شعر بانّه قد فقدها للمرة الثانية ، وقد استوحى من تجربتها الأليمة شخصية « المرأة المتوحشة » التى فقدت عقلها وما ضيها واسرتها ، وأصبحت تعيش مع الأشباح .

ابنة العم نجمة

نجمة هى ابنة العم التى أحبّها كاتب ياسين وهو صبى ، ولكّنها تزوجت غيره ورحلت عن بلده ، غير أن ذكراها ظلت تسيطر عليه وهو فى السجن فى الجزائر ، وعندما رحل بعد ذلك إلى فرنسا ، أصبحت فى خياله امراة ساحرة يقع فى حبها كل من رآها ويدور فى فلكها كما تدور الكواكب حول الشمس . إن نجمة هى الأخت وابنة العم التى يحبها كل من الأخضر ومراد ومصطفى ورشيد ، فهى رمز للقبيلة ، بل هى الجزائر نفسها ، فهى تظل دائما عذراء بالرغم مما تتعرض له من اعتداء جنسى ، وهى لا تفقد سحرها حتى عندما تشتد بها المحنة ، وتفقد كل غال وتصبح « وردة سوداء » وامرأة متوحشة .

الجزائر بين الماضى والحاضر

يصور كاتب ياسين نضال الجزائر منذ الفتح العربى ثم الغزو التركى والإحتلال الفرنسى كما يصف تطور الحياة فى الجزائر بعد الإستقلال .

اكتشف كاتب ياسين مأساة الجزائر المحتلة وهو فى السابعة عشرة من عمره عندما حكم عليه بالسجن لاشتراكه فى مظاهرة وطنية . وأحس أن بلاده سجن كبير وأن فرنسا طمست معالم الجزائر وحوّلتها إلى إحدى المحافظات الفرنسية ولذلك حاول كاتب ياسين إحياء الأمة الجزائرية وبعث شخصيتها ، فمجّد نضال الكاهنة ضد قوات الحرب (ص ٤٢٧ ـ ٤٣٢) وجعل من البطل « كبلوت » ، الذى استبسل فى محاربة الأتراك ، مؤسساً للقبيلة ، وجدّا للأمة ، ومثلا أعلى يحتذيه أحفاده الذين ثاروا على آبائهم عندما رأوهم يستسلمون لفرنسا ، « ابنة الأب القاسية » .

على أن كاتب ياسين يضيق ذرعاً بالماضى ، فهو يرى فيه عنصراً أساسياً من عناصر الأمة ، وعقبة فى الوقت نفسه تعرقل تقدم البلاد : لذلك يخشى « كبلوت » ورفاقه من الأجداد الذين يزدادون ضراوة كلما حاول أحفادهم الخروج على تقاليد

القبيلة والتحرر من قيود الماضى بل إنه لايتردد فى أن يحمّل هؤلاء الأجداد مسئولية تدهور البلاد ووقوعها فى براثن العدو ، وهو يتخيّل الحوار التالى بين كبلوت وأحفاده ، فى مسرحية « حلم فى حلم »

كبلوت : كيف حال القبيلة ؟
الأخضر : أحوالها سيئة
مصطفى : فى أسوأ حال
كبلوت : ماذا جرى ؟
الأخضر : الأرض
مصطفى : لم تكن ملكاً لنا
الأخضر : بيعت واعيد بيعها
وجه السجن : غزتها الأعشاب الخبيثة
كبلوت : ماذا فعلتم من أجلها ؟
مصطفى : السجن
الأخضر : دراسات
وجه السجن : أعمال السخرة فى زنزانة السجن
كبلوت : وماذا أيضا ؟
وجه السجن : أناشيد وطنية
كبلوت : ليس هذا بكثير !
الأخضر : عندما ولدنا ،كنت أنت قد خسرت المعركة
وجه السجن : ولا نعرف أين نكون
مصطفى : ولا حتى من نكون
وجه السجن : تركتنا وقد اختلط الحابل بالنابل
كبلوت : كفى !

ويشتد هجوم كاتب ياسين على الماضى بعد استقلال الجزائر ، ويدعى أن الماضى يكاد يخنق الحاضر وأن الأموات يتنازعون مع الأحياء على امتلاك الأرض ، فيقول فى الأبيات الشعرية التالية :

الناس تتنافس على امتلاك الأرض
حتى عندما يموتون تحت وابل من الرصاص
يشدون الأرض إليهم
ليلتحفوا بها
قريبا لن يجد الأحياء مكاناً ينامون فيه

ويتعرض كاتب ياسين فى مسرحه الساخر للمشكلات التى تواجهها الجزائر منذ الاستقلال ويهاجم الوصوليين والمنتفعين ويصف اتحاد الكتاب الجزائريين بانه « اتحاد الكُتّاب الغائبين » ، وتتجاوز سخريته حدود الجزائر ، فتشمل العالم الثالث المغلوب على أمره الذى يعانى من الطغيان ومن سيطرة رأس المال الأجنبى على الإقتصاد

ومن المؤسف أن هذا المسرح الساخر الذى لا يرحم أحداً ولا يحترم أى شىء ، قد فقد شاعرية الكتابات الأولى ، وأن الشخصيات فقدت جلالها وتحولت من أبطال تراجيديين إلى مجرد « مشاجب » يعلق عليها المؤلف أفكاره ، إذ تطغى أيدولوجيا كاتب ياسين على هذا المسرح الذى يتخذ طابعاً شعبيا من خلال شخصيات تقليدية مثل جحا والسلطان والقاضى . لكنه فى الواقع ينفث سموم كاتب يعترف بأن منابع الشعر عنده قد نضبت ، وانه تحول إلى « عقرب » ، كما يقول فى الأبيات التالية :

مثل العقرب
يتميز غضبا
أتقدم مع نار النهار
وعلى أول عبد القاء
أصب عنفى

قصيدة العقرب (ص ٨٧)

والحقّ أن كاتب ياسين أصبح يشبه أبطال رواياته ، فهو يبحث عن الوقت الضائع ويحلم بالماضى المشرق والفردوس المفقود ولكنه يحنق على ذلك الماضى ويحاول الفرار منه . وهو كذلك حائر بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية، معذّب بين فرنسا التى تجذبه ولكنه لا يجد فيها الراحة ، والجزائر التى تثير حنقة ولا يطيق عنها بعدا . ومع أن المسرح السياسى لكاتب ياسين قد خيّب ظننا ، فإنه يستحق التقدير لأنه رفض بشجاعة أن يكرّر نفسه واختار طريقا صعبا ، وقرر أن يكون « كبلوت » الجزائر المعاصرة ، وأن يصب جم غضبه على كل من فرّط فى حقوق القبيلة وباع نفسه للسلطان وضحى بالقيم من أجل دينار .

جنيف : د. السيد عطية أبو النجا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خطوط الصورة المقلوبة في رواية ياموﻻى كما خلقتنى

(رؤية نقدية)

دراسة

محمد الجمل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العمل الأدبى الكبير هو الذى يطرح على المتلقى معضلة إنسانية - فى زمان ومكان ما ! - معقدة الأبعاد تحتاج إلى فك رموزها ، وليس حلها . فالمعضلة الإنسانية عصية على الحل ، طالما أن فى الكون ما هو مستغلق على الفهم ومستعص على التفسير . . طالما أن العناء الإنسانى يمتطى أرجوحة تقذفه مرة ناحية البحث عن معنى وجوده ، وتقذفه أخرى نحو تأمل غموض المصير .

هذه دعوة لفك رموز مأساة عصرية ، تورط فيها مجتمع بأسره ، حيث تلاحقت الأحداث بسرعة جنونية بفعل شيطان ماكر ، ووجدت الضحايا نفسها مسوقة قرار . الضحايا تستوعب عبرة الأحداث وهى تهوى ، حيث لا تنفع المتهاوى عبرة تضج بالصراخ ، بقدر ما ينتفع من يراقب بعناية مشهد السقوط الممزوج بالصراخ . . صراخ النجدة .

العمل الأدبى الفذّ يقدم الصورة المقلوبة على سبيل محاكاة الواقع . والمتلقى - بوعيه وخياله - يعيد للصورة إعتدالها واتزانها ، لعل الوعى يقوم بمهمته فى التغيير للأفضل ، فيستعيد الواقع وسامته واتزانه .

ونقدم الآن الخطوط البارزة الدكناء للصورة المقلوبة الصورة اللغز ، حتى يخرج الرأس من الرحم بدلا من الأقدام .

- الطبيب النفسى أصبح هو المريض النفسى .
- التاجر الإنفتاحى الكبير أصبح صانع القرار ومنفّذه .
- الزوجة المسروقة من زوجها تستدرج بناتها إلى عالم الرذيلة والتحلل .
- التاجر الكبير يأكل التاجر الصغير عندما يسود قانون الغابة .
- التمسك بالفضيلة وسط سعار الغرائز والشهوات يجد نفسه منزلقا فوق أرض الواقع اللزجة ، حيث تقوده أقدامه على الرغم منه إلى شقى الرحى : الإنحراف أو الجنون .

ـ الحلم المجهض هو السلوى والعزاء وبديل العجز وسط هلامية القيم المادية غير المشروعة .

ـ الشر المستطير متمثلاً فى غرائزية مجتمع الغابة لا يخنق الخير تمام الخنق ، وإنما تظل هناك دائماً بارقة أمل تطل من « كوة » صغيرة ، كمشكاة فيها مصباح .

هذه هى أبعاد الصورة البانورامية العريضة التى رسمها عبد الفتاح رزق فى روايته الأخيرة « يامولاى كما خلقتنى » والتى نشرت مسلسلة فى الأهرام . إن عبد الفتاح رزق يقدم فى هذه الرواية رؤيته للواقع فى منعطف من أخطر المنعطفات التى مر بها مجتمعنا ، حيث اختلط الحابل بالنابل ، واضطربت القيم وضاعت الحدود بين ما هو بناء وما هو هدّام ، بين ما هو سلبى وما هو إيجابى . أصبح الشريف مهانا ، وأصبح المحتال عزيزاً .

ولنتأمل الآن تفاصيل اللوحة من خلال حركة الأحداث وأفعال شخوصها ومصائرهم .

تبدأ الرواية فنرى الدكتور نظمى (الطبيب النفسى المشهور) راقداً فى عيادته النفسية التى أنشأها وأصبحت حلم حياته . فتك به مرض نفسى عِضال . أصبح الطبيب مريضاً وأصبح المريض طبيباً . لم يعد هناك أى فرق كما يقول المؤلف .

إن الذى يعالج د. نظمى هو تلميذه الدكتور عماد . أصبح التلميذ معالجاً وأصبح الأستاذ مريضاً .

نجد أنفسنا منذ اللحظة الأولى عند النهاية ، وما آل إليه مصير نظمى . ويتحدث نظمى بلغة « الأنا » وبطريقة الإسترجاع عن مسيرة رحلته الدنيوية التى أسلمته إلى سرير المرض العِضال . ونشعر أن أصداء هذه الرحلة الإنسانية تدور داخل عقله ويحكيها بأسلوب التداعى والعفوية على طريقة تيار الوعى (وهذا يتطابق مع مهنته كطبيب نفسى ومع حالته كمريض نفسى يترك ذاكرته تتجول بحرية واسعة بلا ضوابط أو ترتيب) . وهكذا اتفق الشكل الفنى (تيار الوعى) مع طبيعة مضمون العمل الروائى .

تبدأ الأحداث بزواجه من محاسن ذات الطبيعة الشهوانية ، ويفاجأ ذات يوم بأنها تطلب منه الطلاق لتتزوج من التاجر الإنفتاحى الكبير « صادق الدكش » الذى يمتد نفوذه من شارع الشواربى بالقاهرة إلى بور سعيد (المنطقة الحرة) ، بعد أن أغرقها هى وبناتها الخمس بكل ما تمتلىء به بوتيكاته من ملابس وإكسسوارات وأجهزة كهربية ومنزلية ومعلبات .

ويرفض نظمى أن يصبح زوجاً مخدوعاً فيقبل الطلاق وترتبط محاسن بالدوكش وتدخل فى عالم بيع المستورد ، وتبدأ فى استدراج بناتها الواحدة تلو الأخرى ، أو تتركهنّ بلا رعاية يأخذن منها القدوة . وترتبط الإبنة « ب » بجاسر وتسافر معه إلى بلده العربى بعد « خطوبة » من طرف واحد ولا أحد يعلم ماذا تم بعد ذلك ! الغريب أن الدوكش يحضر الخطوبة بوصفه ولى الأمر ونظمى يحضر كضيف شرف . أمّا الإبنه « ث » فحياتها سياحة فى سياحة « والله أعلم » كما يقول المؤلف . وتفشل الابنة « ج » فى الطب وتسافر إلى اليونان وما أدراك ما اليونان ! أما الإبنه « أ » فتظل على وفائها لأبيها وتعمل سكرتيره عند « الباروكه » الرجل الذى يعمل فى الحقل الفنى ؛ ويطمع فيها ويحاصرها حتى تقبل الزواج منه سراً بعقد عرفى ثم يطلقها لتعود إلى أبيها بعد تجربة خاسرة . حتى « أ » الوفية هى الأخرى لا تسلم من طوفان التحلل . ويبقى وفاؤها لأبيها بارقه أمل وسط الظلام . أما الإبنه الخامسة « ح » وهى صغرى البنات ، فلا يلحقها الطوفان الكاسح لصغر سنها ، وقد أراد لها المؤلف أن تكون رمزاً للبراءة والنقاء ، وإرهاصة مستقبلية ، وأملا فى الخلاص ، وجمرة صغيرة ثاوية تحت كومة الرماد .

ونلاحظ أن نظمى قد سمّى البنات الخمس بالحروف وعندما سئل عن السبب أجاب بأن كل بنت يمكن أن تسمى نفسها بأى اسم يبدأ بالحرف المسماه به ، وفى ذلك دلالة على أنهن بلا هوية حقيقية ، وأنهن رموز لبنات المجتمع ونسائه ، حيث تضيع الهوية ويصبحن بلا مسميات مثل سكان الغابة ، ولو أننى ـ من الناحية الفنية ـ كنت أفضل التوحيد بين كل الشخوص فتسمى جميعاً بالأسماء أو تسمى بالحروف .

ونعود إلى متابعة الأحداث فنرى أن د . نظمى قد وقع فى حب تلميذته الجامعية « شاهيناز » ، التى تصبح فيما بعد زوجة لتلميذه ومساعده فى عيادته « د . عماد » ولا يتوقف هذا الحب حتى إنه يزيح عماد من مقعده بجوارها ليلة الزفاف ويجلس مكانه . ونشعر أن شاهيناز تشجعه على الإقتراب منها مثل زواجها من عماد وبعده إلى حد رفع « التكليف » وإزالة الحدود ، حتى لتطلب منه أن يعتبر عمادا غير موجود . إلا أن سياق علاقته بشاهيناز يُشعر بأن هذه العلاقة من صنع خياله بوصفها البديل والمَخرج من كل أزماته . إن شاهيناز بمثابة الحلم الذى يعلم أنه لن يتحقق ، والخلاص الذى يعجز عن الفوز به وقد شجعه على تجسيم هذه العلاقة اهتمام شاهيناز به فى فترة مرضه بالإتفاق مع عماد . إنه يريد أن يتزوج من امرأة متزوجة . يطلب المستحيل ليقفز فوق أسوار مستحيلات خلاصه من أزماته المستعصية . يقول نظمى فى الفصل « ٢٠ »

على هيئة منولوج داخلى « العدل أن تكون لى لأنه لم يعد لى إلا أنت . أتمنى ما لاأقدر عليه وأقدر على ما لا أتمناه » . ويصف نظمى فى نفس الفصل ما آلت إليه حاله أبلغ وصف عندما يقول « شاهيناز أنجبت ولداً وأصرت رغم معارضة اللزج عماد على أن تطلق عليه إسمى . كنت فى الماضى أتعذب من خلفة البنات وها هى تسعدنى بالولد . يجىء من يحمل اسمى وأنا لا بيت ولا أهل . بيت مغلق وعيادة صاحبها لا يعالج أحداً وبنات يتحركن بسيارات فارهة ، حتى الصغيرة « ج » تمتلك سيارة وكان الله بالسر عليما » .

إن الواقع قد أفقد نظمى « ذكورته » فلم ينجب غير البنات وهو مُصر بخياله على التمسك بذكورته فيعتبر أن شاهيناز أنجبت له ولداً وسمته باسمه . شاهيناز إذن مستودع كل إحباطاته بقدر ما هى الحلم والأمل والخلاص . والحقيقة الكبرى أن شاهيناز هى بديل الفعل المضاد المفتقد عند نظمى تجاه عدوه الرئيس « صادق الدوكش » بكل ما يمثله ويرمز إليه .

ولنستمع إلى ما يقوله نظمى عندما بلغه مرض « الدوكش » « سيان أن تبقى أو تموت يا دوكش . بقايا قلاعك فى كل مكان . لم أندهش حين قالوا لى إنك تتاجر حتى فى البيض والفراخ وإنك اشتركت فى إنتاج أفلام سينمائية . حيث فكرك الرفيع فى عقول الناس»

أدرك نظمى بعد سقوطه وانهياره التام أن « مافيا » الدوكش قد استولت على كل شىء استدرجت زوجته محاسن إلى سوق المستورد . استدرجت بناته إلى سوق الرقيق الأبيض . سقط مريضاً فى الساحة فاستولى تلميذه عماد على العيادة بلا قتال بعد أن رفع نظمى الراية البيضاء . وهكذا خرج من اللعبة خاوى الوفاض ، بعد أن امتلك أعلى درجات الوعى بحقيقة ما جرى . ولنسمعه وهو يقول « الدوكش يسد علىّ كل الطرق خريطة مصر أصبحت مزدحمة بالمدن التى تحمل إسمه . تعالى . إنظرى معى إلى الخريطة . دققى فى الدوائر الحمراء بين بور سعيد والقاهرة . كل دائرة تحيط باسمه . إن نظمى لا ينظر إلى الدوكش كفرد ولكن كفريق متماسك متعاون يجمعه التطلع إلى الأرباح الخيالية السريعة والمكاسب غير المشروعة .

ولنسمع نظمى وهو يرصد الجانب الآخر من المنحة سقطنا جميعا فى البئر . . الكبير قبل الصغير . . الخاطف والمخطوف . . الآكل والمأكول . نستطيع أن نستشف من هذه النتيجة أن قوى الخير فى المجتمع واجهت مافيا الدوكش فرادى ووحدانا فسقطت فى البئر . . بئر الهزيمة والإنسحاق . تمادت مافيا الدوكش فى العبث والإفساد فى غياب الفعل المضاد الموحد ، فانهارت القيم وحدث الخلل الكبير الذى أوشك أن يأتى على الأخضر واليابس .

هكذا نشعر أن نظمى سقط سقوطاً رومانسياً موجعاً بعد أن وجد نفسه وحيداً فى مواجهة فريق يسد عليه كل الطرق وتزدحم به كل مدن مصر . والحقيقة أن الدوكش كان أكثر وعياً منه بأبعاد الصراع ، فقد ضم إلى فريقه الأفراد الذين كان من الطبيعى أن يكونوا ضمن صفوف نظمى وهم الزوجة والبنات الخمس . خصم الدوكش من نظمى وأضاف إلى قوته وقوداً لمعركته التى يعرف قوانينها وأصولها . وليس أدل على رومانسية نظمى من قوله لعماد عندما قال له « معارك دون كيشوت كثيرة ــ دون كيشوت يا جاهل كان يحارب الطواحين أما أنا فأحارب المهانة» إن نظمى فى الحقيقة لم يحارب ، ولو أنه حارب لما سقط فريسة المرض النفسى . لقد استبدل بالمعركة حُبّه لشاهيناز . ذلك الحب الخيالى المريض . وهو معذور فى ذلك وموقفه مبرر ، إذ لا يستطيع أن يخوض المعركة وحده ضد فريق يعرف مصالحه جيداً ويعرف كيف يحققها ، وهذه هى العقدة الكبرى فى مأساة نظمى ، التى يعيها بعد فوات الأوان . اسمعه يقول ــ العدل أن نقضى عليهم جميعا بضربة واحدة . . لكن . . كيف ؟

إن عبد الفتاح رزق يشير بهذه العبارة إلى افتقاد نظمى للمفهوم الصحيح لحقيقة الصراع بينه وبين مافيا الدوكش مجتمعه ، ويلمح بذكاء الفنان الأصيل الواعى إلى جوهر السقطة التراجيدية المعاصرة لبطل غابت عنه أبعاد حركة الصراع الإجتماعى . وكم تمنيت أن تظهر فى الرواية شخصية واعية بحقيقة الصراع نعيش معها لحظة التنوير وهى تزيح الستار عن سر السقطة وحيثيات السقوط .

إن نظمى يمثل البطل الرومانسى السالب المنكمش ، وعظمته الفنية والواقعية أنه يمثل نموذجا شائعا فى مجتمعنا . إنه النموذج الظاهرة ، ظاهرة إجتماعية تسهّل وصوله فرق الإنتهاز إلى مكان الصدارة فى المجتمع ، ثم تصبح مثل هذه النماذج الشائعة فريسة سهلة لهذه الفرق فى تتابعها عبر الحقب والأزمان .

وليس أدل على سلبية نظمى سوى المصائر التى انتهت إليها شخوص الرواية من خلال حركة الأحداث إن نظمى يستحق العطف بقدر ما يستحق اللوم . ولنتابع الآن نهايات الشخوص والأحداث .

١ - صفوان المريض النفسى الذى كان يعالجه نظمى ثم

أصبح صديقه يشترك مع نظمى فى سليبته (وربما كان هذا سبب الصداقة) إن صفوان يتاجر فى « المستعمل » (الأجهزة والأدوات المستعملة) وهو هكذا تاجر من الدرجة الثانية أو الثالثة ويموت رعبا من الفئران التى تهاجمه فى أحلامه ومنامه . والفئران هنا هى تجار الدرجة الأولى الذين يمثلهم «الدوكش» وصفوان يعى من خلال «لاوعيه» أن التاجر الكبير يأكل التاجر الصغير ، وهو قد وقع فريسة الخوف بديلا للمواجهة ، فحدثت المواجهة فى الأحلام . الفئران تهاجمه وهو يهرب منها . وعندما يبوح بأحلامه لنظمى ، يخبره بأنها القطط السمان وليست الفئران . هناك إذن صراع الفئران فبعضها من بعض ، وصراع القطط مع بعضها ، والصراع الحتمى بين القطط والفئران عندما يلوح فى الأفق أن الفئران تنمو وتتمدد وتنتفخ . وصفوان يلوذ بالهرب دائما من أحلامه مثلما يلوذ بالهرب من العيادة النفسية . إنه عاجز عن مواجهة الصراع فى الواقع وينتهى به الأمر إلى الإنتحار إن نظمى عندما أراد أن يضم إلى صفوفه أحداً ، ضم صفوان الخائف الهارب على سبيل العزاء والإجترار المشترك للهزيمة . ولنقرأ معا السطور الأخيرة فى الرواية .

« حاولت . . وحاول معى صفوان . . هو يقول الفئران . . وأنا أقول القطط . . هو انتحر . . وأنا . . أنا يا مولاى كما خلقتنى . »

٢ - إن نهاية «الدوكش» جاءت نهاية قدرية حيث أصيب بمرض عضال لا براء منه ، ولم ينته بفعل المواجهة والصراع ولا نعرف بالضبط هل تقبل محاسن العودة إلى نظمى ؟ هل يقبل نظمى عودتها ؟

٣ - إن الإبنه «ا» عادت إلى أبيها بعد أن طلقها «الباروكه» وسحب منها ورقة العقد العرفى . ارتهنت عودة الإبنة « ا » بمشيئه « الباروكه » أحد أفراد العقد الإجتماعى الخفى لفريق الدوكش .

٤ - أرسلت «ا» خطابين إلى أختيها وتلقت الرد . الأخت « ب » تقول إنها تفكر فى العودة . الأخت «ث» حددت موعد العودة النهائية . نلاحظ أن نظمى تحت وطأة مرضه النفسى العضال لم يتخذ خطوة إيجابية لاستعادة بناته الضائعات فى سوق الرقيق الأبيض . (الخطوة الإيجابية الوحيدة أنه طلق محاسن وهذا أضعف الإيمان) نلاحظ أيضا أنه لم يتخذ خطوة إيجابية لحماية بناته من الضياع وأغلب الظن أن صدمته فى محاسن شلت فاعليته وقدراته تماما .

٥ - لا أحد يعرف مصير الإبنه « ج » ومتى تعود من اليونان ؟

٦ - الإبنه الصغرى «ح» جاءت إلى أبيها فى العيادة وسألته أن يأخذها معه إلى البيت ، بعد أن دخلت أمها مع الدوكش المستشفى وأصبحت هى وحيدة بعد سفر أختها «ج» إلى اليونان ، ويوافق نظمى ويصحبها أو تصحبه بمعنى أصح إلى المنزل . لاحظ أنه لا دخل لنظمى فى مسيرة جمع الشمل المحطم (المرض أدى به إلى العجز الكل)

إجتمع فى النهاية شمل فريق الخاسرين ، بعد أن تم اصطيادهم فرادى ووحدانا ، وهكذا يضع عبد الفتاح رزق شهادة إدانة دامغة للتركيبة الإجتماعية المختلة فى زمان ومكان ما ! وفى رأيى أن هذه النهاية نهاية مأساوية لا تخلو من بريق أمل ، فنحن على أعتاب هذه النهاية أمام روح فريق بشكل ما . فريق جمعته المحنة التى تجمعت عن قصور الوعى بما يجرى فى الواقع . فريق صقلته التجربة وعلمته أن المواجهة خير من الإنسحاب والإستسلام لمغريات عابرة لا تدوم . وإذا كان هذا الفريق قد أصبح عاجزا عن مواصلة الحركة فإن فى تجربته الخاسرة ما قد يحفز فريقا آخر على المواجهة المدعومه بوعى أصيل وعميق .

إن ما يحسب لعبد الفتاح رزق بحق أنه ربط بين المرض النفسى والظرف الإجتماعى المؤدى إليه . ومدارس علم النفس الحالية تبدأ بالأوضاع الإجتماعية لكى تصل إلى تشخيص أمراض نفسية مثل الشعور بالغربة والإكتئاب والفصام وازدواج الشخصية والبرانويا وغير ذلك . وهذا بالطبع لا ينفى وجود عوامل أخرى للمرض النفسى وراثية وعضوية وغير ذلك .

إن المؤلف يلمح بذكاء إلى أن الأزمة النفسية لنظمى (البطل المحورى للرواية) هى فى حقيقتها أزمة اجتماعية بالدرجة الأولى . إن عجز نظمى عن الفعل أدى به إلى الإنفعال ، ويمكننا ملاحظة ذلك فى بعض الديالوجات والمنولوجات الهتافية الحماسية . فلنستمع إلى هذا المونولوج لنظمى

(يا دكش . . كنت أتمنى أن أقتلك . . ولكننى الآن أنوى قتلك . يتساوى الآن أن أكون فى العالم أو لا أكون فيه . ولكن الأمر معك يختلف . يجب أن تختفى من هذا العالم . لابد أن أتدبر كل شىء لتنال منى الخبطة الحقيقية التى تفوق كل خبطاتك . لن يهمنى أنك حيوان خرافى بعثوا فيه الحياة . لن تهمنى أرقامك مهما كان فيها من أصفار ستعرف الدكتور نظمى على حقيقته . لا . لن تعرف . ستكون قد فارقت الحياة . . الويل لك !) .

إن المؤلف يرصد تجربة واقعية يستلهم أحداثها من الواقع ، وقد اختار أن ينطلق فى بدايتها من النهاية ، وجاءت النهاية

وكأنها بداية جديدة ، وقد شاء لنا أن نعيش دورة كاملة من دورات الحياة الإنسانية . وجاءت اللغة العامية فى الحوار متمشية مع واقعيه التجربة ولو أننى كنت أشعر أحيانا من خلال المونولوجات والإنتقالات السريعة المتلاحقة للمواقف والأحداث والتداعيات والإسقاطات ، دون التزام تام بقيد الزمان ، مع استبعاد دور المكان ، أننى أمام حلم مزعج أو كابوس ثقيل يدور فى وعى نظمى ولا وعيه ويحكيه وفق ما يدور فى خياله وعالمه الداخلى . وأتصور أن المؤلف قد إختار المزج بين التجربة الواقعية والتجربة الداخلية لبطل الرواية . . أسلوبا لمعالجته الروائية ولو أننا نشعر أن كل شخوص الرواية قد وظفت للكشف عن العالم الداخل لنظمى (بطل الرواية وإن كنت أميل إلى تسميتها قصه طويله) وإذ لم نعرف عن هذه الشخوص إلا ما يخدم عالم نظمى ، ولم نعرف الكثير عن صراعاتها الداخلية والخارجية عبر مسيراتها الحياتية . وهكذا اتخذت الرواية خطاً طولياً يتمشى مع تجربة « تيار الوعى » .

ونتساءل الآن :

هل اعتدلت فى وعينا وخيالنا الصورة المقلوبة للواقع المختل ؟ هل استطعنا أن نقول ما أرهصت به الرواية ولم تقله بحكم طبيعتها الفنية ؟

أتمنى ذلك

الإسكندرية : محمد الجمل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إبجرامات

عز الدين إسماعيل

(سر الحب)

ـ هل قلتُ يوماً لكِ إننى أحبك ؟
ـ لا ، لم تقلها قط لى
ـ ذاك لأنى دائماً كنت أحبّك .

(قراءة)

ـ أتعلّم منذ زمان كيف أحدّق فى الآبار
ـ مشْغوفٌ أنت برؤية وجهك ؟
ـ كلا ، بل شغفى أن أقرأ عين المرأة .

(فرق)

الفرق بين جمرة وحفنة من ماءْ
كالفرق بين امرأة عشيقةٍ وامرأة صديقة

(عذاب)

ـ مازلتَ تُكابدُ ، تشقَى ، حتى تنزِفْ
أبداً لا تتوقّفْ
لِمَ لا ترتاحْ ؟
ـ إنى أحتمل شقائى
لكنى لا أحتمل عذاب الراحة .

(دمعة ودمعة)

ـ لِمَ تنحدر الدمعة ساخنةً فوق الخدّ ؟
ـ لترطُبَ قلب المحزون .
ـ ولماذا تدمع عينى وأنا أستغرق فى الضحكات ؟
ـ لتثير الأشجان بقلبك .

(خوف)

ـ أنامُ لا أودّ أن أُفيقْ
وإذ أفيق لا أود أن أنامْ
ـ أنت إذن بقدر ما تخاف الموت ترهب الحياة .

(الوجه الآخر)

ـ هل تدرى لم لا يضحكنى المضْحك ، لا يبكينى المُبكى ؟
ـ كلا ،
لكنى أعرف أنك تضحك للمُبْكى ، تبكى للمضحك

(غباء)

ـ أعرفتَ الآن لماذا أنت غبى ؟

ـ . . . .

ـ ذاك لأنك شاعر .

ـ وأنا أيقنت الآن بأنك أغبى خلق الله

ـ وكيفَ ؟

ـ لأنك لستَ بشاعر .

(جنون)

ـ أترهِفُ السمعَ ولا صوتَ هناك ؟

ـ أنصتُ للحوار بين وردة وسوسنة .

ـ مستغرقٌ أنت إذن فى حالة التأمل ؟

ـ لا ، بل أمارس الجنون .

القاهرة : عز الدين إسماعيل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هـامش :

● الـ « إبجرام » مقطوعة من أبيات قليلة تنتهى بلفتة طريفة مفاجئة إلى حقيقة من حقائق الحياة أو النفس أو المجتمع .

أنـــتم النـــاس أيهـــا الشـــعراء

عبد المنعم عواد يوسف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان يُحدِّثُها عن عينيها ،
عن سرٍّ يَسْتَخْفِي خلفَ الأهدابْ
عن ألقٍ نورانيٍّ جذابْ
عن وهجٍ يسكنُ هاتين العينينْ
لكنْ حين نظرتُ إليهْ
حدّقتُ طويلاً فى شفتيهْ
أيقَنْتُ بأنّ الشاعر ، وهو يغنى للعينينْ
كانت عيناه تغنى للنهدينْ !

٢

كان يُجلْجِلُ مُنتفخَ الأوداجْ ،
والكرْشُ الرجراجْ
يهتزُّ على وقْعِ الكلماتْ
« مَنْ للفقراءِ ، وللأُجراءْ ؟
« مَنْ للبؤساءِ ، وللتعساءْ ؟
« مَنْ يدفعُ عنهم صولةَ هذا الجوعْ ،
« والبؤسُ يعربدُ فى الأرجاءْ ؟ »
كان يجلجلُ فى صوتٍ عصبىّ ،
تتوالى الأبياتُ كما تتوالى الطلقاتْ
والأعينُ تسخو بالعبراتْ
والكرْشُ الرجراجْ ،
يهتزّ على وَقْعِ الكلماتْ

٣

كان يرفرفُ بجناحين من النورْ ،
يتنقّلُ مثلَ العصفورْ ،
ما بين المُهجِ المتعطّشةِ لنبْعِ الحكمةِ من شفتيهْ ،
وتحدّق فى عينيهْ ،
تتلمّسُ هذا السرَّ الغامضَ فى عُمْق العينينْ ،
يتفجّر نوراً من بين الشفتينْ :
« حدثنا ياشاعرنا ،
« هَبْنا مِمّا قد أعطاك الله »
غامتْ عيناهْ
وانطلقتْ شفتاهْ
« أبنائى : لا أثْقَل مِنْ زادْ ،
« تمتلئُ البطنُ بهِ ، فعليكمْ بالأورادْ
« اغترِفُوا من نبْعِ النورْ
« غذّوا الروحَ بخبزِ الزهْد ، فما تشبعُ بطنٌ لوجاعتْ روحْ
« زُهْداً ياأبنائى زُهْداً ،
« لا يَعْرَى جسدٌ يتأزّرُ ثوبَ الحكمةْ ،
« لا تَخْلُو بطنٌ تملؤها الأنوارْ »
غامتْ أعيُنُنا بالدمْعْ ،
والصوتُ الخاشعُ يتقطّرُ حلْواً فى السمْعْ
وسَبَحْنا فى جَوٍّ نورانىٍّ ألاّقْ
ونَسِينا الجوعَ ، وبَرْداً يلسعُ فى الأعماقْ
والشاعر مازال يرقرقُ سِحْراً فى الأسماعْ ،
يتدفّقُ نورىَّ الإيقاعْ
لكنّا حين مَسَحْنا الدمْعَ عن العينينْ ،
ورنينُ الكَلِمِ الساحرِ يَصْدَى بالأذنينْ ،
كان الشاعرُ قد غَابَ عن الأنظارْ ،
لم يَعْلَمْ أحدٌ أنّ الشاعرَ كان هُنَاكَ بقلْبِ الدارْ ،
كفٌ تمتدُّ لكى تتناولَ كأساً من كفِّ الجاريةِ الشقراءْ ،
والأخرى تتنقّل ما بين إناءٍ وإناءْ
كنا نسبح فى الأفاقْ ،
والشاعرُ يغرقُ ما بينَ الأطباقْ .

دبى : عبد المنعم عواد يوسف

رثاء متأخر لعبد الله بن الزبير

عبد الرحيم عمر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وطنٌ به ظَمأُ الصليبِ ،
وليتَ ما قدّمت من دمع ومنْ عرقٍ ،
جرى يوماً بأوْردة الوطنْ .
وطنٌ له وجهُ الحبيب ،
وقد أشاح فما قَنَطْتَ ولا يئسْتَ
وكلُّ عالمك الرحيبْ
أصداءُ إعراضٍ و« لن » . . .
وطنٌ يُؤلمُنا ويخذلنا
وحلمُ الفارسِ المفجوعِ
وجه حبيبةٍ ترنو لنخوتِهِ
وحيٌّ لا يرى ذُلاً بِهِ
وإذا قضى فله كفنْ

وسواكَ شاهد عصرِهِ
وسواكَ ساومَ ثم سالمَ فارتهنْ
أفَمَنْ قضى والسيف فى يده يخطُّ
لعزةِ الأتى سُنَنْ
مَثَلُ الذى يقضى وفى يده الثمنْ ؟

قُلْها ولا تخشَ الملامْ :
قصفت جيوشُ خليفة الإسلام مكّةَ
دكّت البيت الحرامْ
فَلْيبلغ الحجّاج منزلة الرِّضى
وَلْيدْخل الجيش العرمرمُ قلب مكّةْ
وليدخل الحجّاج بيت الله منتصراً دخولَ الفاتحين
هل يُطلع الدمُ المُراق سوى الدِّماءْ ؟
وستنبتُ الأرض الطعينْ
بذورَ ما زرعوه الآف السنينْ
فِمنَ الدّماءْ
وَمنَ الرجاءْ
من كلِّ ما يُذكى بأعماق النفوسِ
شرارةٌ منْ كبرياءْ
ستغتذى نارُ العداوةِ والفتنْ .

والمؤمنونِ الطيّبونْ
يتحاورون ويسألونْ :
مَن يحملُ الإثمَ الكبير

مَنَ ياترى المسؤول يوم حسابه :
الحجاج أم إبنُ الزُّبيْر ؟

والسيف والموت الزؤام
فصْلُ الكلامْ
فى منطق الحكّام مُذ كان الزَّمنْ

النارُ تومضُ فى الرمادِ
فَمن سيُشعلها لِمَنْ ؟
والقهرُ يسرى فى البلاد وفى العبادِ
فتأكل الدُّنيا الإحنْ
أمّاهُ هذى ردّةٌ أخرى تُهيَّأُ من جديدْ
فَرضوا مبايعةَ الخلافةَ بالخناجر والحديد !
وأضيعةَ الاسلام إن آلت أمور المسلمين لطاغيه
أو دانت الشُّورى لسلطان النُّفوس الباغيه
أوْلَى بمكة والشعاب المستضامةِ أنْ تميد
فغدًا خليفتُهم يزيد
وغداً خليفتُها يزيد .

ذاك المساء
كانت أمانى الحالمين جموحةً
لم ترتضِ الأرضَ الصبورَ لها سكنْ
وجباههم فى العالم المجبول من طين وماءْ
وعلى نُجوم النجمة البيضاء يحتضرُ الدُّعاءْ
« ياربِّ قدْ حقَّ الجزاء » .
وللمغنّى ألف جرح نازفٍ
وله أمانٍ عرضها عرض السَّماءْ
ومراقٍ عزَّت على ريح الشراع
وقصُرت عنها السُّفُنْ
ويظلُّ ملْجَؤُه الأخيرْ
اسماء . . . حُرقَتُهُ . . . ونخوتُهُ
ومَلْجَؤُه الأخيرْ

ذاك المساء
ووجهُك القمريُّ كوكبُ صبحه إمّا أضاءْ
ملأ الضياءُ كيانَهُ وهفا إلى الوجه الأثير :
عينا حبيبى حُلوتانِ ونايُ أشواقى يئنْ
وحديثه سحرُ الدلال ونشوة الصوت الأغنْ
وأنا الموزع ، بين شوق اللحظة العجلَى وأشواق المصيرْ
وتشيعُ فى روحى اشتعالات الشَّجنْ
وأصمُّ أسْماعى :
ويبقى صوتُ أسماءَ المُرِنّ
أسماءُ ! يا أسماء !
ياعنوانَ ملجئنا الأخير !

ولو أنّ فى يُمناه سرَّ الخلد واليُسرى عَدَنْ
ماضَلَّ صاحبكم ولا ألقى الزّمام ولا وَهَنْ

للرملِ حكمتُهُ
وللصحراء هيبتُها ،
وبَيْنَ الموت ، والعشق النبيلْ
تفنى الفوارق فى المصير
ولا نهايات المنى . . . والمستحيلْ
والموتُ فى الصحراء والصمتُ المعتّقُ والنّهارْ
كالحبِّ . . . كالأبد العريقْ
ودارةِ الأفق السَّحيقْ
كالحرب كالزَّمن المسافر والرَّحيلِ بلا قرار
كحكم تاريخٍ جليل
أبداً تؤكده الرياح وخصبُ واحاتِ النخيل

ولَداهُ عبدَ الله !
انْ قَلَّبَ الزمانُ لكَ المجنّ
فاصبْر : فآخر ما يظلُّ من الرجال صمودُها
سيّان للشاة الذبيح
أقُطِّعتْ . . أمْ جُمعت
بعد الرَّدى أوصالُها وجلودُها
سيّان إن عثرت ، فما نمت الرجال جدودُها
فى الحقِّ ما تلقى ، وبعض الموت طالعُهُ الحسنْ
والسيفُ ، دونَ سواه ، فى سوق المنايا المؤتَمَنْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عادت خيول الكرِّ هاربة وما عادَ الجواد
فتهيئي هو ذا عويل النائحات
وَهَيئي ثوبَ الحداد

أسماء شدّي . . . لا مفرّ
وقع القدرْ
وعلت فناءَ الدار . . . رايات السواد

كل العصافير التي زَفت تباشير الضياءْ
آوَت إلى جنح المساءْ

وبقيتَ ترتقبُ الصباحْ
مُعلّقاً دامي الجناحْ
على فننْ . . .

تَعِب البَدَنْ
والفارسُ النَّدْبُ الذي امتشق السلاحْ
سكنت أعاصيرُ الرياح وما سكنْ
ظلّت تراودُه الجراح
حتى ارتخت كفّاه عن حبل الرسنْ
ماضرَّ لو أعفى الأعنة والاسنة واستراحْ ،

عمان : عبد الرحيم عمر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الـــثريا .. والمحـــال

حسن توفيق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أيها القلب .. ترنمْ
فالثريا تكشف الآنَ لآفاقِكَ نوراً كان مكنوناً خفيًا
والبساتينُ تعرتْ فتنةً للعاشق الظمآن .. والنبعُ تبسَّمْ
وأنا فى حضرة النور أغنى وأحسُّ الصفو يروى ناظريًا
القلوب الهانئه
مع قلبى تتلاقى ... والغصون المزهراتْ
تُسكر الجو بعطر ماله حدٌ .. ومالى فيه إلا خفقاتْ
والعناقيد تدلّت كطيوف الأمنيات
ذقتُ عنقودين منها بشفاهى الظامئه
فتخدرتُ .. وغنتْ فى عروقى لمساتٌ ترتوى مستبشرات

ها هى الروح طليقه
ها هى الروح تغنى فى سكون وابتهالْ

وخيالاتى تناديني لأرتاد طريقاً قرب ينبوع الجمال
إنما العاشق يخشى ـ فى وصالٍ ـ أن يضل الحب فى السير طريقه
يسعد القلب بإيقاع العناقيد الرقيقه
ثم يمتد زمانٍ حجريٌ فيه تُدْميه مناقيرُ النِّصال
حين تطغَى ذكرياتٌ عن جمالٍ لا يُنال
مثل نار تتشهى ـ فجأةً ـ أن تتمشى بين أشجار حديقة
أيها القلب ترنمْ . . قبل أن يقسو المحال
فالثريا تكشف الآنَ لآفاقك نورا فى لياليك العميقة

فجأةً . . حطتْ غيومْ ، وعبوس الأفقِ دمدمْ
جاهماً . . حين توارى النور مكنوناً خفيًا
قال لى القلب المتيّمْ
مُذْ نأى وجه الثريا بعد قربٍ عدتَ للوحشة مكدوداً شقيًا

الدوحة ـ قطر : حسن توفيق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حوارية "شعرية"

تفجّر

محمد أبو دومه

شخصيات الحوارية : (●●) الراوى
(●) الأعرابى الأدرم
(ـ) السلطان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

●● يُروى عَنْ أعرابى أدرم ، عاش سنيناً يتطبَّبُ بحكاياتِ الصبرِ ومَخْلوطِ الحِكْمَةِ - مُمْتَحناً مجْبوراً - حتى نخرَ السوسُ خلاياه ، وكدَّرهُ الصَّبرُ ، وخذَلَتْهُ نواميسُ الحِكْمَةِ . . . ، راسَلَ مولاهُ المتربِّعَ فوقَ كُفوفِ الريحِ ، فأكْرَمَهُ مَوْلاه ببعضِ كُليماتٍ يمدحُ فيها فَذْكَلةَ رسالتِهِ العَصْماءِ . . وكَفَّ . . ، فشقَّ الحُزْنُ سويداء فؤادِ الأعْرابيِّ المنكوبِ ، إذِ العينُ العُلْيا أغْفَلَتِ الفحوى وتَغاضَتْ عَنْ دَرْكِ الدّاء ، وَغالَتْ بالتَّمْثيلِ بِهِ أُمُّ دَرَنْ . . ، صلَّتْ أعْضاهُ ، الْتَصَقَتْ فى قَدَمَيهِ خُطاهُ . . ، فَدارَ على عِقْبَيْه كظيماً حتى فَرْهَدَ . . ، فانْحط . . فَحسْبَل رَدْحاً آثر فيه العُزْلَة حيْدَ أضْعَفَ مرتبةٍ للأيمانِ وما سَكَنَتْ جمرةُ دَمِه . . ، عادَ يُراسلُ مولاهُ المتربِّعَ فوقَ شَهيقِ النَّاس ، يُناشدُ دَيمومةَ نُدْحتِه إذناً بالأتيان لِيحظى بِجلالِ مَهابتِهِ عَن قُربٍ . . ويُسامِرَهُ بالأحدوثةِ والأشعارِ . . ومآل إليه الحالُ بِبَاديةٍ تَقْبعُ بين مَنادِيحِ قوائمِ عَرْشِ خرُافَتِهِ الممتدِّ . . ، فوافقَ مولاه المتربِّعُ فوقَ أنين المخلوقات على أن يمثل بين يديه شريطة ألاَّ يتدرَّع درعاً . . أو يتمنطقَ سيفاً ، أو يتنكَّب قوساً . . ، أو يَعْلُوَ سرجاً ، أو يلبسَ إلاَّ مايَسْتُرُ عورته - كى لا يثقب منطوق الحدَّ الشرعىَّ الخبر . . ، فالبابُ السلطانُ قَرىً للنزلاء الأهلِ . . وللنزلاء الأغرابِ . . . ،
. . تهلَّلَ وجْهُ الأعرابىِّ . وَهَشَّ . . فممنوعاتُ الرؤية منحتْهُ الفوزَ . .

فلا درعَ . . ، ولا سيفَ . . ، ولا قوسَ . . ولا سرجَ . . ولا يملكُ شاة أو حتى جِدياً يُعطيه الحقّ الوطني بأن تمسك يدهُ بعصاه . . ، . . وسروالٌ خَيْرٌ من أسْمال لا تتناسب ومؤانسةَ الكُبراء . . .

ودّع أهلَهُ . . وتسترَّ بالليل الستّار . . إلى أن شارف سور مدينة مولاه . . فحطَّ عناء الرِّحلة لحظات ، ثم تقدَّم نحو السور فأوصله السُّورُ إلى باب ، والباب إلى دهليزٍ والدهليزُ إلى بابٍ . . والباب إلى دهليز يحرسه الفرمانُ السلطانى النِّير من شك الحَرس المبثوثِ بكُلِّ أفجّة كون فخامته ، حتى جاز الأبواب جميعاً . . فحواه النورُ الباهرُ ، والعِطرُ النفّاذُ الغامرُ ، والصوت الجبروق المصقول الطبقاتِ . . . فدار حوار بينهما حفظته الأجيال ، وليكَ بأفواه الرُّحّل والضيفان . . الراجل منهم والخيّال . . وها أنذا أنقله لمسامعكم بالنُّقطة والحَرْف ، فصونوا عِبرَته واعتبروا . . إذْ لا خيرَ من الأصغاء بلا . . إصغاءْ ، والساكت عن مَظْلمة أو . . قهر . . أعتى ظُلْماً ممن شَتَلَ الظُّلْمَ وروَّى شجَر القهر . . ، الأدْرَى لو أغضى وتحرَّج . . أو . . وتأفَّفَ أن يُفصحَ . . ، أوضعُ منزلةً ممن أَلْجَمَهُ الجَهْلُ عن الإعلان . . وهذا ما كان . . .

● ● ●

[ارتج الصوت الجبروق بصدر الأعرابى المنتهك المنهوك المُثقل وانفلق شموخ الصمت . .]

– إجلس يا هذا . . اجلس حيث تَقِفْ

● ألقيت سلام الله على مولاى . .

– وسمعناه .

● حمداً للمَنّان على صِحّةِ أذنك يا قُدْوَتَنا الأزكنَ ، ولعلك تعرف ما دَرَج على ألْسِنَةِ الفقهاء . . ؛ إذا حُييتمُ حَيوا بالأحسن أو ردّوا . . ، والردُّ على مَنْ حيّا صدقةْ . .

– وعليك كما قلت . . اجلس يا أهْتَمُ لا تَنْكأْ غضبى . .

● هذا يكفينى . . ، لكنى أستقطرُك العفوَ . . فسروالى أغبرُ . . ، وأرانى أخشى أن تتلوث أو تتعفر جُمْلَةُ إيوانكم الأزهرِ . .

– إجلس وانظُرْ حيث العرشُ . . أنا

(كيف أحدده . . وهو الساكنُ بالحَرَكة ،
والمتحرك بسكون . . ، كيف أحيط ،
بشيءٍ منه . . المتلوّن فى اللاّ لون . . ،
المتشكل فى اللاشكل . . المضمون بلا . . ،
مضمون . . ؟
كيف أحدده وهو المُتَمَيِّعُ حدُّه ؟)

– أنتمتم . . ؟ . . وبماذا . . ؟

● لا . . لا يا صدر الأُمّة . . كنت أُجَمِّعُ نفسى من نفسى لأُعيدَ إلى نفسى نفسى . . فأجيبُ بما أنت له أهل .

ـ إجلسْ . . إجلسْ وانظر

● كيف أحدِّدُ عرشَكَ يا مَنْ يملأ كلَّ الأرجاء ؟

ـ نتعوذ من عينيك الجائعتين الحاقدتين الحاسدتين . . تكلَّمْ . . أو عُدْ من حيثُ رُميت !

(لو يفطن هذا المكتظُّ بما أُتخِمتُ به من أنباءٍ لاسترضانى واستهدى بى . . لا بأسَ فتلك سجايا كل سلاطين البقعة . . جأرُ هواء يسكن جلد طبول . . . ، أمخاخ تتفسخ فى جدران جماجمها . . إنْ تسألهم عن شىء هزوا أرؤسهم دون كلام كى تركبَكَ الحيرة . . ، كلُّ فعالك لا تعنيهمْ ، جوعك لا يعنيهمْ ، شبعكْ . . ، أمنك . . رعبك ، رفضك . . شكرك . . . . لكنْ إيَّاك . . وذِكْرَ دوامِ العرشَ بسوء . . !)

ـ عُدْتَ لهمهمتك يا قَعْرَ اللؤم ! .

● بل كنتُ أقلب فى رأسى حكمتكم فى أن أجلس . . ، يا مَنْ وحدك تجلس . ! . . ، هل يعنى هذا أنّا الآن بزمن . . يتساوى فيه بنو آدم . . ؟ . . كيف . . ؟ أربُّ النِّعمة يجلس وشتاتُ موائده يجلسُ . . ؟ . . لا أسمح أن يَخْطُر لى . . حتى فى الحُلم . . ، وإنْ . . ، وجب علىّ إذن . . أن أتطهَّر بالغُسْل الكامل من وَسْوسة الشيطان وأستغفر مائة . . بعد خروجى من كل صلاةٍ طيلة أسبوع . . عَشْتاً فى أن تشملنى ببصيص رضاكم . . لا غير . .

ـ يا إبنَ الثعلب ! ؛ لو . . أنتَ جلستَ رفعتَ إلينا وجهك . . حين نُطلُّ عليكَ ونُصْدِرُ لك أمراً بالنُّطق . . فأنت الحرف المرفوع ، ونحن الرمز المُتنزِّلُ . . أوَعيتَ ؟

● هذا ما أفصحتُ به من قبل . . وماراود لُبّى . .

ـ لكنَّك قلَّبت الأمر برأسك . . ؟

● يا مَوْ . . . .

ـ صه . . بداخل هذا الرأس تُقلَّبُ حِكمى . . ؟ !

● يا . . مَوْ . . . .

ـ سُدَّ الكهفَ الرابض فى أسْفَلِ خَشْمِك . . لم أُكملْ ، فاسمَعْ . . أعطيناك الأذن لتحضر . . وتكون البيغاء لما نُلقيه . . عليك . . ، تُسامرنا بالأذن . .

وتُضحكنا . . ، وتؤمّن . . دون جدالٍ . . ، فتوهّمْتَ وأسرفْتَ ، تودُّ مُحادثَتنا أثناء وقوفِك لتقابل رأسُكَ رأسي وتنزولَ فوراقنا . . . ، لا . . لا كنْتَ . . ولا كانوا . . هذا بيتي وبلاطي . . أدعو من أختارُ وأنزعُ نِعمىَ ممن أختار . . أُغيِّرُ . . لا أتغيّرْ . . . إجلس . . وتخيّرْ لفظَكَ

● فليسجح صدرُ الأمة وولي النعمة مولاي ليهدأ . . رَوعي . . ، . . أتجمعُ . . ، هذا أولُ عهدي بملاقاة ولي النهي . . وآمل أن يَصْدُر أمر عنايتكم بخروج الحُرّاسِ . . وتغْليق الأبواب . . فلا أرغب أن يسمّع مكنوني غيرُ جلالةِ أذنيك ولن يحدث ما تخشى ، فأنا لا أحمل إلا وجَعَ القلْب . . ، سأجلسُ . . ، وبحَقّ سناك اصرفهم . إصرف . . حُرّاسك حتى أجدَ مكاناً كي أجلس . . أتنفسْ . !

ـ قُلْتَ بأنك تحملُ وجعاً . . ، أيْ تحملُ عدوى ، أو مرضاً لا يُبْقي . . قد يَسْتَشْري في قصْري ، . . فتصيبُ المرمي يا أجربُ . . ويؤولُ الصَّرْحُ إليك . . وأمثالك ، فتصيرُ الدولةُ دولةَ جَوْعَى يحكمها جُرْبٌ ، . . . أفيرضيك ؟ . . أما كان من الفِطْنةِ أنْ نَقْبل نصف الهمْ . . ؟ إمّا جوْعَى . . أو جُربٌ . . يترأسهم مثلي ؟ . . ماذا يحدث بالأمةِ لو نُصّب حاكمُها من بين الجَوْعَى أو من بين الجُرْبِ . . ؟ ، أجبْ ! . . سأجيبُ أنا . . تخرب . . !

● رُحتَ بعيداً يا مولاي . . وأوّلتْ . !

ـ لكنك قُلْتَ بأنك تحمل وجعاً . .

● أعني وجعَ القلب . . !

ـ ماذا يعني وجعُ القلب . . ؟ . . أفتشك الحُرّاس وتركوك بِه تدْخُلْ ؟ . . أم خبأتَهُ . . ، قسماً بأرومتِنا لنحيلنّ نهارك أغْربةً لو لم تُخْرِج وجعك هذا نلمسه ونراه . .

● وجعي . . يا . .

ـ ماذا يُشْبِهْ . . قل . .

● أمْهِل . . ، هو ليس برمحٍ أو سَهم أو ما شابَه ذلك مما يستحوذُ فكْرَكْ . . هو داءُ الفقراء . . وخبزُ الفقراءِ . . ودربُ الفُقراء . . وبحرٌ لا تسقطُ إلا بين خيامِ الفقراء . . الوجعُ المجهول لأمثالِ جلالتكم . . وَجعٌ لا تعرفه لكنْ . . هوَ . . يَعرفُكم . . يرقبُكم من خَلفِ ستائركم يحفظكم ككتاب الحُزن . .

ـ مادام يخصُّ الفقرَ . . فلن يُزْعِجَنا . . ، فالفقرُ هو . . الحاجة للُّقمة . . ، ومن احتاج اللقمة لن يهتمَّ بغير اللُّقْمةِ ، والجوعُ عبادهْ . . ، الجوعَى زُهّادٌ . . نبذوا كل وثاقٍ بالدنيا . . الزُّهد سَكينة . .

● قد يتفجّرُ بركانُ الزُّهدِ . . وما أغباهُ إذا . . .

ـ لا تُكمِل يابومَ النَّحسِ . . اسْكتْ . .

●●

[وتقول روايةُ تلك الفترةِ إنَّ السلطانَ تعطَّفَ وأشار بسبابته فانصرفَ الحرّاسُ وأُغلِقَ باب الأيوان فجلس الأعرابيُّ بموقع وقفته .. بَسْمَلَ ثُمَّ انطلق لسانه ..]

● إسمح لى أنْ أبكى لحظاتٍ حمداً أنْ قَبِلَ الوهّابُ دعائىَ وحَظيتُ بلقياكَ ، فكم حاصرنى بَيْنَ الخوف ووسوس لى : أنْ أستمنح سمكاً مقلياً من خُنَّ دجاج أو أترقبُ إفطاراً من فقس الرُّخ الطازج .. أدنى للذهن نوالاً من كشفك لمحياكَ أطالعه ، وإباحةَ منطوقك أسمعه .. ورضاك مُضيفى بوجودى حتى لو لم تأنسْ لوجودى ..

– إحذر .. لستُ مضيفَك .. إنّ .. أقصِدُ .. أنّا أمْلينا قرطاساً باستدعائك .. لاحُبّاً فى سحنتك الصُّدئةِ .. أو إكراماً لدناءةِ عِرْقِك .. أو شوقاً مشتعلاً .. لحواراتِ خَلابِيس الدُّهْم .. .. ، فجئتَ .. تواضعنا وتدنينا .. كلّمناكَ .. فعجل.

● أسمحت لِقِنّك أنْ يبكى ؟

– إبكِ .. ولكن لا تُسرفْ !

● أرَقَّ اللهُ فؤادك وأزاح الغمة عنه .. ، وحقِّ بهائِكَ لن أسرف ..

– لم ألمح قَطْرَةَ دمع رُدِّتها عيناك .. ، أتمزح .. ، أم تسخر منى.أم بى ؟

● البتةَ .. ، أبداً .. إنى شكراً لله . بكيت ..

– وبلا دمع ؟

● لو يعلم مولاى بأن القطرَ تصخُرُ فى ضَرع الغيم بكل فيافينا ما استنكر دمعاً يبس بعين !

– أتعقلُ ماقُلْتَ ؟ أتفهمه ؟ هذا خلط .. أنتَ تُتَعْتِعُ ، لاشك أصابك مَسّ !

● مَسّ المَسْغبة الوطنية يا خازن بيت الرزق .. لعلكَ تقصد !

– بل مَس الجنّ .. الغِل .. ، التشهير المتوارث فيكم يا أدناس .. تودُّ تُشيع بأنَّ جفافاً حلَّ .. بمملكتى لم تَسْلَمْ من سطوته حتى عينك !

● هو .. ذا .. بل كلّ عيون الأدناس كما صرّحتَ .. جفاف..

– كذّاب .. كذّاب .. ، جرّأتُك إذْ أدْنيتُك .. فتماديتَ من التلميح إلى التجريح .. قفزتَ إلى ما بعد حدودك يا ابن الأزنى مِن قِرد ..

● تبيّنْ .. واحكمْ .. كى لا يَتَسَوَّرَكَ الوزر

– يتسوَّرُنى .. ؟

● جرِّبْ .. أن تتلمس – منفرداً – نَبْضَ بلادك .. غيِّرْ زيَّكَ وتزوَّدْ واخرجْ .. عِشْ بين رعاياك لتعرفَ سرَّ الحبِّ وسرَّ الكُرْهِ .. وسرَّ الجوعِ .. وسرَّ التخمةِ .. عِش بين رعاياك لتحزن عن صدقٍ .. فإذا أنت حَزِنْتَ بَرِئْتَ !

– هذا ما كان ابن الخطاب .. ولستُ ابن الخطاب .. ولسنا فى زمن ابن الخطّاب .. وأخشى أنْ أتمثّل به ..

● ولماذا ؟

ـ أحوالَ الناس تَقصَّى .. أنصَفَ .. أشْبَعَ .. ساوىَ .. طعنوه ... فهل آزرَهُ عَدْلُه ؟

● الطاعنُ كان غريباً .. حَسُنَ الظنُّ به فأقام .. مُحاطاً بالأمن العُمَرِىِّ فخان الأمْنَ .. ، غريباً كان القاتل ليس العَدْل . ؛ انْصِفْ .. قَرِّبْ أطرافَكَ نَحْـوَك .. قَـرِّب قـومَك .. واحـذَرْ أن تُعْطِىَ ظهـرك لغـريب .. لا تَتمحَّكْ

ـ لن أنزل للغوغاء .. خَسِئْتَ !

● تندم !

ـ مثلى يَنْدَم ؟ يا منحوس الطالع .. يا متطاول !

● إنى أنصحْ .. نصَّاح .. ناصِحْ ..

ـ أية ريح بصقتك ؟ وأىُّ نَهار مشئوم ألقاك إلينا .. ؟

● بل قل .. أى أريـج صبا .. ؟ أو أى نهار ميمـونٍ .. هنّان حَـل عليك بمقدمنا .. ؟

ـ خلِّصْنا .. منك مللنا .. ماذا تبغى .. مَنْ قذفك ؟

● أمْنى حتى أفصح .. أو أسأل فتجيب !

(أتُتّهم هـذا الـوجـه الملغـوز .. ؟ .. وقـد يفصح عما نكره ؟ قد يسأل أسئلة توجع !! أو تـوقعنـا فى فـخ الإحـراج ! ألا تبـاً للطبقات الدنيا .. ! ، إنى أحسـدهم جَرأتهم .. جـوع مألوف ، ألسنة كسيوف .. لا يمتلكون .. فلا يخشـون،إذا سلكـوا فجاً سَلَكَتْ لعنتُهم قبـل خطاهم سبعين ! تمالكْ نفسك يا سلطان فقـد تفضحُ عيناك أساريرَك .. ، لا بأس .. نؤمنه فـإذا لاسَنَنَـا .. أو لهْـوَقَ .. ، أو لهْـوَجَ مَنطِقَه .. عُدنا وسلبناه الأمْنَ .. تَفضّلْنا مِنه رجمناه .. ..)

●● [ويقول النقلة أن الأعرابى ارتاب .. بصمْتِ السلطان .. وود لو انَّ جدار الإيوان انشقَّ فواراهُ .. إلى أن ترجع للجاشِ رِباطَته .. كى لا يُستَصغر فى عين المُستَصْغِر منه .. ، فواتته كلسعة برق فكرةُ أنْ يعطس ، شد شعيرات نفرت من مِنْخَره فاشتاط عُطاساً أخرجه من (رَبْكَتِه) .. ، وأفاقَ على ضجته مولاه فبادره .. مغتاظاً .. بَرماً ..]

ـ لا يرحمك الله ..

● حمداً لِلّه على تَشْميتكم السلطانى .. ، ولا أسْكَت ربى ! لكُمُ حساً .. لكن

يا سيدنا فيما كانَ الصّمت ؟

ـ قبل الرد .. أجبْ .. هل جئت إلينا بوباء منازلكم .. ؟ هل ضاقت بكمُ الدنيا .. كى تعطس فى حضرتنا ؟

● لا ذاك ولا هذا .. هو وَهْن الترحال .. أرِحْ حَدْسك .. ما مِنْ ضعيف إلا ولهُ خَطْفه .. !

ـ رباه لكمْ .. ، كمْ أنت جشيم .. !

● مذ قابلتك أدركتُ .. وما قُلتَ جديداً ..

ـ إلا أنا أمنّاك .. فَسَلْ .. أوجزْ أوطارك .. خرُبتَ علينا يوماً من عُمر محسوب .. فاحذر .. إنا لن نغفر حتى القول المدهون .. اللهم إذا كنت ترى أنك تَصلح مائدةً لكلاب القصر ..

● أتجوعُ كلابكم مثل الخلق .. ؟ .. الأنت عليهم تَتَطوَّس !

ـ ها أنت تعود لخِلْطك .. سل أو ..

● لا تكمل .. إنى أبداً يا مولاى .....، .. أتعرف قومك ؟

ـ شعب طيِّبْ .. ، مسكينْ .. جوّالْ .. يتغرّب لا يتغيَّبُ .. .. شعبٌ طيّع ..

● وعنيد .. وصبور .. يتريّث يتكتّم .. ثُم إذا حُوصِرَ .. ضاقَ .. تَفَجّرْ ! .. ، ماذا رتّبْتَ ليوم تَفَجُّرِه ؟

ـ لن .. لن يتفجرَ .. !

● ماذا .. لو .. ؟

ـ سنسُدّ تفجرُه بخطاب ، بوعود .. بوعيد .. أو ما شابه .، هو كالنارِ .. ونحن كإبراهيمْ .، ..هو كالشمعة لا يلبث ويذوب .. ونحن العتمة .. ، هو تعزية .. والميّت لن يلفظه قبرُه !

● شطْحٌ لا تفلح عاقبتهُ .. ! ، خلطٌ مُمَجْوَجٌ حتى فى التشبيه .

ـ رتّبنا العدّة يا أحمق !

● هل أنصفتَ المظلوم .. وآسيت الظّالم ؟

ـ ما صادفنا مظلوم .. أو نمَّ العسسُ السلطانى بظالم .. !

● أوَ تدرى ما يضمر عسسُك ؟

ـ هُم مِن أبناء الأمة .. اقسَمَ كل منهم ألا يأتى إثماً .. نصّبْناه .. فإن لوّثَه جرمٌ أقصيناه .. أيُعصمُ مخلوق من سقط ..؟ يا متزمِّت !

● تُقصيه وحسب ؟

ـ يكفى هذا .. ! أتظنُّ بأنى أنصب مقصلتهْ ؟ أو أنضخه فى حُفره .. ؟

● هو لبُّ العدل ليصبح عبرة !

ـ ويقال بأن الحاكم سفاح .. يَسْعَدُ حينَ يُصفّى عسسه .. !؟

● فإذا كنت أنا الأثم .. ؟

ـ سنصوغ بياناً عن آثامك ، نَقْلبُ أحشاء المَعْمورة ، لِنُفَتِّشَ عن أصحابكَ ،

نجمعكم زُمراً . . فنشوهكم أو نفنيكم ، حتى يتضخمُ حجْمُ العِبرة !

● فَرُقتَ إذاً . . !

ـ همْ سِـرىٌ . . مِفْتـاحى . . هُمْ أعلَم بِي منى ، إن شهُـرت بهمْ شَهَـرتُ بعرشى . . إن أعلنتُ جريرتهم . . عَفَرتُ على رأسى . . وأنا لستُ الرجل المعتوه . . .

● الحق مَعَكْ . . ، يعنى ذا أنك جرَّبتَ الخوف ؟

ـ إنى أرفض . . لا ردّ !

● هل تفتح بابك حين تنام ؟

ـ الحرصُ وقاء . . أفتحه أو أغلقه هذا شأنى . .

● من أعداؤك ؟

ـ عاداني من خالفنى . . من خالف ظَنّى . . أو أمرى حتى لو كان أخى . .

● ماذا لـ هتك أسرارَك غزو ؟

ـ أتحايلُ كى لا تَتَزَحْوَلْ عن عرشى ساقهُ ؟

● أوَ هـذا هَمّك ؟ . . والنـاس . . وعار السبى . . وثـأر الأخـوة . . أبنـاء العم . . ، وهيبة رايتنا إذ تَنْسَلُ ؟ . . هل تتنصّل . . ؟

ـ جرّبتُ الناس . . أمِنتُ ، وجرّبتُ الأخوة فطمعت . . ، وعن أبناء العم فيجمعنا كُره ثرثارٌ . . ميئوس منه ، وأما عار السَّبى . . ففى الزمن السالف كان بحوزتنا أسرى والأيام دواليب . . أما الراية سنرقعها . . أبداً لن أسْلخَ جلدى . . إناً كالجسد الواحد . . . .

● وإذا يشكو عضو ؟

ـ أستنفرُ عَزْمَ الحُمّى . . ثم أئن !

● وبعْد ؟

ـ حتماً سيكُف عن الشكوى !

ـ وإذا لم ؟

ـ يُبْتَرْ . .

● يوماً ما تصبح وحدك ! يوماً ما قد تشكو !

ـ استنفرُ شعبى . .

● من جوع هاجر . . بَعْضه . . !

ـ أستدعى من ظَلّ . .

● منهم من شاخ ومنهم من جَهّز سِكيناً كى يَفصِلَ رأسَكْ !

ـ سأُعدّ جَعائِل ومناصب تُثْنيهم . .

● أنسَيت بأن خزائنكم - عفواً - صلعاء ؟

ـ نستنجد بالأصحاب الغُرباء . . تُمْلُكهم . . كَحمَايَةْ . .

● وتسلّمهم أنفك . . ؟

ـ لكنى سأظل على عرشى طاووساً . . !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

● لكنك ضعت . . ، ألا مارسْتَ الحُب ؟
ـ الآن تجشأت نواياك . . ، استدراج للفخ . . ، لأذْبُل ..
● لا . . بل تتطَهَّرُ . . فتصِحْ . .
ـ أتطهَّر بالماء . . ، فنحن الساسة إن أسلمنا للقلب أزِمَّتنا . . ضِعنا . . ورُمينا بالخَبْلَهْ . .
● حبَّ بعقلك . . ثم استفتِ قلبك
ـ ماذا تقصد ؟
● أن تبنى جسراً عقلانياً من قِطَع القلب على نهر الشك الفاصل بينك ورعاياك ولا تغلق أذنيك بحُكم عُرفى ، كى تسمع وتميز بين . . أنين وحنين . . ، بين الكَهْكَهَةِ المفتعلة وحفيف البسمة ، بين الجَعْظ المُكْتَظ وبين المسلول . . وبين عدوٍّ يتربَّص ، وصديقٍ مَنَّاك بخيل السَّوْف . .
ـ لا أفهم . . أو أتصور أنى أفهم زدنى إيضاحاً لا تُلغز
● أن تعرف ما تجهل . .
ـ . . . بالشارد أعلمُ علمى بالوارد . .
● هذا مخ الجهل . . الطَّيِّبِ . . حاول أنْ تَفْهَمْ . . !
ـ . . . أسكت !
● مادمتُ نطقتُ فلن أسكت حتى أكمل
● ● [ويضيف ثقاة العصر بأن السلطان تبعثر بين الغيظ ، الذعر . . الغدر وبين الكظم . . فصاح]
ـ سلبنا منك الأمن أجِبنا من أنت . . ؟ ؟ . . وضيعٌ متآمر . . لن نترك أمثالك ممن يفسد فِكر الأمة . . سأبتُكُ أوصالك . . أحرقها . . وأذْرِيها . . من أنت . . ؟
● شاعر . .
ـ قل هذا . . ! إنى كمْ أمقت تلك الحرفة . . أكره هذا النوع من القول المنبوذ . . ولو غُلِّف حتى بالمدح . . سأطردكم من بلدى . . ، لا . . ، سأكممكم ، . . لا . . أذبحكم بيتاً بيتاً . . قافية قافية . . بل . . سبياً . . سبياً . .
● إفعلْ ما شئتَ . . ولكن ليس الآن بحق عُلاكَ لأنى عشت (رُدوحاً) أحلم أنَّ القاك لشىء فى نفسى لا تحرمنى أن أبلغكم إياه . .
ـ ما هو . . ؟ فتَّ الله فؤادك ..
● هو بيت أنْشَدَه بكَّاءُ الفردوس المفقود « الرَّندى »
ـ أنشِدْه . .
● هى الأمور كما شاهدتها دول . . من سرّه زمن ساءته أزمان
ـ ما جئت بما يُعجز . . أفرَغت ؟

● بقيت كلمات ..

ـ ولماذا لم ترسلها بكتابك لى ؟

● خِفْتُ الرقباء عليها . .

ـ قلها كى نرتاحَ . . وترتاحْ . . قُلْها

● نَبَاتُ الجَوْر أحَبُّ . . وَلَبُّ . . وأنت تودّ العَدْلَ وتخشاه فإما أن نرعى . . أو تتركَ حتى يأتى من يرعى . . . . ، هذا قولى . . فاقتل وارْحنى منك ومنى . .

*

[فى تلك اللحظة هاجَ السالطان وماجَ . . فَكسَّر حُرّاسُ القصر الباب وعجّ الايوانُ بمن هبَّ ودب . . وقيلَ السلطان هَرَبْ . . قيلَ الأعرابى هَرَبْ . . قيلَ السلطان قُتِلْ . . ، قيلَ الأعرابى قُتِلْ . . قِيلَ الإثنان . . وقيلَ وقيلَ وقيلَ . . وحتى الآن على باب الظّن نقف .]

القاهرة : محمد أبو دومة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هوامش

الأدْرَمُ : يقال رجل أدْرَمُ لا أسنان له .
أمُّ دَرَنْ : من أسماء الدنيا
أفْجَة : جمع فج .
فَرْهَدْ : تعب .
النَدْحَه : السَّعة .
الأزْكن : الذكى الحصيف
فَلْيَسْحَجْ : فليغفر
خُنْ : لغة فى خم وهو بيت الدَّجاج
ثَغْثَغ : لم يَبِنْ حديثه .
الخلابيس : الأباطيل ، واللئام من الناس
شَمَّتَ : شَمَّتَ العَاطِسَ دَعالهُ بالخير
هَوَقَ : الشيء لم يُتقنه
هَوَجَ : الشيء لم يحكمه .
تَزَحْوَلَ : تحرك
الجَعْظ : الضَّخْم
الكهكهه : لغة فى القَهْقَهَة .

أصغى .. ويقول الموج

محمد صالح الخولانى

أسألكِ سؤالاً لا أساله إلا أنت
ياذات الباب الموصد . . ياذات الأشرعة المطويّة
ذات الأوشحة المتنافرة ظلالاً وتصاويرْ
إنى مازلت ألوذ ببابك
أترجّى ساعة تنسلّين إلىّ
من وسط ضجيج الحلبة والسُّمّارْ
مازلتُ لعهدى مذ أوصدتِ الباب
أسْأقطُ ذكرى لا تنفكّ تعاود ليلي
ترمينى جثةَ حلم فوق مجازك
وتُسمّر وجهى فى فجوات الوهم الماثل فى عينىّ جداراً
ياذات الباب الموصد
ذات القسمات الجهمة والشفتين المطبقتين
أسألك سؤالاً لا أساله إلا أنت
رُدّى لى ساعة ظلّ أقرأ فيها كتبى
أتحسس تذكاراتُ سنينى الأولى
أتعلّم لغةً
قد أنسانيها لَغَط الحلبة والسُّمّار
أرتحل إلى قاموس الكلمات المنفيّة
وإلى جُزرٍ أقصانى عنها زَبَدُ الموج
جزر التذكار وجزر البوح وشطآن الأجنحة المطوية

إنى ياذات الوهج الناشب فى العينين
لا تستهوينى قصص الليل ولا تنزع بى للإذعان
أضواءُ الحلْبة أو ضوضاء الحيل اللاتى لا أحْذقها
ردّى لى لونَ غنائى
وبراءة أن يتحاور فى قلبى الدُّهَشُ الطفلىّ
مع صوت الموج وصوب الريح
ونداء المطر الراعش فى الأرحام النشوى
رُدّى لى ما استوليتِ على عينىّ
حتى أتملّى فيك جلالاً

ما عادت عينى تتملاّه
مُذْ أغرتكِ الأوشحة المتنافرة ظلالاً وتصاوير
وعرفتِ براعة أن تتحلّىْ للخُطّاب
ببروق الوهج القانى المضرم فى الطرقات
يا ذات الوهج الناشب فى العينين
الناضح لفح النار على الأوردة الظمأى فى الطرقات
رُدّى لى صبح نهارٍ صاحٍ
أجمع فيه أصداف البحر
أترامَى مثل الريح على الشطآن
أُصغِى ويقول الموج وأومض خلف البرق وأعدو فى أشرعة
الضوء المشرّع كالتيجان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عذّبنى عشقك مذ أن كنتُ صبيًا
أرسم حلمى فى الشاطئ ذا أشرعةٍ وتصاوير
أختزنه فى ذاكرة الرمل سنينا
حتى يذكرنى الرمل إذا ما شطّت بى الأنواء
وأتيت لأنفض عنه الصمت . . أزيح صدى أيام التيه
فيواتى شوقى الحلم دفيئاً بحرارة كفّىْ
طفلاً حقليا تزكو فى دمه رائحة العشب
رُدّى لى ياسالبتى طفلى
أُرضعه جمر حكايات العشق المخبوء
أنشده كى يتعلم فى أغنيتى الحَبْو
وأشدّ خطاه حتى يدرج مثلى فى الشطآن
يسألها كى تصْفيَهُ النجوى فى ساعات الوحل
حتى لا يزلق مثلى فى زَبَد الوهج الليلى

أُقرئه شِعر الليل المورق فى عينىّ
واعلّمه
إن يَصْلُبْ عوداً بين يدىّ
أن يعرف فيك البوحَ وأن يُحسن صوغ الكلمات
رُدّى لى ياسالبتى حلمى
فالساعة لا أحلامَ لدىّ
شابت ناصيتى
وتولّى قلبى هَرَجُ المرفأ والخلجان
ما عاد يقول الموج فأصغى
وتولّى ظهرى يبسُ العمرِ الوانى
ما عدت بذى مقدرةٍ أن أتطامَنَ للشطآن،كى أجمع من أصداف البحر كنوزى
قد صار لعشقِكِ ناسٌ ينتحلون العشق
وذوو أحلامٍ لاَ أتبيّنُ مِنها حُلمَ صباىّ
ولأنى عشت بريئاً مثل الموج
وصفيّاً مثل سحاب المطر المُفضى للأرحام العطشى
ولأنى قد علمنى عشقُك ألاّ يُلْوىَ بى السفرُ المكدود
عن درب قد ينساب إليك
عن ساعةِ ظلٍ قد عطرنى فيها البوح
مازلت ألوذ ببابك
أترجّى ساعة تنسلّين إلىّ
من وسط ضجيج الحلبة والسُّمّار
وبروق الوهج القانى المضرم فى الطرقات
ياذات العينين المُطفأتين

بور سعيد : محمد صالح الخولانى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زمن البـــيـــع

صلاح اللقانى

١ ـ

هى الآن تمسح وجه المدينة بالحزنِ
قالت لها ساعة البيتِ
صومى إذا اتسخ الخبز ، ولا تأكلى
من طعام اللئامْ
وإن دَقَّ عبد على الدُّفِّ لا ترقصى
واجذبى حول وجهكِ
طرف اللثامْ
أتى زمن البيع
والمشترون انتهوا من حساباتهم
منذ تسعين عامْ

أضاعوكِ من قبل أن تولدى
ثم جاءوا إليك بطفل حرامْ
وأبكَوْكِ من قبل أن تضحكى

ثم قصّوا لسانك عند الكلامْ
وحين ارتميت على مسند العمر منهكةً
جاء ذئب البرارى بزىِّ الطبيبِ
وفارُ الحقول برأى اللبيبِ
وأضحوكةُ القوم والبلهوانْ
وغنّوكِ لحنا رخيص المعانى
وقالوا كلاما
بغير معانْ .

٢ ـ

هى الآن تعرف أن اسمها
منحته القواميس معنى جديدا
وشكلا جديدا
وصوتا جديدا
فتهرب من شكلها المستعارْ
وتهرب من صوتها المستعار
وتهرب من حزنها المستعار
وتبحثُ وسط الحجارة عن وجهها المقتّبَ تحت الجدارْ
وتسأل بائعةً عن رداءٍ يغطىّ حدودَ البكاء الجديدة .
تقولين . . من أنتَ ؟!

سيدتى

فى زمان التخلىّ
تصير حدود البكاء حدودَ الضّحكْ
وتصبح أُوقيةٌ من رياءٍ
تعادل أوقيةً من شرفْ
ولن تعرفى أينّا مات جوعا

ولا أينا رافل فى النزفْ
وتأخذ قنينة السُّم موضعها فوق رفِّ الدواءْ
ويختلط الماء بالماءِ
يختلط الناس بالناسِ
ينبتُ فوق الشفاه القرفْ
فلا تخطئ مظهرى
حين يكثر حولك جمعُ الرجالْ .

٣ ــ
هى الآن طالبةٌ
ترتدى الجينزَ
وتطلق ضاحكةً شعرها فى الهواءْ
وتأخذ فى كل يوم قطار الصباح إلى الجامعةْ
معذّبةً برؤاها التى نبتتْ
مثلما ينبت الحزنُ فى المقلة الدامعةْ
تحب القراءة والشعر والقصص العاطفيةْ
وتضحك من جهل أستاذها
حين يقذف فى وجهها بتراب الغباءْ
يقول لها :
تشرق الشمس كل صباحٍ
وتسقط فى فجوة الليلِ
حين يجَنّ المساءْ
تقول له :
إن فى الليل شمساً
وفى الشمس ليلاً
وليس المدى هو حد السماءْ
يقول لها :
ينبت الورد وسط الحدائق
إن جاده الغيث
فيمثل بالعطر طيرُ الفضاءْ
تقول له :
ليس للورد عطر يفوحُ
ولكنه لغة ونداءْ
يقول لها :
يأخذ البحر أبناءنا فى احتدام الرياحِ
ويلقى بهم تحت ضِرس الفناءْ
تقول له :
يغسل البحر أبناءنا
من تراب التدنّى
ويطلقهم فى الحِمَى أنبياء

٤ ــ
هى الآن فلاحةٌ
اسمها زينبُ
والطريق ممرٌّ طويلٌ
يقود إلى آخر الحزنِ
أو أول الانفجارْ
وزينب باسقة مثل نخل النهارِ
فإن أشرقت . . مثلُ شمس النهارْ
وزينب لا ترتدى حزنها دفعةً
بل تنام قليلا
على ساعد الإنتظارْ
وتخفى ملامحها فى هدوءٍ
كما يختفى الصمت وسط الحوارْ
لها حكمة الطيرِ
لكن حكمتها لم تعِنها على فك ألغازِ وجه المدينةْ
فأعطت حماما
وأعطت يماما
وقمحا كثيرا
وأعطت شعيرا
سلالا من الورد أعطت
وأعطت حريرا
وكان ذراع المدينة يأخذُ
ريش اليمام لكف الأميرةْ
ولونَ الغلال لشعر الأميرةْ
ولحمَ الحمام لبطن الأميرة
ويصنع من جلد زينب حمالة لنهود الأميرة

لها حكمة الأرضِ
لكن حكمتها لم تُعِنْها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على فهم تلك الأمور الكثيرةْ
فسارت
وكان الفضاء المحاصر بالبنايات يُلجئها للمُضىِّ
بنفس كسيرة
يلاحقها المطر المتساقط فوق البيوت
وفوق الطريقِ
وأعمدة الكهرباء المنيرةْ

لها حكمة الشمس
لكن حكمتها لم تعنها
على ردّ بطش الذئاب الخبيرةْ
فأوقعها رجل فى الظلام على ظهرها
ثم غادرها
والطريق ممر طويلٌ
يقود إلى آخر الحزنِ
أو أول الانفجار .

دمنهور : صلاح اللقانى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شـــعر

كان يحـــلم بالمـــوت والزنبقـــة

ناجى عبد اللطيف

كان يحلمُ بالمطر المتسربل بالنافذةْ .
وجههُ العذبُ . .
كان ينامُ على صفحة الماءِ . .
(لحظة أن يهرب الماءُ للبحرِ .) . .
حتى يلامسَ موجتهُ الهاربهْ . !

في المساء . .
تُخرجُ الأرضُ . . أنفاسها الباردهْ .
تتلمسُ دربا . . ،
يُعيدُ إليها الأغانى الحزينة . . ،
والأفئدهْ . !

وأنـــا . .
فى المساء الحزين . . ،
أطالعُ وجهكَ يقرأ وجهى ، . .
يعيدُ الطريق لأنجمهِ الشارده . !

مطرٌ . . ، أم قصيدة . !
وردةٌ هى ما بينَ عينيكَ واللحظةِ الآفلهْ .
مطرٌ . . ، أم قصيدة . !
لم تعدْ فى الطريقِ سوى دمعةٍ . . ،
تستديرِ بعين المسافرِ . . ،
حين يعودُ المسافرُ للبيتِ والمقصلهْ .
مطرٌ . . أمَ . .
هى الأرضُ . . ، والأرض هى . !
مطرٌ . .
أنتَ . . مازلتَ تحملُ عبء المسافةِ . . ،
ما بينَ قلبىَ والأغَنياتِ . . ،
ترتّقُ بالدفءِ جرحَ القصيدهْ .
مطرٌ . . أم قصيدة
تختبى بين جنبيكَ . . ،
تختارَ أن نلتقى والقصيدهْ . !
تختبى بين جنبيكَ . . ،
تختارُ أن تلتقى والألمْ . !

الاسكندرية : ناجى عبد اللطيف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التوجّه للبحرُ

سعيد مجاهد

هكذا . . . يبدأُ الآن قلبى طقوس التوزع فى لافتات المحطاتِ
كل العواصم تعرف بصمة صدرى عليها
وكل النوافذ منقوشةٌ فى دمى
قلتُ :
ياقلبى ماذا يفيدُ التوجهُ للبحرِ
إن الهوى شاسع
بين حبة رملٍ
وبين المجرّةِ
بين الهجير المغنّى على صفحة الروح منى
وهذى العناقيد من سلسبيل الندى
هكذا . . .
يبدأ الآن قلبى طقوس التفتت
أنشرهُ فى اخضرار الوريقات إذ يكسرُ الضوءُ طيّاتها
أرفع الصوت بالأغنيات التى قد تعرّج فيها الصدى : ــ
« إنت فاتنةٌ وأنا هرم
أتأملُ فى صفحة السين وجهى متبسماً دامعا[1]
ثم يجرفنى الليلُ

(بين الأقواس)
(١) بيت للشاعر أحمد عبد المعطى حجازى
من ديوان (كائنات مملكة الليل .)

أدرك أنَّ العذابَ يغرِّد فى مهرجان العذوبةِ
أدرك أنَّ التباريحَ آتيةٌ من براحِ المسافةِ
ما بين هذا الهجيرِ المُغنى على صفحة الروحِ
والمقلة المستحيلة .

كان للجرح شكلُ اتساع المطاراتِ
للحزن أغنيةٌ من أزيزِ المحرِّكِ
هل ينبغى للروافدِ أن تتسلق ضلع السماوات
أو يحمل القلب هذى التضاريس يُودِعها فى شُعَيْبات صدر الغمامِ
المواجه للعين ؟
يرتدُّ سُؤْلى
فكل الذى دون عينيك رسمٌ غريبٌ على القلب لا يأتلف

إن للبحر توليفة من عيون النباتِ
ومن هندسيّة هذى القواقعِ
للبحر نافورةٌ من رذاذ التوحشِ
حنجرةٌ للغناءِ الجماعىّ
شرنقةٌ من خيوط المواجع
لكننى حين يفجؤنى البحرُ أسْلمُ وجهى للازرق التركوازى
والصدر يصبح خارطة للطحالب
من أذْبل الآن زيتونة العين غير التوجه للبحرِ
من صاغنى فوق رمل السواحلِ ملحمةً من صَدف ؟

كنتُ أغمضُ عينيه للاكتحال الخليجىّ
ألقى إلى الموجِ بالعُملةِ المعدنية
ترتدُّ أمنيتى نورساً عارياً
بينما كان وجهكِ ترنيمةً لازدواجية الممكنِ المستحيلِ
فلا تبدئى لعبة الارتحال المفاجئِ
إن الهوى شاسعٌ
شاسعٌ
والأصابعُ مطمورةٌ
فى نسيج الحجر

القاهرة : سيد مجاهد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نداء الواحة

صبرى أحمد

يا أيتها الواحة
لا أسأل
في أيّ زمانٍ أو كيف
سكِر الرّمل بقطْر الريحْ
وتنامى الماء الثرْ
في خاصرة الأرض ـ الليل ـ المعدن
فتعانق
وتعاشق
في زمن الخصب مع البذْر النخل
ومع الصمتِ فكان الظل الأنشودة
في زمن الوجه المفتوح الممتدّ
من مرفأ أيامى
حتى ساعات الوهج المنسوج
على خدّيك وعينيك
يا أيتها الواحة
وعلى أجفانك كان الظل الأنشوده
ضحكاً وزهوراً فوّاحة
تتحدى هاجرق
فأجادل في السكر قوافل حلمى
ويقيني
وأتيهْ
يا أيتها الواحةْ
درويشاً يقرأ للريح وللحب المُعرّى
ألواحه

المغرب : صبرى أحمد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إشراقات الخاصة

عبدالناصر عيسوى

تتصاعدُ أبخرةٌ .. تملأ أرجاء الحُجرةْ
والمسبحةُ اللامعةُ تمرُّ .. وتخترقُ الظلمةْ
بين أصابعِ مولانا الشيخْ
كان يُلقّننا أورادا نتلوها قبلَ الجوعِ ..
وبعدَ الجوعْ
أورادا نتلوها قبلَ القحطِ ..
وبعدَ القحطْ

أورادا قبلَ العُرى ..
وبعدَ العُرْىْ
قبلَ دُخولِ الحمّامِ ..
وقبلَ دُخولِ المُدنِ الوحشيّةْ
هذي أورادُ العامّةْ
أما أورادُ الخاصّةْ
تلكَ الأورادُ السرّيّةْ

باللغةِ السريانيّةْ
نتلوها .. ليسَ لنا أن نسألَ عنها
تتحرّكُ لحيتُه البيضاءْ
حين يُحدّثُنا عن فائدةِ الجوعِ ..
وعنْ قِصصِ الأبطالِ الجوّعى
حينَ يُحدّثُنا عنْ عاقبةِ المُقترفين
مِنَ الشهواتْ
(كادتْ تفتنني زوجتُه الصُغرى ،
كنتُ أقاوم)
كُنتُ أُحدّثُه عنْ محبوبتيَ الشقراءْ
قالَ الشيخُ : تفرّغ للهِ ..
وزوّجَها لأخيهِ الأصغرْ
فسألتُ الشيخَ ، أجابْ :
هذي أسرارْ
فحمدتُ اللهْ
لمّا أنْ ماتَ الشيخُ ..
وغابتْ تلكَ الإشراقاتْ
كِدنا نحتجّ على موتهْ
قالَ مُريدوهْ :
لمْ يعهدْ بخلافتِهِ إلاّ ..
لأخيهِ الأصغرْ
فلنجلسْ للمولدِ الشيخْ
نسألُهُ عن آدابِ الذكرِ .. وآدابِ النومِ ..
وآدابِ المجلسْ
حتى يقنعنا - حينَ يجيبُ بما لم نبلغْ :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نسألُهُ عنْ غَزَلِ الحَسْناواتِ ، يُجيبُ .

هَذِي أسْرَارٌ . .

وبنَفْسِ المِسْبَحَةِ . . يُرَدِّدُ نفْسَ الأوْرَادِ . .

ونفْسَ الأقوالْ

وبنَفْسِ اللِّحيَةْ

تُخْبِرُنى محبُوبتِيَ الشُّقْرَاءْ

كانَ الشيخُ الميِّتُ . .

يخلعُ لحيتَهُ البيضاءْ

قبْلَ النَّوْمْ .

القاهرة : عبد الناصر عيسوى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

غثـــاء الســـيل

على منصور

لا بأس إذن
فاللغةُ اشتعلت بدمكْ
واغتسلت مفردةً
بعذابك حتى ابتهجتْ
وازدانت
ـ فى الليل ـ
ضفيرتُها بقرنفلةِ الإمكان ، امتلأت رئتاها
بفضاءٍ . .
ورحابهْ .
وتشكّلت اللغةُ المرتابهْ .
قلنا : وطنٌ . .
قالت : غابهْ !
وملايين الأوْجُه تتدلّى من شجرِ
الوقت وجوماً . .
وغرابَهْ .
أوَهذا يكتبُ . . أمْ ينسكبُ من العينين
تجاعيدَ كتابهْ ؟!
أوَ هذا يُقرأ . . . أمْ يتلكّأُ فى الصحفِ
اليومية ، يتخفّى فى
كرّاسات الحزن مواويلَ صبابَهْ ؟!
قلنا : هذا النيلْ ،
أسِفَتْ . .
ـ منفىٌ فى « المنطقة الحرة » ،
وطليقٌ . . .
فى أودية الصمت شرايينَ كآبهْ !!
قلنا : ها هو ذا وادينا ،
ها هو ذا . . مزدحمٌ بطوابير أغانى ،
وطوابير أمانى ،
وطوابيرِ . . . . . ، فمطّت
شفةً ، وتولّتْ . . .
ورآها القلبُ تخطُّ : غُثاء السّيلِ ،
غثاء السيلِ ، فدقَّ
وراح يصلى . . . فى ظلّ سحابهْ .
. . . وتيقنت اللغةُ المرتابهْ .

الكويت : على منصور

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقاء

مفرح كريم

رَمَى حَجَراً فى الفَضَاءِ
وَأَشْعَلَ فى ظُلْمَةِ الوَقْتِ
نَارَ القَصَائِدِ ،
طَارَتْ إلى الأفقِ كُلُّ القلوبِ
وألْقَتْ علينا
، ضِيَاءً تأَجَّجَ فى كُلِّ رُوحٍ ،
مَشَاعِلُ مِنْ غَضَبٍ
فانتزَعْنَا الهُدُوءَ الجَميلَ
رَمَيْنَاهُ فى لُجَّةِ الرِّيحِ
ـ وأَنْتَ ابْتَدَأْتَ الرَّحِيلاَ ،
وَلَمْ تُبْقِ فى خَزْنَةِ الدَّارِ
غَيرِ الدُّمُوعِ ،
وأَنْتَ ارْتَوَيْتَ بما فى الغيابِ
مِنَ السُّكْرِ ،
أَنْتَ ابتدأتَ العتابَ
فلَنْ أَبْرَحِ الدَّارَ حتى يعودَ الذى بَيْنَنَا
يشيرِ إلَيْنَا
بأنْ نعْقِلَ الرَّاحِلَةْ
ونقيمَ الولائِمَ
قَبْلَ الصَّلاَةِ الأخيرَةْ » .

وَقَفْتُ .. وَقُلْتُ : السَّمَاء اسْتَطَالَتْ
وألْقَتْ إلينا مقاليدَ هذا السَّحَابِ
وَطَالَ النُّعَاسُ ،
تَحَوَّلَ فينا ضَبَاباً
تَحَجَّرَ ... ،
حتى نسينا البُكَاءْ .

رَمَى حَجَراً فى دمى
هذه مُلْصَقَاتٌ بِحَجْمِ الفَضَاءِ
تُحَدِّثُ عنْ بَلَدٍ يَتَسَرَّبُ عَبْرَ شُقُوقِ الرِّمالِ
ونحنُ نجيءُ من الأمَلِ المستحيلِ ،
ونصنعُ حَوْلَ التلالِ سياجا
مِنَ الحُبِّ يَصْعَدُ ،
مِنْ وشوشاتِ الطيورِ
ونشْرَبُ خَمْرَتَنَا
وننامُ على سُرُرٍ فى ضميرِ الحقولْ .

وَلَمَّا رَآنِي أُهَدِّمُ فى كلِّ يومٍ ضبابَ الحجارَةِ ،
قالَ : النساءُ يمزِّقْنَ أعْضَاءَهُنَّ ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقالَ : الطيور استدارَتْ لتشْرَبَ من ماءِ هذا السَّرَابِ
وتعلنُ عنْ غيبَةِ الأفقِ ،
تلقى علينا عَبَاءَتَهَا المَرْيَمِيَّةِ
حَتىَّ تفجَّرَ مِنَّا الدَّمُ . . وَالْحَجَرْ .
فقلتُ الذى بيْننا لمْ يزلْ فى الفؤادِ ،
وأنتَ تراوغُ فى كلِ وقْتٍ
وليْسَ لى العمرُ آنيةً للشَّرَاب
فأفرغ مِنْها ، وارمى بها للفضَاءِ السحيقِ
وأعلمُ أنَّ الحياةَ استحالتْ جَدَاراً
وأن فؤادِىَ طَلْقَةُ مِدْفَعْ
تُغادِرُ مِدْفَعَهَا فى الطريقِ
لتثقب هَذا الجدارَ
وأنْتَ تراوغُنى
لأعْلَم أنىَّ أعيشُ الجنونَ
وألبَس قُبَّعَةً من نجومِ السَّمَاءْ .

وَحِينَ اسْتَدَارَ
أشَارَ
فجاءَتْ بلادٌ مِنَ الغَيْمِ تَمْشِى صُفُوفاً
صُفُوفَاً
وتقبضُ منْ غَبشَةِ الفَجْرِ ، ما يملأُ النيلَ ،
والأفقَ ، والعُمْرَ ، واللغةَ المستحيلةَ ،
أشْرَقَ قَلْبى
وَأعْلَنَ :
هذى السماء تحاصِرُنى ،
وتخضبُ لَحْنَ فَضَائى
بصَوْتٍ تكاثَرَ فى عشِ رُوحِى
أمُدُّ خيوطَ الدُّعَاءِ
وأجذبُ كلَّ الخلائِقِ
أنفخُ فى الصُّورِ
أنتظِرُ البَعْثَ
بينَ حروفِ القصائِدْ .

القاهرة : مفرح كريم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نـــــزف

صلاح والى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وردةُ العَزْفِ من داخل النَّزْفِ صوتُ الكمانْ
والناى صوتٌ تجلّى من النأى بالشَّجْوِ حين يغيبُ الزمان
والناى يهتزُّ فى الجرح
يشتدُّ فى القلبِ وَقْعُ الكمان
فلاينأيان
ولا يكذبان
أُقَلِّبُهُ بين راحة قلبى ، وبين أصابع جرحى
فيحْتَبِسُ الصوتُ حيناً
وينبثقُ الصمتُ بِضْعَ ثوانْ
فأتركهُ لحظةً فى السديمِ ، هنالكَ ما بين صحوٍ ونومٍ ،
فيرتجّ فى داخل الجرحِ صوت الكمان
فيغتربُ الجرح مثل النوارسْ

ويشدُّ أصابعه فوق خيل الجراح
فيرْمَحُ بالشُجوِ نای الهوى والزمانْ
وعيناى بالحب نَضّاختَان
فلا انْفَتح القلبُ يوماً لقرع الطبول النشازِ
ولا انحاز للفرح أى انحيازْ
ويَشْتدُّ قوسُ الكمان إذ القلب فى عشقهِ وردةً كالدهانْ
وردةُ العزفِ نزفٌ من النّأى
والشُجوِ
والقوس يذهبُ فى رقةٍ فوق أوتار قلب الكمان
فلا ينطقان
ولا يبسمان

القاهرة : صلاح والى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لاتشرح النرجس

حلمى سالم

● عَزْف

العازفُ يتوّحد فى وَتَره
يتداخل فى الموسيقى متّئداً ، مُخْترقا
يسكن نبرتَه ، ليحطُّ الطيرُ على كُمّ قميصى .
فلماذا حين انسكب القلبُ على المرآة ارتجفتْ أهدابى ؟
ولماذاحين انجرحتْ معزوفته أبصرتُ المدْيةَ فى نافذتى ؟

العازفُ يمضى نحو بدايته الأولى ،
يتبدّى فى طرف الحقل المَرويّ بشوشاً وصموتاً .
فلماذا قلتُ : العازفُ يتوحّد فى وَتَره ؟
وأنا أعرفُ أن العازف يتضرّج بمواجع شجَره
ويسير على الموسيقى منغلقا
يتخفى فى نبرته ليحط الطيرُ على قَدَره
فى كُمّ قميص ، مختنقا .

● غرفة

كَمَنْ يبتُّ بحره عن اهتياجه ،
كمن يُباعِدُ البيوت عن حصيرها ،
تجيء لى المنيهةُ المُزَلزله .
هل الهواءُ بين ساعدىّ والمساءْ

بثقل أشياء مهجتى التى تطير فى خواءِ غرفةٍ بعيدةٍ ؟
هل الأصابعُ التى تشابكتْ خلاصةٌ لأزمنه ؟

كمن يشقُّ غيمةً عن اكتنازها بزهرةٍ مُحَمَّلَه ،
تشقّنى المنيهةُ المَزلزِله ،
وتختفى على بهائها كمن يغيبُ فى بهائه .

● العابر

كان على العابر أن يمتحن يديه
وهما تفتتحانِ الخطوةَ بين الزرقة والمصرع ،
لكن العابرَ خانته الحُنكةُ فى وصف الصلة الموصولةِ
بين زفير السيدة الصغرى والشعرِ ،
فشارف بعضاً من ميته المخصوصة .
؛كان يغنى فى ليلته :
للأنثى أن تحتكم إلى النهرِ لينصرَها ضد الأفقِ اللّماحِ
وأخيلتى ،
ويثبّتها خلفَ ستائرها :
بمحاذاةِ القولِ المكتومِ ، وأعلى من إبريقٍ مصبوبٍ .
للأنثى أن تختصرَ الماشينَ إلى ذبذبةٍ
بين تحرُّكها وفضاءِ أريكتها النابضِ .
هل كان على العابر أن يقطع هذا الزمنَ المتوتّرَ
بين الزرقةِ والمصرعِ ، بالأغنيةِ المنقوصة ؟

واجَهَ سَيْفَيْها المغسولين ، تأمّل غيبوبته الحاضرةَ ،
وراجعَ غنوته وهو يشارفُ بعضاً من ميته المخصوصة :

للأنثى أن تصنع فى شرفتها فانوساً
وتدارى أبيضَها الغُفْل ،
وأن تثنى رُكبتَها لتقيمَ الرمزَ على مائدة
بين المسِّ وجسدِ الممسوسِ ،
وللأنثى أن تتحصن خلفَ تنفسِها الموقوت .
فهل كان على العابر أن يمتحن الصلة الموصولةَ
بين زفيرِ السيدةِ الصُغرى والشعرِ ،
لكى يتخبرَ ميتته التّامّةَ :
هل فى الأغنية المنقوصةِ ؟
أم فى الخطوة بين المرأةِ وقصائدها ؟
العابرُ خانته البرهة ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

● جماعة

كساقيةٍ من لظىً ، تُقبلُ المرأةُ المستحمَّة
جدائلُها المرسَلاتُ على النحرِ والخصرِ والبطنِ والكعب والناهدين :
أثمة .
أكنتُ المُضلَّى أم المُضطَلي ؟
أفرداً ؟ أتلخيصَ أمَّة ؟

● القرط

صَحَتْ إلى نعاسِها ، مَشَتْ وحيدةً تجاه قرطها
حَكَتْ حكايةً سريعةً عن الفتاة والشاعرِ الكذوب .
وغمغمتْ : يظلُّ من قُلَّةِ أربُجِها لا شكلُ طينةِ الأُصُص .

بَكَتْ وحدَّقتْ بقرطها ،
ثم غيَّبَ النعاسُ هدبَها على يدىّ .
تهدهدتْ بنهرها على سريرها القديم
وفى جوارها قصيدتى الأخيرة :
تكاد أسطرُ حزنيةُ تلامسُ الخرزةَ الملوَّنه
يكاد طرفُ القرط أن يحفَّ فى حروفها الكسيرة .
وهى ما تزال نائمة
بلا أصُص
وبينما يحفُّ بى الأربجُ كنتُ فى فضائها مُعلَّقاً أحفُّ به
ونهرُها الحديثُ ما يزال فى سريرها القديم
جارياً ، بدون شكله .

● صورة

الذكرى تركن ثدييها فوق أصابع قلبى ،
وتُشاغِلُ عينيها بتأمُّل أشياء الله ، وتغفو فى صدرى .
الذكرى تفرطُ فى السهو ضفائرَها المبلولةَ فوق قميصى ،
وتحدثنى عن أخطاءِ الأحزابِ وعن خاتمها الوجداني ،
ثم تصبُّ القهوةَ هادئةً وهى تدارى دمعتَها فى جلبابى ،
وتُخبِّئُ شفتيها خلفَ هواء الحجرةِ ،
وهواءُ الحجرةِ يقظانُ .
الذكرى تخلعُ برنُسها الفضىَّ وراء البابِ المردودِ خفيفاً ،
وتموتُ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

● النرجس

لا تشرحْ نرجسَكَ المخطوفَ تماماً
فالنرجسُ فوق حكايته ، وأخفُّ من اللغة المكتومة
بين البطِّ وماءٍ بحيرتِه المقفولة .
واختبرِ النرجس هوناً هوناً
فهو أغضُّ من الأسئلة المألوفةِ بين الجمرةِ ورمادِ سخونتها .
لا تقلِ النرجسُ حَدٌّ لى فالنرجسُ ضد الشاطىء والقوسْ ،
وهو أخىُّ الخيلْ .

لا تكُ سَنَداً للنرجس فى غَسَقٍ
فالنرجسُ سَنَدٌ لسماءِ النهرِ وغُرْبتِه المطمورِ بأقدامى ،

حسبُكَ أن تصبح محفوفاً بملائقه الليليةِ بين الطلقةِ والنار .
لا تذهبْ للنرجسِ فى شفتيه
فهو براءٌ من صفو الأعضاء
واذهبْ فيه على الشعر وطفلٍ يَسقطُ من أرجوحة .

لا تقل النرجسُ فوّاحٌ وكميلٌ
فالنرجسُ أبعدُ من هيئتِه الملموحةِ وأدلُّ من الحقل .
وقلِ النرجسُ بَدَنٌ هواءٍ يتذبذبُ بين الماءِ وبين الطيرِ
الطائرِ خفْوِ الماء .
وهو النُقصانُ تماماً .

القاهرة : حلمى سالم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرســـولة

عبد المنعم رمضان

أنت الواقف عند الباب ، أراك الليلة ، شعبيّاً ، وعميقاً تدخل جوفَ العينِ ، وتطلقها ، وتصير الأمرَ ، قالت لى .

فنظرتُ إلى ثوبي ، ونظرتُ إلى أطرافِ أصابع قلبي ، كان الدغلُ الهائمُ بين السرّةِ والكتفين رهيفاً ، والأغيارُ خفافاً ، والحجبُ المنسيّةُ أشهى مما كانت تتصوّرُه الريحُ ، وكنتُ أخطُّ الخطَّ ، وكانت تمحو ، كنتُ أمرُّ بين البلدِ الكائنِ والبلدِ المحبوبِ شعائرَ ، كانت تخشى لو تحجبُها ، وأنا غِرٌّ ، وهى غيورٌ ، فى جرّتها كان العالمُ يطفو ، حتى يصبح غيماً ، لا يسّاقطُ إلا فى جرّتها ، وأنا أدلقُ كلَّ مياهى ، أحشو جسمى بقواميس الحزنِ وأحوالِ العشاقِ ، وأحشو جسمى ورقاً أبيضَ ، آنيةً ، ودوالىَ ، علَّ قصائد تنبتُ ، تصبح ضمن سلالة حزنى وتقاويمى ، هذا صيفى الفاترُ مثل النطفةِ ، هذى كلُّ عصافيرى تتأرجحُ فوق تخومِ اليقظةِ وتصاويرِ النومِ ، وهذا الورقُ الأبيضُ عجلاتٌ أركبها حين أدبُّ إلى وطنى ، وأنا لا أعرفُ كيف أحنُّ على أنسالى ، كيف أروّضُها ، فتهشُّ إلىَّ إذا أومأتُ ، وتملأ قامة هذا العالمِ باليرقاتِ ، وبالتوتِ البرّىِّ ، وتُحيى ــ إذْ أو ماتُ ــ الموتَ ، تشفى الأبرصَ والمسرورَ ، وتلهثُ خلفَ الماعزِ والجاموسِ وقطعان البقرِ الوحشىِّ وبعضِ الكلماتِ الطيبةِ فتهربُ منها .

أنتَ الواقفُ عند البابِ ، أراكَ الليلةَ ، شعبيّاً ، وعميقاً يمشى الكونُ إلى كفّيكَ ، وتغفو الريحُ ، وتنهزمُ الأسرارُ وتمضى ، وأنا بئرٌ يشربُ منها العارفُ والمشمولُ ، ولا يختلفُ عليها اثنان ، ولا يخلفُها الواحدُ ، ليس تغيضُ ، وليس يدبُّ إليها الوهنُ ، وليس تُرَىٰ عن بعدٍ إلاّ مثل النجم ، وليس تُرَىٰ

عن قربٍ إلاّ مثل جناحٍ ، يخفقُ تنفلقُ الذريّةُ ، يخفقُ يصبحُ شجرُ الحزنِ جذوعاً خاويةً ومساندَ ، هل تصحبُنى ؟

أين ؟

إلى برّين ، وساريتين ، وجسمٍ يشغله جسمانِ ، وماءٍ يجمعُ ما بين الجسمين ، ووقتٍ ليس النورَ وليس الظلمةَ ليس البركاتِ اليوميةُ ، ليس خياماً تبركُ فوق الرملِ ، وتلحسُ حدُّ الجوعِ ، وليس فراشاتٍ تتألّقُ فى لحظاتٍ ثم تموتُ بوقتٍ يهطلُ من سُحبِ الوقتين ، ومنزلةٍ تتهادىٰ بين المنزلتين ، فلا شرقىّ فيها . . لا غربىّ ، نورٌ يسعُ الكونَ على نورٍ يتدفّقُ ، مَثَلُ النور كمشكاةٍ فيها مصباحٌ ، والمصباحُ تلفُّ على جنبيه زجاجةُ عطرٍ ، تُوقدُ من عذراءَ مباركةٍ ، بيضاءَ ولم تمسسْها نارٌ ، ثم تمرُّ إلى يابسةٍ ، ما إن نخطو الخطوة حتى نطلع مثل الهدّامين البنّائين ، ونمشى فى أروقةِ الجنّةِ ، ننزلُ منزلَ صدقٍ بين عواميدِ الأمثالِ ، ونعدو فى مزمورٍ لذوى القربى ، نُعطى السائل والمحرومَ وجوهاً تنشعُ بالأفراح ، ونُعطى للعشّاقِ كتاباً عن طبقاتِ الصوفيين ، علينا الخرقةُ مثل قضيب البانِ ، ولا نستنزلُ قوتاً إلاّ كى يأكله عنّا المستندون إلى الأقدام ، ونأكل نحن بذورَ الحلمِ فنشبعُ ، نأكلُ نحن القمرَ الصاهلَ فى الحقوين ، نلفُّ على الأعضاءِ الخرقةَ تشعلُها الأعضاءُ ، فنخرجُ نحو النارِ ، ونشهدُ أنّاكنّا اثنين ، وصرنا خيطاً لا يتفرّقُ فى خيطين ، ونشهد أن الله تجلّى فينا ، فانفرطتْ أشجارُ العاشقِ والمعشوقِ ، الخالقِ والمخلوقِ ، وباحت كلُّ الناسِ لكلِّ الناسِ ، وكدنا لو نقتلعُ السِّدْرةَ ، لولا أنّ سراباً يعْلقُ فى الأوراقِ ، وأوشك أن يقنصنا عضواً عضواً ، ثم يقوم علينا منه إمامٌ ، يأخذنا بين ذراعين ، ويلقينا فى البلد الكائن حيث الناسُ رقودٌ تحسبهم أيقاظاً ، والبلدُ المحبوبُ يفيضُ ويصبحُ مثل النجمِ ، ويقرب إن عشْتَ علىّ ، وإن عشْتُ عليك ، ويهبطُ مثل جناحٍ يألفه الغاوون ، وتنفلقُ الذريّةُ ، نحن الأوّلُ ، نحن الآخِرُ ، نحن الظّاهرُ ، نحن الباطنُ ، هل تصحبنى ؟

أين

وإذا بالمرأةِ تخفتُ مثل البرهةِ ، تعدو خلفَ فضاءِ العين وصرتُ أنا كالهاربِ ، الحسُ ما يتبقّىٰ منّى ، ثم أقصُّ أظافرَ قلبى ، وأكوّمها ، كى أتخلّى عنها حين تصير قصائدَ أطولَ من أحزانى .

القاهرة : عبد المنعم رمضان

«أوديسانا» رواية الحلم المستحيل

د. السيد ابراهيم محمد

« الحلم المستحيل » أو الرضا من الغنيمة بالإياب ، على حد تعبير الشاعر العربي القديم هي حصيلة التجربة عند محمود قاسم في أوديساه . وهي قضية الجيل الذي ينتمي إليه الكاتب ـ قضية المثقف الذي يحرص على أن تكون له رسالة في الحياة : حلم حياته أن يجمع الثقافة والحرية والشرف وأداء الرسالة . كانت القاهرة طموحه والأفق الذي تشد الهمة إليه رحالها ، وكانت الأمل ، فعاد منها مُوَشّاً مكلوماً مهيض الجناح ، عاد وهو يعدّ رجوعه عنها فوزاً .

يقول الكاتب معقبا على تجاربه المؤلمة : (. . . في تلك الليلة ـ قررت أن أترك المدينة التي لم أنل منها شيئاً . . . . أن أترك كل هذا الغبار الذي يملأ نفوس الجميع لأعود إلى مدنيتي . . إلى حبيبتي الوفية التي ستفتح لي أحضانها ، لا يهم أن أكون أديبا عظيماً ، فالعظماء في هذه المدينة أسماء كبيرة فوق بالونات) .

كافح بطل الرواية لكي لا تنفصل حياته عن رسالته . كافح من أجل ألا ينخرط كما ينخرط سواه في توهان الاستسلام لظروف حياته ومقادير زمانه . ودلائل ذلك ورموزه في الرواية كثيرة ، منها أنه رفض الوظيفة التي لا تتناسب مع مؤهله الجامعي واستعداده العقلي ، رفضها ولم يكن قد مضى له في المدنية أكثر من أيام قليلة ، حتى عد زملاؤه ذلك منه جرأة بالغة . يقول لرئيسة في العمل :

ـ أرجو أن تسمح بالموافقة على نقلي ، فيرد عليه قائلاً :

ـ وماذا أقول للوزارة ؟ أأوافق لموظف على نقله بعد استلامه العمل بثلاثة أيام ؟

ويقول له الآخرون :

ـ ليس هذا بأسلوب تحادث به مديرك . . في المصالح الأخرى يقدمون عريضة لمقابلة رؤسائهم . وسيادتك ابن ثلاثة أيام في الوظيفة وتقول هذا الكلام لمديرك ؟ وهم يدعونه للرضوخ قائلين :

ـ كنا مثلك عندما استلمنا العمل . أما هو فالرؤية عنده واضحة ولا تقبل المساومة .

ـ أنا خريج كلية علوم ومن أبطال الحرب وقضيت في البحر الأحمر ثلاث سنوات أعمل إداريا وأود أن أعمل في مجالي . .

والقيم الإيجابية التي يخرج بها القارىء من رواية محمود قاسم كثيرة . منها أن المدينة التي لم تستطع أن تصونه أو أن تحمي موهبته لا تكون جديرة بالبقاء بها . وهذا هو المعنى الأساسي من الرواية كلها . وهو المعنى الذي أراد أن نلتفت إليه بقوة . إن القاهرة بحاجة إلى قوة روحية هائلة تنتشلها من الوهدة التي تردت فيها . . القاهرة بحاجة إلى اغتسال روحي وتطهر وجداني . اقرأ قول الكاتب مثلا وانظر إلى المغزى الرمزي الذي يمكن أن تحمله هذه الكلمات ، يقول عن القاهرة ومياه المطر تغمرها (مياه تنسكب من السماء : إنها لا تغسلها مثلما تفعل في مدينتنا . لا تزيد إلا اتساخا . الأوحال في كل مكان . الوجوه تزداد قتامة وعفونة) .

لقد كانت عودة الكاتب عنها مؤشراً صادقاً بأمرين : أولهما وأهمها إخلاء لفطرته الإنسانية ونقاء جوهرها ، على الرغم من أنه تعاطف مع هذه المدينة وأعطاها من إخلاصه إلى الأمد الذي يصبح تجاوزه إيذانا بانتهائه هو كإنسان . ولقد كان الكاتب واعيا بهذه القيمة الجوهرية : إن الولاء للجوهر الإنساني ينبغي تقديمه على كل اعتبار . أنت تنتمي إلى الجوهر الآدمي من قبل أن تنتمي إلى أرض بعينها . أما الأرض فمرحبا بها حين تكون مساندة للجوهر الإنساني . . مساندة للشرف والطهر وصحوة الضمير ونخوة العزة وسلامة العقل .

أما أنه تعاطف مع هذه المدينة ـ وهذا شأنه مع جميع شخصيات الرواية فهذا ظاهر من إقباله على التلوث بما فيها . . على التلوث بما يعلم يقينا أنه يلوثه .

وعديلة تمثل هذا كله . . الجارة التي تصعد إليه ليفعل بها ماليس من حقه .

وقد يستغرب القارىء هذا المعنى ولكن لا غرابة فيه ، لقد انخرط الكاتب في حياة المدينة ولم يقف بمعزل عنها : لم يتخذ منها موقفا سابقا على تجربته بها بحيث يعزل

نفسه عنها ويعزلها عن نفسه . يراه يقول لصاحبه :

— إنني أفكر في الإلتصاق التام بهذه المدينة . لقد التصق بها إلى الحد الذي اعترف فيه على نفسه بأنه أصبح عاهراً وبأنه لص وبأنه ملوث . وبات يرتقب هذا المعنى ويرتجف له في كل ما يراه . . ولولا هذا الشعور الذي يسري في الرواية كلها ، لم تنطو على معنى إيجابي يستحق الإلتفات . (لست من الذين يتألمون على شيء ضاع . لكن هذه المرأة حللتها لنفسي . أنا مجرم . إنها زوجة وأم . أنا شيء قذر . لن أقترب منها ثانية . أنا رجل بلا مثاليات . عندما تتاح لنا الفرصة أن نسرق فسوف نفعل . ثم سنبرر هذا السلوك) .

وكان هذا الإنزلاق إيذاناً بضياع جوهر شخصيته في (لقد أيقظني - يعني صاحبه - فجأة على تعبير هام ، وهو أنني فعلاً « إنسان بلا هوية » لم أعد أقرأ ، ولا أعرف ماذا أريد . قلت له : إنني فقدت روح المناقشة) .

أما الأمر الثاني فقد أضمره في وفاة أمه ، كانت أمه ترمز إلى القديم الطاهر الجميل الذي تهفو إليه الروح : أمه صورة من تاريخ القاهرة القديم . . من الست الطاهرة ومن الحسين (وهي الأماكن التي تلح هي دائماً على زيارتها) ومن القوة الروحية الكبرى التي أظلت القاهرة حيناً من الزمان : (إذا تأملت الرواية وجدت لحظة وفاة الأم مقترنة أو تالية للحظة التي شكت فيها في إخلاصه ونقائه وطهارة نفسه ؛ لقد شعرت بأن شيئاً مريباً يحدث بينه وبين حليلة جاره) . لقد حرص الكاتب على أن يظهر شموخ الأم حتى في لحظة موتها يقول : بدت في رقدتها الأخيرة كعروس تذهب إلى عريسها وشموخ الأم يتجلى في أنها استطاعت بقوة عزمها وإرادتها أن تقهر الفقر ولا تتركه يقهرها (مات زوجها وهي في الأربعين من عمرها . لم تتزوج بعده . لم تخرج لتعمل في البيوت . بضعة جنيهات استطاعت أن تصل بنا إلى الذي وصلنا إليه)

لقد أمات الكاتب المدينة ، وحين نجا بنفسه لم يكن ذلك هروبا من مشكلاتها أو تنصلاً من مسئوليته ورسالته . ولكن من كان مثله يخالط التجارب بمرارتها وثقل وقوعها على النفس ثم لا يظفر من بعد ذلك بشيء يقوى روحه ، يصبح عرضة لأن تغلبه التجربة على نفسه ، يصبح عرضة للوقوع في الشرك بعد اليأس والإحباط ، يصبح هو نفسه من صميم الدنس والعهارة . أمات الكاتب المدينة ، ولكنه أبقى على خيط رفيع . . خيط رفيع ولكنه قوي يصل بين الأثنين - بين القديم في طهره ، والحاضر الذي انقطع عن هذا كله . يتمثل هذا الخيط في شعور قوي يأتي من عالم الغيب يؤرقه ويوقظه . . من روح أمه التي يراها أمامه ويتصل بها اتصالاً أقوى من اليقين (في الواحدة صباحاً في نفس اليوم الذي ماتت فيه صحوت في غرفتي المظلمة على صوت تنهيد متقطع ثم انقطاعه بحشرجة . . وأنا أضيء المصباح أدركت أن أمي قد ارتفعت إلى السماء ، قالت أختي إن أمك ماتت في الواحدة صباحاً) .

مازالت روح الأم تكتنفه وتسرعه ولا تتخلى عنه . إن هناك أملاً قوياً في أن يوفق للخروج من براثن الإنحطاط الروحي والإنعتاق من الأغلال التي وقع فيها أسيراً . هذا هو الأمل ، ويضاف إلى جملة القيم الإيجابية في الرواية .

لقد كانت لحظة وفاة الأم من اللحظات الحاسمة في حياة الكاتب لذلك انقطعت الرواية عند هذه اللحظة عند ذكر عديلة . ولم نر لها ذكراً في الرواية مرة أخرى . طوى الكاتب صفحتها بغير تردد (إلا قبيل أن تنتهي الرواية ، حيث تظهر ظهوراً باهتاً يؤكد المعنى الذي نشير إليه) . وظهرت في المجال شخصية جديدة تماماً ، ستكون هي موضوع الإهتمام طول الوقت هي شخصية نادية التي ظلت سائدة في الجزء الباقي من الرواية بغير منافسة . لقد وضع الكاتب نفسه أمام المشكلة وجها لوجه . هذا هو المعنى من ذكر نادية . هي ليست شيئاً آخر غير نفس الكاتب . . نادية هي الكاتب نفسه موضوعاً أمام مشكلة الخروج من الدائرة . ولذلك اهتم بها الكاتب اهتماماً زائداً . وحدب عليها حدباً شديداً وأظهر نحوها عطفاً لم نجد له نظيراً . نادية هي عقل الكاتب وملاحه . تفرس فيها جيداً فسترى الكاتب . وقد أطل في مرآة مجلوة لم تخف شيئاً من تفاصيله وأساريره ألم تكن القاهرة هي بلده ، وإنها لغير ذلك في الوقت نفسه ؟ وفي نادية ما يشبه هذا الملمح . تقول عن نفسها إنها مصرية ، ولكنه يقول لها :

— في لهجتك ما يدل على غير ذلك

ولهجة نادية غريبة غرابة الكاتب في زمان ومكان لا يفهمه فيه أهل الزمان والمكان . غريبة غرابة آماله وطموحاته وتطلعاته على ما يمكن أن تتيحه له القاهرة . يقول لها :

— لماذا ترتدين الملابس القاتمة ؟

— أنا في حداد دائم

— على من ؟

— على نفسي

وهي أيضا وحيدة لا أصدقاء لها - كانت لها أخت تحبها ولكنها رحلت عنها . لاحظ هنا التشابه بين الكاتب وبينها حين رحل عنه من يحب بوفاة والدته ولم يبق إلا الشياطين الذين يحاولون قتل عالمه . تقول له :

— لم يبق في المنزل سوى أخوي وأبي . . ثلاثة من ألعن البشر لكل منهم عالمه الخاص ويحاولون قتل عالمي .

وهي تقول له أيضاً معبرة في واقع الأمر عن رغبته الدفينة في ترك القاهرة التي ظنها معقد آماله :

— إنها تود أن تهجر المنزل الذي تعيش فيه ، إنه كتلة من الجحيم . ليس فيه شيء ينقصه سوى التفاهم . لا أحد يسأل عن أحد . لا أحد يفكر في الآخر . هذه هي القاهرة . وهذه هي المشكلة التي يعانيها الكاتب . وأهلها إذا اهتموا بأحد فهم لا يهتمون بالبحث عن همومه ومشاركته إياها ، بل بمراقبته ورصد حركاته وسكناته والوقوف على خطراته . يقول عن نادية وأهلها : (لكنهم إذا فكروا فيها أو سألوها فهم يفعلون ذلك حين تنظر من النافذة أو حين تفكر في زيارة صديقتها الوحيدة . وتقول نادية :

— أنا دمية يحركونني في المكان الذي يودون نقلي إليه .

وتقول نادية أيضا أنها تتمنى أن تهجر البيت وأن تعيش خارجه . . تتمنى أن

تعيش فى عالم يفيض بالحنان والتفاهم .

أما حقيقة القول فى قضية نادية - أو بلفظ أصح فى قضيته هو - فقد صاغها بعبارة صريحة حين قال : (أعطيتها رسالة طويلة حدثتها فيها عن الثائر والثورة . الثائر يجب أن يكون ثورياً . يتحرك . لا أن يكون رجل شعارات يشكو من الضيم وغير قادر على تغيير ما حوله . أعتقد أنك ثائرة بلا ثورة ، فأنت غير قادرة على مواجهة الموقف تشكين لكنك لا تقدرين على التحرك خارج دائرة ترسمها لك ظروفك) .

وهناك ما يشير إلى أن التجربة تمضى - ظاهرياً - إلى التوفيق والنجاح . فالإستجابة تحدث على نحو تدريجى . وها هى الفتاة ترتدى ألواناً أخرى غير الأسود الأثير ، وتتمرد على ما تعودت - أو عُوِّدت - عليه من ذهابها إلى المعهد بسيارة أبيها . وتختلج فى نفس الكاتب مشاعر مبهمة من النشوة لم يشعر بها إنسان فى الدنيا كما يقول ويحاول أن يحضر لصاحبته هدية تذكرة من إنسان (حاول أن يخرجك من سوداوية إلى عالم آخر يملؤه الإبتسام والنقاء) .

ولكن الأمور لا تجرى على هذا النحو من التبدل السريع . وهذا من مقتضى طبائع الأشياء . وما حدث مما جرى لها من تبدل ظاهرى لم يكن إلا نوعاً من محاولة إرضائه إذ تكنّ له شعوراً داخلياً . وهذا بالطبع أرضى غروره . أما تغير نفسها من الداخل فقد كان أمره مختلفا . لقد انخذلت الفتاة عنه شهوراً طويلة لم يرها خلالها ، بعد أن استوثقت نفسه من قرب مراده . ويبدو أن الإنتكاسة انتابتها وأنها رجعت إلى حياتها الأولى ، فسوف يراها بعد ذلك وقد عادت إلى أسودها . لكنه الآن - وقد انقطعت عنه هذه الشهور كلها - بدأ يشعر بالحنين إليها (خابرتها . . لم يرد على أحد . . بدأت الكوابيس تساورنى جاءتنى فى كابوس . رأيت وجهها رقيقاً ينظر إلىّ بشىء من الشغف ثم يقبل ذراعى وينهشه . رأيت نادية بعيدة . . تبتعد أكثر . لا أستطيع اللحاق بها)

وبالبتنا نستطيع أن نرد هذه الرؤيا المنامية الثقيلة ، أو هذا الكابوس المفزع إلى عناصره الفكرية التى اعتملت فى عقل الكاتب من قراءاته فى الآداب التى اطلع عليها ، فإن أرى فى ذلك أموراً عجيبة . ولا أدرى لماذا قفزت إلى ذهنى صورة « الهولة » فى الآداب الإغريقية . وهذه النظرة إلى البطل - الضحية فى شىء من الشغف تقرب إلى الذهن صورة هذا الكائن أو ما يشبهه وهو يُقْبِل على نهش ضحيته فى اشتهاء كالشغف . . ولكن الصورة تحمل على أى حال معنى مزدوجا ؛ فإن التقبيل هو المعنى الذى يقع فى الطرف المقابل للنهش . كذلك للشغف معنى مزدوج : قد يكون شغف المحبة وقد يكون شغف الإقتناص . ولكن الكاتب - بصفة عامة - يتردد بين أن يدين الفتاة وكأنه يريد أن يقول إنها عضت الذراع التى امتدت إليها ، وبين أن يتعاطف معها ، فتقبيل اليد يعنى شكر النعمة من غير خفاء . وصحيح أن الفتاة توقفت عن لقائه ، ولكنها كانت تسأل عنه مما كان يشعره بالإرتياح . ولذلك دأب على البحث عنها حتى أعيته الحيل : (فى الأيام التالية كنت أجد نفسى فى ثلاثة أماكن : العمل . المعهد . أمام منزلها) .

ولقد ظهرت « عديلة » فى هذه الظروف لتكون هى المحك لنبل مشاعره أو لإسفافها . عديلة هى المختبر الحقيقى لصدق شعوره تجاه القضايا التى يتصدى لها . صعدت إليه المرأة فى ظروف كان يشعر فيها بالمرارة الشديدة ، فلم يجد فى نفسه رغبة إلى جسدها ، بل كان يلتصق بها سعيا للبحث عما يعضده ويؤكد ذاته ، كان يسعى إلى ملاذ روحى ، ليس غير . لذلك صعدت إليه مرة أخرى فى صباح يوم تالٍ ، وكذلك فلم يزد على أن التصق بها . . ثم ألحت عليه ودقت بابه مرة أخرى فلم يكن منه غير البكاء . (حينما صعدت عديلة يوما وجدت باب الشقة مفتوحاً . قلت وأنا ألتصق بها :

ـ لا جديد

حاولت فى تلك الليلة أن أرقد فوق المرأة لأنسى الكوابيس التى حاقت بى . . مشاعرى اليوم تختلف عن المشاعر التى تركها سفر نجوى . صعدت عديلة مرة أخرى فى الصباح كل ما يهمنى هو أن ألتصق بها . فجأة شعرت بالغثيان . هل هناك توافق بين مشاعرى نحو نادية وما أفعله مع هذه المرأة ؟ فى ليلة طرقت الباب فلم أفتح . ليلتها بكيت لأول مرة منذ أن دخلت أمى المستشفى . طالت رحلة البحث عن نادية)

ولذلك حين اتضح له تهافت حجتها - حجة نادية - فى الابتعاد عنه ، جاءت العودة إلى جسد عديلة إعلاناً بالتنكر للتى تنكرت لعهده (كانت حجتها أنها تخشى العودة إلى المعهد الذى كانا يدرسان اللغة الفرنسية به ، لأنها لو عادت فسوف تأتلف بالمكان ، وهى لا تريد ذلك) .

ولكن وساوس الداء الذى خالط قلبه من حب نادية لم تبرح نفسه أبداً . عاد للبحث عنها ، فساقته قدماه إلى الكلية التى تدرس بها ، إلى أن كان يوم فوجئت هدى به واقفا أمامها (أصابتها الدهشة جرت من أمامى بطريقة أثارت انتباه بعض من حولها . . استجمعت شجاعة لم أعهدها فيها . . ارتسم الغضب على الملامح البريئة التى عرفتها ؛ قالت دون أن تترك لى فرصة لألتقط أنفاسى :

ـ ماذا تريد منى ؟ ما الذى أتى بك هنا ؟ ماذا يبتنا كى تلاحقنى هكذا ؟ ألا تتركنى لحالى . هل أنا موصومة لهذه الدرجة ليطاردنى الجميع بشرورهم فى كل مكان ؟ كفانى الآخرون ! لا داعى للاحتكاك بى .

فى تلك الليلة قررت أن أترك المدينة التى لم أنل منها شيئاً . . أن أترك كل هذا الغبار الذى يملأ نفوس الجميع لأعود إلى مدينتى . . لا يهم أن أكون أديباً عظيماً . فالعظماء فى هذه المدينة أسماء كبيرة فوق بالونات)

القاهرة : د. السيد ابراهيم محمد

المأوى والمنفى

محمد محمود عبد الرازق

تنفرد « الغرفة » بالبطولة فى معظم قصص « الغربة » التى تضمها مجموعة : « السقوط والعطش » للكاتب محمود العزب وهى غرفة مهجورة تنقطع عنها المياه معظم أيام الأسبوع . وتقع فى قلب الصحراء بجوار ساحة مدرسة . فى الأصل كانت أحد فصول هذه المدرسة . ثم خصصت مسكنا مؤقتا للمدرسين عندما تعذر إيجاد مأوى لهم . وظل المسكن مؤقتا برغم استمرار الإقامة فيه . يسكنها خمسة مدرسين فى قصة : « سحب الجدار الخامس » وسبعة فى قصة : « الرمال » دون سابق معرفة . وقد سقط حقهم فى التذمر بعد أن بات المدرس سلعة يحكمها قانون العرض والطلب فى سوق العمالة الدولى . ومن يجرؤ على التذمر ؟!.. « من أيسر الأمور هنا أن تكون مطرودا لسبب تافه ، وبدون سبب على الإطلاق »

ونشاهد هذه المجموعة فى قصة : « سحب الجدار الخامس » والصمت مسامرهم الوحيد . يفرغ الحديث فى شؤنهم ، فيتقاسمونه فى استسلام . يلجأ كل منهم إلى الإنشغال بشىء ما . ولا يخرج هذا الشىء عن قراءة الخطابات وكتابتها ، أو فتح درج المنضدة وتأمل صورة فى برواز صغير ومخاطبتها ، أو إزاحة قطع الطباشير المتناثرة على المنضدة وإغماض العينين والذهاب بعيداً والهمس بأسماء غير مسموعة ثم البكاء ، أو إطالة التحديق فى الفضاء . وفى كل لحظة تصدر أصوات تعبث بصلابة الصمت . صوت أقدام خارج الغرفة .. دقات الساعة فى المعصم .. حفيف الهواء وهو يعابث حواف النافذة . كما يتكسر الصمت حينما ينزلق شعاع الشمس على الوسادة ، ويكتسب صوتا خفيا مع كل تنهيدة . ورغم هذا الصمت ثمة صخب فى رأس كل منهم ، يلجىء الشخص المحورى إلى البحث عن خطاء يلف به رأسه .

والشخص المحورى المتوحد فى هذه القصص يرمز إليهم جميعا . قد يكون أحدهم أكثر احتمالا من غيره . وقد تتأرجح الأزمة بين نقطة البداية وإحدى مراحل الاستمرار .. لكن نخر السوس ينذر بملاقاتهم جميعا نفس مصيره . كان قد كف عن العناد منذ زمن بعيد . كما أدمن - فى الغربة - تعاطى الأقراص المهدئة : « كان العناد أحد أسلحته فى المقاومة .. لكن .. من يعاند فى خريف العمر ؟ » ..

وفى هذه الحجرة نافذة ، ينسبها الشخص المحورى فى قصة : « حصار » إلى نفسه ، وتفتتح بها قصة : « سحب الجدار الخامس » : « زجاج النافذة يعكس شعاعا متسللا من حافة سحابة » . وهذا الشعاع !؟ هو الأمل الوحيد .

نستطيع أن نربط بين هذا الشعاع ، وبين « تلك الروح التى أحبها أكثر من الحياة » فى قصة : « محاكمة » . ونخالها أمه التى يريد أن يعود إلى رحمها من جديد : « يعاوده صوت بالغ الإشفاق معطر من عالم نقى وضّاء ، من روح تلك التى أحبها أكثر من الحياة ، وفقدها فبهتت الحياة ، فى عالم غادر دفعه إلى أن يهرب من غربة إلى غربة .. ومن بلد إلى آخر .. صورتها أقبلت - اختفت - كشعاع الضوء العابر .. دخل للحجرة .. الإنفرادية .. الرطبة .. المغبرة .. أضاءها فى لمحة عابرة .. ثم انطمس الحاضر والمستقبل ، وبقى له منهما الحزن الدفين .. والمعلن .. » .

○○○

وداخل هذا الحصار ، نراه يجسد الحيوان على انطلاقه وتمتعه بالحياة الفطرية . فى قصة : « سحب الجدار الخامس » تمرح قطة صغيرة فى ساحة المدرسة على مقربة من أمها : « تقفز القطة فى رضا ، لا تتوجس خيفة من أحوال الدنيا ، وما تضمره الأيام ، تدور فى عالمها المحدود ، لا تبتعد يوما عن أمها . تغمرها سكينة غير متوافرة عند سكان الغرفة ، ليس لها بطاقة مكتوب بها « مغتربون » لديها الساحة .. وأمها .. والفضاء المتسع بلا حدود ، حيث تسبح فيه طيور غير مهاجرة » .

ونراه يتعقب الطيور وهى تسبح فى الفضاء . ويتظر فى كل يوم عودة طائرين يشقان الصمت الموحش ، وهما يندفعان إلى عشهما فوق شجرة الساحة : « طائران بلا قيد وبلا غربة » . وعندما افتقدهما ذات يوم سأل زملاءه لماذا لم يعودا ، فاتجهت إليه نظرات واهنة كليلة . وعندما ظهر الطائران وهما يغردان « فى جَفْوَة ونعومة » عائدين إلى عشهما ، لاحظ أن أحدهما يبحث عن جناح الآخر ليلوذ به ، والآخر يتبعد كمن يتمنع ويتدلل . وإذا به يصب عصارة تجربته المرة فى رجاء . إذ يصيح فى الطائر الآخر بلهفة : « لا تتركه .. لا تتركه ! » . وعلى الوجوه .. ولأول

مرة ، تظهر الابتسامة .

ومع « المرآة » يرتد إلى الحيوانية .. إلى هذا العالم الذى كان يجسد أصحابه . ربما هو حنين داخلى إلى البنية الأولى للمجتمع الأرضى بعد أن تسحبت خارجة من الماء ، ومحاولته للفرار من العالم الذى خذله إلى العالم الذى أنجبه ، كمرحلة سابقة على الدخول فى رحم الأرض من جديد ، وصيغة أخرى للعودة إلى رحم الأم ، بالعودة إلى الرحم الأصل .

مع محمود العزب يتحول الإنسان إلى حيوان . إذ نراه فى قصتى : « الوجه .. والوجه الآخر » لا يرى فى المرآة وجهه ، وإنما وجها آخرا . وترجع صحبته للمرايا إلى قصة : « صوت النهر » . والمرايا فى هذه القصة ـ كما كانت البداية ـ هى النهر . وكانت « الإبنة » تحب النهر ، وتحب مصاحبة الصبايا إليه . تتقدمهن مختاله مزهوة ، وفى صفحة النهر تظل كل واحدة منهن ، تتملى حسنها ، ومصاحبة وجهها . وفى حضرة « الابن البكر » أثير عطف الأم على صبايا القرية ، فأصدر أمره بجمع المرايا من « البيت الكبير » ومن بيوت الأعيان ، ووزعها على الصبايا . وحازت كل واحدة منهن مرآة خاصة . وعمت الفرحة وجوه الصبايا ووجوه أمهاتهن لكن « الأبن الثانى » يمنع الحب ، فتهمل الصبايا النظر إلى مراياهن .

والمرايا فى الأصل هى المياه ، والمياه هى التى تحيى الأرض بعد موتها . وبالتالى فالمرايا الموزعة ترمز إلى الأرض . ولا يخفى بُعد هذه القصة السياسى . لما أن لها مفهوما أرحب فهى تصوير لما يحدث فى الأسرة الإنسانية على مدى العصور .. سواء أكانت هذه الأسرة هى النواة الأولى للمجتمع ، أم كانت المجتمع نفسه ، فى إطاره الوطنى ، أو العالمى . أما الإبنة ذات الوجه الصبوح فتنفرد عن أترابها بمرآة أخرى ، هى : عيون الشباب .. « وتبحر العيون فى العيون ، ويطول الإبحار إلى وقت متأخر . والنهر يُصغى بانتباه ، ويظل النهر يُصغى بانتباه » (ص ٨١) .

○ ○ ○

فى الغربة يتوق أيضا إلى إبحار العيون فى العيون . فالمرء ـ كما قال فى قصة : « محاكمة » ـ يشتاق للشكوى إلى إنسان يحبه . ولهذا نراه فى « حصار » يتعلق بالنافذة ، باحثا من خلالها عن بغيته : « نافذته على الأفق القريب .. والبعيد .. من خلالها يصافح أشعة الشمس ، ويخاطبها أحيانا ، ويستغل النسمات ويستنشقها متنهدا ، وربما يرى فى ضوئها شخصاً ما .. عابرا للفراغ الرملى ، فيخاطبه منادياً دون صوت كمن يقول له : « أنا هنا!! » . وهذه المخاطبة غير المسموعة تعبر بوضوح عن الانفصام الذى أنشب أظافره بينه وبين العالم الخارجى الغريب عنه . ومع أن التلاقى أمنية بعيدة المنال ، فإنه يشحذ حواسه لسماع أى صوت يأتى من الخارج . وصوت « بوق سيارة » ينبهه فى قصة : « محاكمة » إلى وجود العالم الخارجى ، فيهرع متلهفا إلى النافذة : « لم يجد أحدا !! .. الصمت راقد هناك فى الفراغ الرملى ، والباب الحديد للسور ساكن مستقر على صلابته ، يقاوم هزات الريح العابثة .. »

وتراوده أمنية أن يهرول .. يجرى طائرا مبتعدا حتى يلوذ بالمساكن البعيدة ، ويأنس بوجوه أهلها . لكنه يخشى أن تخذل قدماه ، ويعجز عن عبور الفراغ الرملى . فى : « حصار » يعزم على اجتياز الفراغ : فراغ الحجرة .. وطرقات المدرسة .. والمدرسة والساحة .. والرمل ، لتظهر منازل الحى .. والشوارع .. ووجوه الناس . وعندما يرى الناس سوف يقترب منهم .. فيندس وسطهم .. يمسك بيد أحدهم .. يصافحه . لا .. سوف يدعهم فى حالهم ، يثيرون الضجيج .. ويغرقون فى شئونهم اليومية .. فقط سوف يحتك بهم راضيا .. يلمسهم بيده . كازانتزاكى فى أخريات أيام حياته كان يريد أن يسعى فى الطرقات متسولا بعض الدقائق من عمر كل من يقابله ، حتى يستطيع أن ينجز مشروعاته الروائية . الشخص المحورى هنا يريد أن يتسول أيضا ، لكن ليس دقائق من العمر ، وإنما الود والألفة : « لن يصرح بحاجته إلى الوجوه .. سيطلب القليل من الود والألفة .. لمدة بقية اليوم » ربما انتابت الوجوه المواجس من غرابة طلبه .. فليصمت إذن .. تحتك بهم دون كلام . لكن حتى هذا الطلب عز تحقيقه . وظل المكان المأهول فى الحى القريب البعيد على حاله فى قصة : « محاكمة » ، كما ظل هو وحيدا فى مأواه ومنفاه : « كان الناس يسيرون ويعيشون ، ويتشغلون بشئونهم دون علم بوجود مخلوق واحد .. يجلس منفردا بتعب مع سكان حجرته ، ومرآته المغالطة ، يعيد البحث عن وجهه فى مرآة كانت صديقته ، ولم تخطره بانقطاع صداقتها الحميمة » .

وحتى عندما تحقق له الخروج من الحجرة فى قصة : « الرمال » ظل الحى على حاله ، وظل هو كما كان محاصرا .. ولكن بلا رمال هذه المرة . كانت الرمال تداهمه فى أحلامه ، وعندما تزحف حتى تصل إلى ركبتيه يصرخ مستنجداً . وها هى تتاوشه فى الفراغ المحيط بالمدرسة . كان قد جاء دوره فى الذهاب إلى السوق ، وشمس الظهيرة تلهب صفحة الرمال . خطر له أن يغير اتجاهه فاستقبلته « رمال هائجة على متن ريح شاردة » وعندما انتهى سور المدرسة وهمّ بالإنعطاف تجاه السوق فوجىء بجرف عميق ، وتل رملى عال كان عليه أن يتسلقه : « والمنازل القريبة غارقة فى هجعتها ، ولا أحد من مخلوقاتها يحدق من النوافذ فى غرباء الطريق » .

وفى : « محاكمة » لا يجد الوجه الآخر وحده فى المرآة ، وإنما وجهان آخران ، أولهما وجهه . إذ يلمح رأسه فى المرآة كبراد شاى مقلوب يستعر فى النار . وفى معصم الوجه الآخر تظهر ساعة صغيرة . هل هى مصدر تلك الدقات العالية ؟ .. « دقات متقافزة شبيهة بدقات الألم فى رأسه ، يصيح ليبدد صخب الدقات ، تجف الصيحة فى حلقه ، يقطب جبينه المقطب من قبل » يلتقط الفوطة ويمسح المرآة بعناية . شبح وجه . هل هو وجهه هو ؟ .. « يحملق أكثر .. يروعه ما فى العينين من فجوتين غائرتين .. ثم بقية .. الوجه الشاحب .. تذكره بوجه رآه فى جهة ما .. فى حلم ما .. فى يوم ما .. وكان يبكى بكاءً مكتوما ، وبخاصة حين يختفى القمر ، ويتركه فى الظلام ، تطارده اشباح

ليل غامض ، ونهار دامس .. وتجره هذه الأشباح من وجهه .. تحوّله إلى دمية .. تتلاعب بها . تجرها فى ظلام قاتم ، ثم تصفعها بجرأتها على نيل القمر .. والتعلق به . وتظهر بغتة صورة وجه حبيب .. وجه رقيق كالغيث العابر ، كالقمر الذى يطل بين سحب كثيفة الوجه القمرى .. » يخفق قلبه فيطوق المرآة ، ويبحث عن الوجه القمرى فيفاجأ باستطالة وجهه .. وجه الدمية .. فى المرآة جامدا ، خاليا من الحياة ..

وتتفاقم الأزمة الرهيبة المنهكة ، حتى يحس وكأن يدا تمتد إليه لتنزع عنه ملابسه ، فلا يتركها تسبقه ، وإنما يقدم دون وعى على نزعها قطعة قطعة حتى يصبح عاريا تماما .

صلاح عبد السيد فى مجموعته : « الجثة » و « غربة » يغرم بخلع شخوصه لملابسهم ، لكنهم كانوا يخلعونها بعد خروجهم عن أطوارهم ، أو نتيجة فقدان التوازن . أما الجديد هنا فهو أن ينتزع الشخص ملابسه ليحاول أن يسبق غيره فى تعريته .. إن هذا فى نظرنا يمثل التحدى الوحيد الذى يسبق غيره فى تعريته . إن هذا فى نظرنا يمثل التحدى الوحيد الذى تملكه الشخصية وسط بحيرة العداء التى تشعر بسقوطها فيها .

○ ○ ○

ونحسب أن قصة : « سحب الجدار الخامس » تتحدث عن مرحلة متأخرة من الأزمة وإن تقدمت بقية قصص الغربة إذ تسبقها - فى اعتقادنا - قصتا : « حصار » و « محاكمة » اللتان جمعهما المؤلف تحت عنوان رئيسى واحد : « الوجه .. والوجه الآخر » . فهاتان القصتان تتحدثان عن حصار الأشياء ثم محاكمتها للشخص المحورى فى غية رفاقه . أما فى الأولى فالجدران ذاتها هى التى أصبحت تحاصره وتزحف إليه ، وفى حضرة رفاقه ، وقد كانت فى الثانية ثابتة صماء : « يضطرب بشدة وهو يتذكر الجدران ، وخشى أن تكون متخالفة فيما بحدث أمام عينيه ، لكنه اطمأن قليلا حين وجدها ثابتة .. صماء .. على حالها القديم .. » ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يجلس فيها وحده . فقد فرح فى البداية بعطلة نصف السنة ، وظل وحده راضيا بضع ساعات بانفراده . وفى مرحلة أخرى يتذكر أنه كان يدور فى الحجرة أوقاتا طويلة ، يغنى أغنيات شائعة ، ويجد فى مذاقها مشاركة مؤقته ، ويخاطب من خلالها ذكريات بعيدة ، ثم يضيق بصوته وترنيماته . وفى مرحلة ثالثة راح يخاطب نفسه والشمس ساطعة : « فليكن النور صديقى وأليفى .. هذا هو شعارى .. فلم الحزن إذن ؟! » لكن الأفق يتلبد بالغيوم ، فيرحل عنه الضوء ، وتجابهه الجدران فيقوم على مخاطبتها . ثم تحاصره الأشياء وتصطفق النافذة فى وجهه . وثالث هذه المؤشرات أن المرآة التى رأيناها مكسورة فى « سحب الجدار .. » نراها تحتل مكانا بارزا فى الثانية والثالثة . وفى ظننا أنها كسرت فى الثالثة أثناء محاكمته . لكننا نعتبرها أولها من حيث زمن الكتابة إذ نراه يهتم فيها بتصوير رفاقه وتحديد أبعاد المكان ، وتلك أمور تفرغ لغيرها فى القصتين الأخريين .

وقد شغلته فيها أيضا المقارنة بين الغرفة والغربة . وانتهى إلى دخول المادى فى المعنوى ليصبحا كيانا واحدا متوحدا : « يمسك قلما ويكتب بلا هدف كلمة : غرفة .. يخطىء بين القلم ، يبدل حرفا ويكتب : غربة .. حسنا .. ما الفرق ؟!.. أتبديل حرف واحد يزيل الفرق أم يعيد للكلمة دقتها ؟ أهما مختلفان أم متقاربان ، أم متآخيان ؟ أيهما أسبق فى الظهور ؟... هل يصح التآخى بين الحرفين ؟! يتحسس جدران الغرفة كمن يبحث عن كنه الحرف المتغير .. » .

لقد حقق محمود العزب فى هذه الرباعية : « سحب الجدار الخامس » .. « حصار » .. « محاكمة » .. « الرمال » ما لم تمهل الأيام مويامان لتحقيقه . كان مويامان فى أواخر أيامه يرى المناضد والمقاعد والمصابيح وقد صارت حيوانات تسعى دخولا وخروجا من الغرفة ، وتنزل على الدرج ، وتسير فى الطرقات . وكانت بلايين الجراثيم تسرى فى دمه وكأنها فى استعراض عام ، فإذا ما وضع قدمه على الأرض ، فسرعان ما يقفز إلى أعلى . وبعد ساعات قليلة من ليلة رأس السنة ، شق حلقه بموس ووقف يحملق فى المرآة مبتسما . وعندها هرع خادمه إلى الغرفة صائحا . قال له فى هدوء .

ـ أرأيت ما فعلته بنفسى يافرانسوا .. لقد شققت حلقى .. إنها مسألة جنون .. جنون مطبق ..

القاهرة : محمد محمود عبد الرازق

ابراهيم حمادة

قصة

لحظة انتماء

الأوتوبيس مزدحم ، كأنه عيّنه ـ مرسلة للتحليل ـ من يوم الحشر . مع أنني سيدة ، وأعمل مدرّسة ، وأم أطفال ، وفي الأربعين من عمري فأنا مغروسة وسط الرجال يلصقنا العرق والأنفاس والشوق إلى البيت والغداء . لا أحد من الجالسين مهذّبا يجلسني مكانه . متفقون على التظاهر بالعمى ، وإطلاق أنظارهم وأفكارهم عبر الشبابيك التي انخلع نصف زجاجها فراح النصف الآخر يقعقع بأصوات مزعجة . القعقعات تزداد فوق المطبّات يتراقص الأوتوبيس ويعلو صوت النفير .

الزحام خانق . لكنه أفضل الكمسارى لا يراني والقروش العشرة تقبض عليها أصابع يدي . مرّ بجانبي ولم يطالبني بها ، ولم أتطوع بتقديمها لأخذ تذكرة . أنا متعبة وعائدة من المدرسة . تعطّلت دورس هذا اليوم بأمر الناظرة . فرح التلاميذ لطردهم . زاطوا كالقردة المرحة وهم ينزلقون في الشوارع والحارات كصراصير فاجأها نور الحمام كان علينا نحن المدرّسات والمدرسين أن نستمع إلى محاضرة فرضتها علينا الناظرة ، التي فرضها عليها مدير المنطقة التعليمية ، التي فرضها عليه وكيل الوزارة الأول ، التي فرضها عليه الوزير ، التي فرضها عليه رئيس الوزراء ، التي فرضها عليه مجلس الشعب ، التي فرضها عليه الضباب . الكمسارى ـ هذه المرّة ـ يحدّق في جمجمتي ، فيزيد تحديقي في الظهر الممتدّ أمامي . أخفي نفسي بتداخل رأسي في رقبتي وتداخل رقبتي في عظام صدري . قصري له فائدة خسارة كبيرة لو أحرجني وطالبني بالقروش التي تكفنها أصابعي .

كان عنوان المحاضرة التي ألقيت علينا « التوعية الانتمائية » كيف ننمّي لدى الصغار الشعور بالانتماء . الكلام متشابك الأيدي مع معانٍ ميتافزيقية وكلمات فزيقية ، تهوّم كالأخيلة في الأدمغة . النوافذ مفتوحة كل زملائي وزميلاتي كانوا مبلّمين هامدين . يتفرّجون والنوافذ مفتوحة يتسرّب منها أي شيء يتلاشى . كان الدكتور المحاضر أصلع ، وحوله ثلاثة مرافقين صلعا . ابتسمت لنفسي لاكتشافي هذه العلاقة . آه . أحد الركاب داس على قدمي ، وكان يودّ أن تبقى قدمه فوقها أبعدت قدمي برفق فالحذاء لا يحتمل كتكوتاً يقف عليه .

اشتريته بنصف راتبي . مشمّع سألتنا الناظرة ـ وهي تغتصب ابتسامة على غير العادة ـ عما إذا كانت هناك أسئلة توجّه إلى المحاضر ومعاونيه . صمت تام . المحاضر متحفزٌ للإجابة على أي سؤال . سكوت مطبق . النوافذ أخرجت كل شيء زميلتنا فريدة المتعالمة التي تجادل المفتّشين بجرأة ولا تقتنع بشيء خارج دماغها ـ بقيت خرساء سرحانة . محاضرة تنويم مغناطيسي .

الأوتوبيس يزداد ازدحاماً والقروش العشرة في يدي تتصبّب عرقاً مكتوما . تختنق . لا أحد يريد أن ينزل والكمسارى يمرّ بيننا في صعوبة شديدة أتجاهله فيتجاهلني انتقاما . أفادتني محاضرة الانتماء في أنها أعفتني من التدريس اليوم ، وأخرجتني قبل ميعاد الانصراف بساعة مررت على الجمعية الاستهلاكية . لم أجد فيها لا لحمة ، ولا فراخ ، ولا أرز ، ولا سمك ، ولا صابون ، ولا صلصلة ، تونه وعصائر وبلوبيف .

حسرق ، الفول المدمس أصبح معلّبا والطعمية فى الخطة الاقتصادية القادمة .

يارب الكمسارى ما يعدّى من هنا . محطة نزولى لا تزال بعيدة سوء حظ . تصريحات السيد وزير التموين التى نشرها عدة مرّات فى الصحف والتليفزيون تؤكد تكدّس الفراخ واللحمة والصابون والأرز فى الجمعيات . والمحاضر الأصلع يقول :

« إن التلاميذ يجب أن يشعروا منذ الصغر بالانتماء . وأن تغرسوا فى نفوسهم الغضّة روح الانتماء . إنه الحب . إنه التضحية إنه الإيثار . إنه القدوة إنه المثال إنه أنتم . معشر المربّين . .

يخرب بيتك راكب قليل الأدب . أليست لديك زوجة أو ـ على الأقل ـ أخت ، أو أمّ ؟؟ أعوذ بالله . . الزحزحة ممكنة الآن . يا ترى يا شكرى يا ابنى أبوك زوّغ من الشغل كى يأتى بك إلى البيت ؟؟ أم تراه هو الآخر محتاس فى محاضرة ؟؟ زوجى أصلع . . يصلح أن يحاضر فى الانتماء أو يوزّع تصريحات . « همّ يضحك ، وهمّ يبكى » .

نظرات الكمسارى تمسح الركاب من بعيد . إياك أن تأتى . يارجل تحاشانى أنت عندك أولاد مثلى ، ووزير التموين يخدعك مثلى ، ولا تحتاج إلى محاضرة مثلى ، ولا تتعامل مع الأطفال مثلى ، ولكن عندك مثلهم ، مثلى أنا أولى بالتحاشى . ستّار استر ، يا ترى عم حمدان البواب جاء بابنتى رجاء من الحضانة لتلعب مع بنته تحت السلم ؟؟ حسرة يسمّون البدروم العتيق « جنّة الأطفال » مشرفات كالغربان قابعات فى الرطوبة والعتمة . أحسن واحدة فيهن تحمل الشهادة الابتدائية مع ثلاثة أمراض على الأقل . يرضيك يا وزير الصحة أن يشرب الأطفال من جرادل صدئة وكيزان مخرومة ؟؟ المياه مقطوعة باستمرار . آه . مطبّ فظيع . رأسى اهتز بعنف . يحفرون الشوارع ولا يردمونها جيداً بالتراب . لا حاجة للزفت . كل حاجة فيها زفت ما عدا الشوارع ، والانتماء يا سيداتى الفضليات ويا سادة هو الشعور بالمواطنة بالغيرية . . » كيف يعمّمنا بسيدات وفينا آنسات !؟؟

الكمسارى كاد يتجمد عند باب الطلوع . أخذ البعض يغادر الأوتوبيس ، وبعض البعض ركاب جدد . القروش العشرة سليمة مصيبة لو يطبّ مفتش ؟؟ من الأحسن النزول قبل محطتى بمحطتين أو ثلاث المشى مفيد . كل شىء فيه زفت ما عدا الشوارع . مفيش ؟؟ ولا كأننا عملنا حاجة . مصيبة . إحراج . بعده تأكلنى العيون كصقور . تهزىء . تعليقات جارحة . أنا سيدة محترمة . هذه هى المرة الأخيرة . مفتش ؟؟ ممكن توسعوا لى ؟؟ لو سمحتم . . من فضلكم أنا نازلة المحطة القادمة . أف . لماذا يتبسم السائق ؟؟ أف . أشهد أن لا إله إلا الله . الشمس حامية ، لكنها تلمع ، ومستديرة ، مثل ما فى يدى . أحتمل المشى ميلاً ، ميلين ، القروش العشرة أشترى بها ربطة فجل . شكرى ابنى يحب مضغ الفجل مع الخبز الناشف . لكنه لا يمكن أن يفهم فى الانتماء .

القاهرة : إبراهيم حمادة

قصة

اليوم خمر

أخيراً اتضحت ضربات السقاطة القوية ، وكانت جزءاً من الرؤيا الأخذة بخناق « يسرى » . . إنها هنا ، فى هذه الدار وعلى بابها الكبير،وبرزت من ظلام العيون المغلقة ، الحوائط ، وعروق السقف وألواحه الممددة بالطول ، والدولاب الصاج ، والشماعة المدقوقة وراء الباب ، والحصير ، والكنبة الملقى عليها « حلقات » كثيرة ، ومرآة مشطوفة الجوانب ومشط وفرشاة ، وطقم الأسنان الغارق فى مياه الكوب ، وتوارت « سعدية » وكأنما ابتعلها الماء الذى كانت تسبح فيه عارية ، وسط لحم أجنة كثيرة ، مفقوءة العين ، تتخبط فى تيار الماء بأذرع صغيرة واهنة ، كانت تنحل من جسدها ، وتعوم من حولها مع باقى الأطراف المبتورة ، و « سعدية » بين بقع الدم الحمراء ، تحاول ألا تفلت يدها من قدم « يسرى » المتشبث بالبر ، والأجنة تتقافز حولها فى البقع الحمراء ، متوهجة فى نور لا يعلم مصدره ، تخبط وجهه ، وتعاون المرأة التى تجر بعناد .

ما هذا الذى أرى ؟» وهرب من ظلام الحجرة ، وفجأة جسد الشمس المفرود بطول الصالة « من ؟ من ؟ أبوه » ولم يهتم أنه يخرج بملابس داخلية ، وبدون طقم الأسنان ، وانفتح زجاج الشراعة عن وجه الفتى الأسمر الذى ينز عرقه تحت العينين القلقتين فى مواجهة خيوط الشمس القوية .

ـ الحاج « فرج » يقول لك تأخرت

ـ رح يلعن أبوك لأبو الحاج مش شغال النهاردة .

وانصفقت الضلفة ، ولم يبق من الوجه غير شبح فى الزجاج ، لا يريم ، وعاود الطرق على السقاطة .

ـ امشى يابن الكلب ! واختفى الشبح .

« ما هذا الذى أرى ؟ ما معناه ؟ »

الدار هامدة ، يطن ذبابها الكثير ، المنتشر على بقع الشمس ، يحوم بإلحاح كلما داس بقعة ، ثم يعود مرة أخرى ليفترش الضوء .

« هل يجزع القلب من وحشة الدار ؟ لم يحدث هذا من قبل ، لماذا لا أطيق الدخول فى ظلمة الحجرة ؟ لماذا لا أطيق صوت السكون فى الدار ، وكنت أعود من ضجيج المدن متلهفاً لهدوئها ؟ »

وغسل وجهه على عجل ، ولاك لقمة من فطيرة متبقية من أمس ، بعد أن ألقم فمه الطقم ، ودخل فى جلبابه متجهاً إلى الخارج .

الحاج « على » يمد بوزه بين صفحات الجريدة ، متشاغلاً بها « وأنا لن أصبح عليه أبداً » و « شحته » و « أبو عليوه » على باب (الفراكة) بين نسوة منتظرات أن تدور الطاحونة فى أوانها .

ـ صباح الخير ياأولاد .

ـ صباح الفل ياأسطى .

ـ ناموسيتك كحل .

ونظر يده ل « حسين » الذى أطل من شباك الطاحونة .

وقف على آخر سور الحوش ، يتلفت فى الشاعر مرة جهة اليمين ، ومرة جهة اليسار ، وقدمه تثاقلت على الأرض ، لا تريد أن تتلحلح . إلى أين يذهب ؟ لا طاقة لدخول الدار ، لقد طالت زيارة « زبيدة » إلى الحاجة. فهل يذهب ليعود بها ، هل أخطأ فى تطليق « سعدية » ؟ كان سعيداً البارحة كمن أزاح الغمة عن عينيه .

« لماذا كل هذه المرارة فى الحلق ؟ كان الطريق معها مسدوداً ، وأنا كبرت . . كبرت . من العدل أن يكون لى ولد يبهج شيخوختى المقبلة ، و « سعدية » جدباء . . جدباء . »

ـ ياأسطى « يسرى » . . ياأسطى .

« سيد الخياط . . ماذا يريد هو الآخر ؟ لا وقت لثرثرته التى لا تنتهى ، سيملأ دماغى بكلامه الفارغ »

ـ واقف ليه كدا ؟ تعال اشرب معى كرسى دخان .

« لا بأس . . كرسى الدخان جاء فى أوانه »

وقعد على « الكرونة » المفككة الأوصال ، و« سيد » قام إلى المنقد الصغير المركون تحت « البنك » وقطع من ورق الجريدة على الفحم المدفون فى الرماد ، وأشعل النار ليحيى خموده .

ـ إيه مالك ؟

ـ ولا حاجة .

وظل مشغولاً بمتابعة النسوة العائدات من السوق والسلاق يرجعن بظهورهن إلى الوراء مع نزولهن انحدارة الشارع ، وسحب من الورقة الموضوعة تحت رأس الماكينة لقمة بسكويت ، لم يقدر على بلعها إلا بجرعة ماء من القلة المعلقة فى مسمار الباب .

ـ ما لكش مزاج فى اصطباحه ؟

وترك سيد يد الجوزة .

ـ عن إذنك لحظة .

وغادر الدكان إلى زحمة شارع الزراعية . النسوة بملابسهن السوداء غاديات رائحات يرفعن السلال ، وينحنين فوق أكوام الطماطم والباذنجان والبطاطس . وبائعة الكرشة مدت ذراعها على آخرها لتقطع مصراناً طويلاً ، كومته على كفة الميزان ، وراحت تكور ورقة على هيئة قرطاس « ربنا يقرفكم » .

« من هذا ؟؟ معقول ! بعد كل هذه السنين ، هو . . هو بقفاه السمين ، وبشرته الحمراء التى أعرفها ، ونظارته السميكة ، وما الذى رماه إلى هذا البلد بعد السنين الطويلة ؟ »

ـ « عدلى » . . « عدلى » .

« هاهو يلتفت إلىّ ، هو . . هذا الأعمش الذى تنغلق عيناه فى الشمس ، فلا يقدر على النظر . . هو من كنا نسميه عدو الشمس »

وسحبه إلى ظل السوق .

ـ من . . « يسرى » ؟

وأحضان وضربات على الأكتاف وقبلات فرقعت على رؤوس الشارين والبائعين .

ـ إيه الصدف السعيدة دى ؟ تعال . . تعال .

ـ تعال أنت اشرب الشاى عندى .

ـ بس تعال .

وازاح « عدلى » الورقة عن رأس زجاجة مسدودة بفلين أحمر .

ـ إية دا ؟ خمر ؟

ـ تعال بس . . أخى اشتراها من المطار وأعطاها لى لما عرف أنى جئت خصيصاً لزيارته . وسارا إلى نهاية الشارع بين زحام السوق ، يجهدان فى تفادى أجساد النسوة ، ويكتمان أنفيهما ليمنعا روائح العرق ، وينزلقان بعيداً لتمر من بينهما عربة « كاروا » ويجرها حمار هزيل لم يفق من نومه بعد ، ويشيران إلى رجال العزب النازلين إلى البلد بطواق مبرومة ، يرفعون سلالاً قديمة على الأذرع الغامرة .

ـ فاكر أيام المولد لما كنا ننشن منهم الطواقى .

ـ جمعت مرة فى دارى أكثر من عشرة طواقى .

وعبرا قنطرة النهر القديمة ، وسارا بموازاة « النادى » الذى تملأ الشمس الساخنة ساحته الفارغة ، وهبطا ارتفاع الجسر ، أمام كشك المرور ، ليسيرا بين صفى العبل المرتفع ، واختارا مكاناً معزولاً بين ماء النهر الرائق وسور المصلى الواطىء ، تنسدل عليهما أغصان صفصافة ، تلامس أطرافها سطح الماء ، وتصنع دوائر رقيقة عند الحافة ، ورفع « عدلى » الورق عن الزجاجة ، وشد الفلينة بأسنانه ثم صب منها فى الغطاء .

ـ اشرب .

وشم « يسرى » رائحة الخمر القوية .

« أين أيامك يامصر ؟ هل تعود مرة أخرى »

ـ كنت يا « عدلى » أعود بالتاكسى آخر الليل ، وأمر على بار « الحرية » أشرب الكأس والكأسين وأشترى زجاجة ، تكفى لليلتى ، وليلتين بعدها ، أنا يا « عدلى » منذ أن عدت إلى البلد لم تمس شفتاى طعم الخمر أبداً ، هنا أتوه فى الحشيش لأنه الكيف الوحيد المتاح .

ـ الخمرة نعمة أم نقمة ؟

ـ خلقها الله لحكمة عنده .

وانتعش جوف « يسرى » للجرعة ، وأحس بأن أمعاءه

انتبهت لها ، وبدأت تتمطى داخله لتقوم من ركود طال أمده .
ـ أنا أحس يا « عدلى » بأن معدتى كان مغشياً عليها ، وهذه الجرعة كأنها ماء الورد الذى نثر عليها ، فاستفاقت .
ـ اشرب .
ـ فاكر يا « عدلى » أيام مدرسة « الاتحاد الوطنى » ؟
ـ وكيف أنسى . . الناظر « عبد السيد » !
ـ هذا الرجل كان يبث الرعب فى قلوبنا الصغيرة،أذكر أنى عدت يوماً من المدرسة ، تغديت غداءً ثقيلاً ، وقضيت قيلولة طويلة ، ولما استيقظت رأيت الشمس مختفية وراء الدور ، ولم يتبق من أثرها غير ضوء خفيف ، وظل باهت ، وهواء رطب ، فظننت أنه الصباح ، وأنى تأخرت عن موعدى ، وقلت فى نفسى إن حضرة الناظر لن ينجينى من عقاب الفلقة ، فأسرعت إلى القميص والشورت ، ورفعت الشنطة على كتفى ، وجريت وأمى تصيح ورائى ، ياولد يا « يسرى » ولم أجبها ، كنت مرعوباً ، ووصلت إلى المدرسة ، فوجدت بوابتها مغلقة ، ونوافذ الفصول فى الدور الثانى مسدودة ، ولا حس ولا نأمة هناك ، وأدركت أن الوقت آخر النهار ، وعدت مكسوفاً ، أجرجر ساقى .
ـ وأنا أذكر أن أمى أرسلتنى يوماً بقفة الخبز إلى طاحونتكم ، وأنا انحرف من الشارع الضيق وراء الطاحونة ، وجدتنى فجأة فى مواجهة حضرة الناظر ، وليس فى الشارع إلا أنا وهو ، واحترت كيف أقدم له التحية ، وبداى متشعلقتان فى أذنى القفة ، رفعت اليمنى فاهتزت القفة ، رفعت الشمال فارتجت ، رفعت الاثنتين فى هوجة لأقدم تحية حازمة تليق بحضرة الناظر ، فتشخلعت « القفة » ، وسقطت على الأرض . وتناثر منها الحب ، فبكيت ، وحضرة الناظر اقترب منى ، يربت على كتفى قائلاً ياجحش ، لا تحنِ أحداً بيدك ما دمت ترفع شيئاً على رأسك . يكفى أن تقول السلام عليكم .
ـ كانت أيام رائعة يا « عدلى » !
ـ اشرب .
ـ كانت الآمال وردية ، لا نكف عن الأحلام ، لم أكن أتوقع أبداً أن أكون على حالى اليوم ، مجرد سائق ، يرهق أعصابه ، على عربات الناس ، ولا يقدر أن يمتلك عربة خاصة به .
ـ كل حى يحصل نصيبه . . اشرب .
ـ ألا تعلم يا « عدلى » أنى طلقت امرأتى بالأمس .
ـ أعوذ بالله .
ـ عندك كم عيال يا « عدلى » ؟
ـ أربعة .
ـ أما أنا فلا شىء . . كل أولادى يموتون بمجرد خروجهم من الرحم .
ـ ربنا يعوضك خيرا . . استأذنك لأن « الجماعة » عندنا مجهزين غدوة . ولين العيلة بمناسبة عودة أخى . . كما تعلم نحن قليلاً ما نلتقى هذه الأيام .

٢ ـ

وعلى سور الكوبرى الكبير ، جعل « يسرى » رأسه بين يديه يتأمل ثعبان النهر الفضى ، يتلوى وسط مداخن وابورات الطوب ، مغادراً البلد بانحناءة قاسية ليختفى فى البعيد ، وليترك النخل والشجر ''''ف كتلة عالية تحجز الأفق الذى ينفث دخانه الحامى .
« هكذا يا « عدلى » تحيى الشوق ثم تتركنى » ؟ . . اشتاق لسانى للخمر ولا خمر فى البلد » وتردد أكثر من مرة فى الهبوط إلى جسر النهر من الضفة الأخرى .

« يلعن أبو الدنيا ! »

وتفادى التراب الذى هاج حول قدميه ، وسار على رافد الترعة الصغيرة التى تخرج من باطن النهر ، وعبر الأرض الواسعة المحجوزة للمولد ، ورأى قبة « الحاجة آمنة » يضىء بياضها اخضرار الشجر النائم حولها ملقياً ظلاً يرد الروح ، واستقبل « الخصّ » المقام تحت التوتة الكبيرة التى تفرد أغصانها الكثيرة فى دائرة واسعة فوق مدار الساقية .
ورأى هناك الحوذية ، ينتشرون على القش ، يراعون الخيول القلقة التى تنفض الذباب عن جلدها وهى واقفة بين العريش تمضغ التبن من كيس معلق فى بوزها
ـ سلام عليكم .
ـ سلام ورحمة الله وبركاته .

وتوقفت الأفواه عن مضغ لحم السمك المشوى ، المفرود فى المناديل المحلاوى ، وحملقت العيون الراشحة باندهاش ، وثبتت الأيادى بأكواز البلاستيك ، فلا هى ترفع إلى الأشداق ، ولا هى تنزل إلى الأرض ، واختار كومة قش بالقرب من باب « الخص » وصفق أحدهم : هات هنا واحد « دبل » للأسطى . وخرج « الديدامونى » بظهره المحنى ، وبذراعيه المشمرتين عن فانلة قطنية مخروقة فى أكثر من مكان ، نقل قدميه ببطء جهة « يسرى » وهو يحاذر ألا تندلق البوظة الخامرة من حواف الكوز ، تحرك نعله الممزوع ، ليزيل الحصى ، ونظف بقعة دائرية صغيرة أمام « يسرى » ثبت عليها الكوز ، وقام يتأوه ، من عظام ظهره التى طقطقت بصوت مرتفع ، وعاد ممسكاً جنبه إلى « الخص » ثم التفت : أجيبلك سمك ؟
ـ لا . . عاوز حاجة خضرا .

ورفع الكوز إلى شفتيه ، شفط من الرغاوى السابحة على الحافة . « الفرق كبير بين لذعة البوظة ولذعة الويسكى ، الطبقية فى الخمر أيضا ! صدقت يا ابن الخالة ، كله طبقات ، كان الويسكى فى قديم الزمان وقفاً على الناس « الهاى » الآن الناس من أمثالنا عرفوا طريقه ، منذ عرفوا طريق المطارات والأسواق الحرة وعادت الخمور الجيدة مرة ثانية إلى البلد ، بعد خمارة الخواجة « طناش » لم تر البلد الخمر فى زجاجات ، وراجت بوظة « الديدامونى »

أهؤلاء من يقصدهم « ياسر » حين يتحدث عن البؤساء والكادحين ؟ أين هم من كلامه الصعب ؟ كيف تقدر عقولهم على فك ألغازه ؟ ياه . . ولا مليون سنة ، أنا نفسى أفهمه بالعافية . ورقك ياياسر فى بر ، وأصحاب المصلحة الحقيقية — كما تقول فى البر الآخر . ثم هل أنا خير من هؤلاء ؟ لماذا اضطربوا لما رأونى ، أنا مثلهم « عربجى » لكن « عربجى » تكنولوجيا . . هيء . . هيء . . هيء . . حصانى حديد . وحصانهم من لحم ودم ، أنا مثلهم أعمل بالأجر عند الناس . »

« هنا أنا أقعد وحيداً ، يخشون الاقتراب منى ، على ظن أنى أفضلهم وفيم أفضلهم ؟ الله وحده يعلم ، ألأنى ابن فلان الفلانى ؟ أم شكل يوحى بأنى لا أنتمى إليهم ؟ لماذا لا يأتى واحد منهم ويجالسنى ؟ وأنا إذا قمت وانضممت إلى حلقتهم سيقول الماشى فى الطريق ، رأينا الأسطى « يسرى » من عائلة كذا ، يفترش الأرض مع العربجية .

كلامك بعيد جداً يابن خالتى . . بعيد . . ولن يتحقق أبداً . »

— وحّد ووه .

— هات يا « ديدامونى » كوزا آخر .

« تقصد ياياسر » أن تجعل من هؤلاء ناساً حقيقيين . هذا يتطلب منهم أن يرتدوا الملابس النظيفة ، ويرفعوا عن رؤوسهم المناديل المتسخة ليمشطوا شعورهم . ويدهنوها بال « كريم » ثم يعملوا على قدر طاقتهم ويأخذوا بقدر حاجاتهم ! تعال ياعم لأكلمك عن هذه الدنيا الجميلة ، عن الجنة وكيف ستكون الدنيا بدون عربجية ؟ ربنا خلق الحمار ليجر العربة وخلقنى لأسوقه بعقل . قل كلاماً آخر .

ولكن ياعم هذا فى الإمكان المساواة ، إذا تجمعت قوتك على قوة الآخر ، وجمعكم الهدف الواحد ، تسقطون الاستغلال ، وتقيمون هذه الدنيا الجديدة ، دنيا العدل ، نسقط من ؟ قبل أن يفكر أحدنا فى هذا سيأكل ضرباً على وجهه لا يأكله حرامى « بُلَغ » فى جامع ، قل كلاماً آخر .

هل رأيت يا ياسر أن أحلامك بعيدة . .

هذا الرجل خير منى ، على الأقل هو يمتلك هذه العربة ، وهذا الحصان ، وله زوجة وعيال يؤنسون وحدته ، أما أنا لا شىء ، لا شىء البتة

وهذا ما يجعلنى أسلم لك رأسى لتعبثها بكلامك ، إنك تغازل حرمان وكلامك مخدر آخر،يؤخذ مع جرعة الحشيش ، أسبح معك ، ومع ورقاتك ، طوال الليل ، ما إن يأتى الصبح ، وأخرج لسيارتى ، وأدخل بين الناس ، أحمل أشياءهم ، وأوصل بعضهم ، هذا فى زيارة ، وهذا فى طريقه للعمل ، وهذا ذاهب لينهى صفقة ، وآخر فى طريقه إلى بور سعيد » ليهرب البضائع ويتجول بها فى الشوارع . ليغير قشرة الناس القذرة ، وتسيح زبدة كلامك فى صهد الزحام ، وأشعر بك بعيداً ، وكنت بالليل بين ضلوعى . »

— هات يا « ديدامونى » كوزا آخر .

« وهل يستطيع كلامك تزويجى من بنت الحلال ، الجميلة ، التى تصون شرفها وتنجب لى ولداً ، وولداً ، وولدا ؟ هل يستطيع كلامك أن يملكنى سيارة ؟ ويمنعنى من ذلة العمل مع رجال كان أبى يستخدمهم فى أرضه ، هل يستطيع كلامك أن يبنى لى بيتاً بالحجر الأحمر ، يصمد للأيام ، بدلاً من هذا المتداعى ؟ »

— هات يا « ديدامونى » . . هات .

— ٣ —

لما سقط ظل الجدار الخلفى لحوش العمدة، وأقبلت نسمة العصارى تلهو فوق ترابه الناعم ، فتحت « زبيدة أم محمد » باب الحجرة العارية من البلاط . ونثرت الماء على التراب ، ووضعت صينية القلل فوق صندوق الخشب لتبردها النسمة اللاهية ، وافترشت الحصير بالقرب من عشة الفرن ، وضعت كوبين من الشاى ، غمست فيهما أوراق النعناع الريانة ، وامتد ياسر بطوله على الحصير إلى جوارها ، يرشف الشاى ، ويحادثها عن سفره فى الصباح الباكر ، ليلحق بعمله ، وسألته عن لقائه بـ « سامية » وكلمها عن العريس الذى جاء لخطبتها ، فقالت له من الخسارة أن تضيع منه هذه البنت التى تحبه . كما لم يحبه إنسان قط ، ووصفت له لهفتها حين مرت عليها لتخبرها بالموعد الليلى ، وشكا لها قصر ذات اليد ، وأنه لا يملك القرار فى ذلك الآن ، ثم إنه لا يستطيع حسم هذا الموضوع قبل الاطمئنان على مصير أخته ، وأنه يستطيع أن يقرر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ارتباطه بالبنت بعد أن يرى « زبيدة » فى بيت العدل . وقالت له « زبيدة » : إن عليه أن يهتم بنفسه ، ويدعها لمصيرها الغامض ، وقامت لتفتح الباب الذى ترددت طرقاته البعيدة من الباب الكبير ، ونادت عليه من الداخل قائلة إن شخصاً لا تعرفه يسأل عنه .

وجرع « ياسر » ثمالة الشاى ، وعبر الصالة الكبيرة ، ثم الصالة الصغيرة ، ورأى المعلم « زهير » الذى يسهر معه على مقهى « حمام » فى ضوء الشارع بعمامته المزهرة ، وقفطانه اللامع تحت الجلباب الأبيض ، شد « ياسر » على يده : تفضل والرجل خلع يده ، ومال عليه بوجهه الجهم : الحق ياأستاذ قريبك لم عيال البلد ، وعامل مظاهرة من أول شارع البحر لغاية السويقة ، وأنا أمسكته بالعافية وحبسته فى دكانى ، وقلت إنك الوحيد الذى يقدر عليه .

وارتدى « ياسر » هدومه بسرعة ، وخرج مع الرجل متجهاً إلى السوق وهناك التقى بصديق له يقف تحت مظلة السوق المقامة على الأعمدة الأسمنتية ، رحب به « ياسر » وأخذه من يده ، وهمس فى أذنه : الحق لمّدا بيقول كلامك كله . . أنا حاولت منعه ، وضربنى بكوعه فى جنبى ، قلت أروح لك . . . . ولم يستمع « ياسر » إليه ، اتخذ طريقه وسط أوراق الخضار المختلطة بطين الأرض وبين زحام العيال الواقفين على أبواب الدكاكين المغلقة ، يصفقون ويهللون جهة باب الدكان الموارب الذى يحرسه رجلان من حمالى السوق .

وانفتح الباب على « يسرى » القابع فى ظلمة الدكان ، بين روائح خضاره المعبأ فى أقفاص كثيرة تنتشر فى أركانه .

وهتف « يسرى » بعلو الصوت : « ياسر » . . « ياسر » وبدأ يتدفق فى الكلام : كنت نائماً فى دارك ، وأنا عملت الثورة وحدى .

ـ تعال . . تعال .

ـ قم يابن الحلال امشى مع ابن خالتك .

ـ تحركت من هناك إلى المركز وحدفته بالطوب ، لم يخرج كلب منهم . . الكل اختفى وراء حيطانه ، قلت لهم اخرجوا لى فخافوا لأنى كنت فى حماية الجماهير .

ـ تعال بس نروح .

ـ لن أعود إلى الدار فى يوم مجيد كهذا . . هل تدرى كيف بدأ الأمر ؟ بدأت الشرارة فى بوظة « الديدامونى » ، حاولت أن أنقل الوعى للعربجية الذين كانوا هناك ، ولكنهم الأندال أبدوا الخوف والحذر ، أيدوّنى فى البداية ، ثم تراجعوا قائلين : كلامك مضبوط ، ولكن من يضمن لنا الحماية ؟ فانطلقت وحدى إلى معلف المعلم « بسيونى » هناك وجدت العمال يكدحون فى رفع السباخ على الحمير ، قلت لهم إن هذا الرجل يستغلكم ، وينهب رزق عيالكم ليبنى العمارات العالية فثوروا نظروا إليه . وقالوا لى ياعم نحن نخافه . وحاول الرجل الاقتراب منى ، ليستقطبنى ومد لى يده ليسلم على متخاذلاً : تعال يابن الناس الطيبين .

فضربتها وقلت له فى وجهه : أنت بورجوازى عفن !

وكانت الجماهير قد التمت ، وخرجت لى من دورها ، واختفى الرجل ، قلت يا « يسرى » خذ حذرك ، ها هو يختفى بالداخل ليتصل بشرطة المركز فيقبضوا عليك ، وقلت علىّ أن افسد خططه ، هاهى الجماهير حولى ، فلنتطلق إلى هناك لنفاجئهم وحصل رفعوش على الأكتاف ، وسرت بهم ألقى الشعارات والهتافات ، ومرة « يسقط » ومرة « يعيش » وهم ورائى يرددون بحماس « يسقط » و « يعيش » حتى التففنا حول أسوار المركز ، وقلت لهم احدفوا الطوب داخل السور ، فحدفنا ، حتى سقط المركز بمن فيه ، وقلت لهم علينا أن نحتفل الآن بثورتنا ، فإلى البلد ، ليعرف كل الناس بأن زمن العدل قد جاء ، فتحرروا ، لن تخسروا غير قيودكم ، فأخذنا طريق الزراعية بطوله ، وهاهم الآن بين يديك ، فافعل بهم كما تريد ، خذهم الآن إلى الحكم .

ـ بس تعال . . بلاش فضايح !

ـ فضايح !! . . لا . . لا تأكل حقى . . أنا متفق معك من قبل ، لا تأكل حقى أنا لا أريد شيئاً ، السمن البلدى فى قدورى ، والحطب على سطح دارى ، وعندى بدل الجلباب ثلاثة ، فقط أريد عربة أشغلها أجرة ، ألف بها بين البلاد ، وزوجة جميلة بيضاء تخلف لى الذرية الطيبة .

ـ تعال بس . . ونتفاهم فى البيت .

ـ ماشى . . لكن لا تأكل حقى .

وتخلصا من العيال المتهافتين عليهما ، وزجرهم المعلم « زهير »

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ! ربنا يهدى . وتابط ذراعه متجهين إلى الدار من الشوارع الجانبية البعيدة عن عيون الناس ، وسار « يسرى » بخطوات عسكرية حازمة ، و « ياسر » يحاول ألا يفلت يده من ذراعه الذى يتحرك إلى أعلى وإلى أسفل بانتظام . واختار شارعاً ضيقاً يتصل بشارع الطاحونة ، فشد « يسرى » ذراعه بشدة صارخاً : لا أمر على الحاج « قرد » . . أبداً . . هذا بورجوازى آخر يأكل مال اليتامى . . خذنى إلى المقهى .

ـ حاضر . . بس اهدأ . . وبلاش زعيق .

وأخيراً وصلا إلى الدار خفية ، وأدخله « ياسر » الحجرة الأخيرة ، وعاونه فى تغيير ملابسه ، ومدده على السرير : أنا

لا أريد النوم .. لازم أشارك فى المهرجانات .. لن تسهر وحدك ، سأكون إلى جانبك .

ـ نام شوية .. سأعمل لك قهوة مضبوطة ، بعدين نروح معاً .

ـ لن تنسى نصيبى .. آ .. أنا قريبك .. أنا لا أريد شيئاً لنفسى ، أنا أريد للناس كل الناس ، فقط أريد سيارة أعمل بها بين المدن ، وسأنقل الفقراء أسبوعاً كاملاً هدية للثورة .

ـ ماشى .. ماشى .

وخرج « ياسر » إلى المطبخ ، وضع الماء فى الكنكة الصغيرة ، ووضع عليه قليلاً من السكر ، وملعقة من البن ، وقلب الماء فوق نار هادئة ، ولما اقترب الوش من الحافة ، صبه فى كوب صغير ،وحين عاد إلى الحجرة ، وجد « يسرى » تحت الغطاء ، يردد غطيطاً عالياً ، والنفخة التى تخرج من جانب فمه تملأ فراغ الحجرة المظلمة ، فركن الكوب على « الكوميدينو » وجلس فوق الكنبة إلى جواره ، يتأمل وجهه المرهق الذى يسيل منه عرق غزير .

القاهرة : يوسف أبو رية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صالح عبد الله الأشقر

قصة

حالات بائع المـــاء

مدخل :

تقفين هناك . . بيني وبينك هذا الماء ، والشارع طويل لا ينتهي . . والمارة أكثرهم لا يغريهم صوتي . . والشمس تهطل على رأسي الصغير العاري . . وأنا راشد بائع الماء الفقير . . كلما صبت الشمس خيوطها تقول أمي : الناس يشربون كثيراً حين تحتدم الظهيرة . .

تحمل العجوز إناء الماء وأنا خلفها أسير ويبدي « طاسة » معدنية صغيرة . . وحين نصل إلى المكان المعهود في « الصفاة » تضع إناء الماء ، وتأخذ الطاسة من يدي وتغطسها فيه ، وتحرك الماء وتشرب رشفة واحدة وتقول : الماء مازال بارداً ، وكانت تفعل ذلك كثيراً . تعود أمي وقد تبللت عباءتها والتصقت ملابسها على جسدها مثل كل مرة .

حزنك فارع هذا المساء . . وصوتي ينغمر بضجيج الشوارع والأقدام الزاحفة نحو قلب المدينة . وحين انحسر النهار عددت قطع النقود المستديرة استدارة الخبز . . وركضت إليك لا ألوي على شيء ، الباب كان موصداً . . طرقته بيد واحدة ، بكلتا اليدين وبصوتي المتعب ، قلت : لابد نائمة . . أتعبها إناء الماء والزحف من بيت إلى بيت تغسل ملابس الجيران المتسخة . . طرقت الباب بكلتا اليدين وصوتي وبحجارة حجم كفي الصغير ، قلت : لابد تشعل النار . . تعجن الخبز ، وطرقت كثيراً وقلت : لابد دخلت أحد البيوت الكبيرة في الطرف الآخر وقالت:لا أعود قبل أن أتم العمل .

للتراب الرطب عند عتبة الباب رائحة لا تتبدل . . تبعث في الجو هدوءا حيياً وشهياً يذكرني بالعيد حين ترش أمي الماء حول باب بيتنا ليهدأ الغبار.تمددت والإناء الفارغ في داخله الطاسة بقربي وقلت : العيد تأخر كثيرا هذه السنة . وفي لحظة خاطفة . . وجدتك تحت نخلة حزينة تتعطر برائحة الطين . . تتهيأ لليلة العيد . . وحولك الماء والحلوى . . قلت لك دون أن أدري : إلى متى أنت وأنا لا نلتقي ! وقلت أنت : نبحث عن سقف صغير يأوينا . . لتكبر أنت وتصير رجلاً يحمل عني الماء والتعب . . قلت أنا : أحب السماء شاسعة مضيئة . . نجوب تحتها مثل كل الناس . . وقلت لي : كيف تفتحت هذه الأبواب . . المساحات/المسافات ؟ وقلت وكأنك تهمسين : ومن دلك على مخبئ ؟

أقول لك : تناديني مزامير حزنك حين كنت أجشو أمام عينيك المزروعتين في كل مكان . . أقتفي حزنك . . يتطاول في داخلي طريق بهي يمتد إلى مخابئك الشائكة . . يفتح أبواباً موصدة . . يكسرها . . تتبرج للحياة والنور . . يصير لنا بيت كبير وخبز حار وملابس نظيفة وأصدقاء . . ويصير لحزنك قدرة شرسة على تغيير العادات وفعل ما لا يفعله الفرح . . تقولين يا أم راشد : ها أنا أحزن . . أملأ الدنيا حزناً ضارياً يرتسم على أرصفة أحلام الأطفال ، ومناقير العصافير الصغيرة . . يعتلي قامات الجبال العارية . . يتعانق وغيمة ناصعة للثلج كانت . . تصير داكنة سوداء وتهطل تغسل الأرض بالحزن وترتوي ، تلد أطفالاً يخرجون كالانفجارات الصغيرة

لا يرتدون غير الحزن . وملاعهم بلون ورائحة التراب الرطب . . أرى فيها أرى أطفالاً يحتشدون في الشوارع . . يهدمون المنازل المسورة لتصير واحدة . . يحرقون الملابس المتسخة ، ويغنون وينثرون الماء على وجه الطرقات . قال واحد من الأطفال : هذه المدينة مريضة لا تصلح للفئران .

قال آخر : أين كان أطفال هذه المدينة ؟

قال ثالث : لنغسل عار الأطفال الذين لم تسو لهم قامات للحزن .

قال رابع : لم أر على الجدران آثاراً عميقة للحزن البهي .

- ٢ -

يأتيني صوت على غفلة . . لا يشبه أصوات الأطفال،يتحرك إناء الماء الفارغ وتحدث الطاسة داخله صوتاً معدنياً مزعجاً

ها أنا . . الأشياء كما عهدتها . . الباب الموصد . . عتبة البيت الرطبة . . اناء الماء.ذكريات العيد البعيدة.وأمي ليست هنا . . وهذا الواقف بقربي يقول : تعال معي تنام عندنا الليلة . زحفت إلى الوراء مرتعباً . . صوته كان كثيراً . . له ضجيج شديد كأنه ليساقط بسرعة مذهلة ولا يتوقف.كدت أصرخ . . أو أسد أذني حتى لا أسمع تلاحق صوته المرعب . . مدّ يده نحوي فبدت كبيرة جداً ، ومخيفة جداً . . كجدار يتهاوى ببطء ثقيل على الأرض .

لابد أن أصرخ الآن .

وقفت على قدمي فأحنى الرجل الواقف رأسه طويلاً . . أسدل عينين ثاقبتين لهما لون الصحراء . . تتداوى بحبات الرمل منذ الولادة الأولى إذا كف المطر وتوارى وغاب بعيداً تنحدر من عينيه دمعة دافئة تختفي قبل أن تلامس وجه الأرض . رأيته بأم عيني يرفع رأسه رويداً . . يفتح عينيه بعناد بالغ للفضاء الدامس ويقول :

اشتدت شمس شهر الحجة واحتشدت على الطريق الرمادي الطويل . في وسط الطريق تمايلت العجوز بجسدها المتعب ثلاث مرات واستدارت إلى الخلف وسقطت . . في التراب عند الطريق الرمادي ولطخ عباءتها وثوبها البنفسجي الطويل . . كانت تئن والبسطاء يتزاحمون حولها .

قال أحدهم والذين حوله يهزون رؤوسهم التي تحت : هذه بلا شك نوبة صرع حادة ، واعترض آخر وقرر : هذه الحمى وشمس شهر الحجة إذ تنهال على رأسها صارت العجوز تنتفض ، وتهذي . . تتحدث عن أطفال يبيعون الماء والبكاء . يقفون تحت الشمس . . يسألون الخبز والأصدقاء . حملوها وتحت نخلة حانية تمددت العجوز .

صالح عبد الله الاشقر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصـــة

قصـص حـب حـــزينة

□ سوء تفاهم

اسمها «كريمة» اسمه « على »

تكتب الشعر ، يكتب القصة . تعارفا داخل مكتبة الجامعة . كانت تبحث عن كتاب يعالج موضوعاً ما فى التاريخ فذكر لها واحداً ، وبعد أن استعارته أخذت تقرأ . وأخذ هو أيضاً يقرأ ، ونشأ بينهما ما يشبه التحدى على من ينتهى أولاً . وبعد أن انتهى وقت القراءة داخل المكتبة خرجا معاً وتوجها إلى الكافتيريا . شربت عصير الليمون المثلج . شرب القهوة ، وتحدثا عن الشعر والمسرح والدين . أحس أنه أمام فتاة غير عادية ، كان كل شىء فيها رائعاً وجميلاً .

أحست أنها أمام فتى غير عادى . كان كل شىء فيه غريبا وشاذاً .

أحبته . . أحبها

قصائدها فى الحب جمعتها فى كراسة وكتبت فى أول صفحة إهداء تقول فيه « أهدى إليك أولى تجاربى فى قرض الشعر فأنت الوحيد الذى يتحمل أخطائى »

قدم لها عدة قصص منشورة فى إحدى المجلات وكتب إليها يقول : هذه قصص كتبتها من أجلك قبل أن أعرفك »

قالت له : كتاباتك ما هى إلا صدى لقراءة أدب اللا معقول ولكن بغير تفهم لطبيعة حياتنا ومشكلاتها ، وعندما أبحث عن أبطالك بيننا لا أجدهم .

قال لها : أستطيع أن أقول عن شعرك إنه مضىء . . مضىء فى عالم مظلم .

قالت له : كلمات قصصك تصلح لأن تكتب على مقبرة !

قال لها : يا فتاة تكتبين عن الحب وكأنك فى الرابعة عشرة .

قالت : اقرأ تولستوى وترجنيف .

قال : اقرئى جيته وكامى .

قالت : أنا لا أفهمك .

قال : أنا لا أفهمك .

□ موقف للوداع

كانا يقفان وجها لوجه فى مكتب البريد . هو مشغول بخطاب سيرسله إلى بلد أجنبى يفكر فى الهجرة إليه ، وهى مشغولة بمراقبة الناس من حولها . تعارفا داخل الجامعة ، كانا يعملان بالسياسة . كانت تدخل السجن ويكون هو خارجه ، وتخرج منه فيدخله ، وهكذا . . . كان يحبها ، ولكنها ـ ولسنوات ـ كانت تبحث عن سبب لرفضها حبّه ، التفت إليها بعد أن انتهى من لصق الخطاب وقال :

ـ سنتزوج ، وآخذك معى ، ونحيا حياة جديدة . .

كانت صامتة ، تبحث عن سبب لترفض ، ولكنها كانت عاجزة ، وأنقذها قروى يمسك بورقة بيضاء من إلحاحه عليها بالإجابة ، اقترب منه وقدم له الورقة وطابع الدمغة ، وقال بسذاجة بريئة :

ـ تسمح يا بيه تلصق لى الطابع ؟

تجهم وجهه ولكنه مع ذلك أمسك بالطابع وألصقه وهو يتأفف ، وانهالت عليه عبارات الاستحسان والشكر من فم القروى الذى اعتقد أن أحداً لا يمكنه لصق الطابع بهذه الدقة والمهارة مثل هذا الأفندى الذى يرتدى بدلة ، ولكنه لم يعن بالرد على شكره . وبعد أن مضى القروى خرجت الكلمات من فمها بطيئة ، حزينة :

ـ لا أعتقد أنك كنت تثور فى الماضى من أجل الناس .

ضحك بسخرية وقال : من أجل من إذن كان السجن وكان التشرد ؟

قالت : لا أعرف

وقفت صامتة تنظر إليه ، وخُيّل إليها أنه يكرهها من أعماقه ، ولما لم تجد ما تقوله سارت خارجة من مكتب البريد ، ولكنه وقف مكانه ولم يتحرك .

■ رودانيا .

كنا نستغربها بيننا فى الجامعة ، بملابسها الغالية جداً . وأصلها التركى ، ووجهها الرائع الجمال وصيفها الذى تقضيه فى إحدى بلاد أوروبا . وكانت هى أيضا تستغرب نفسها بيننا ولم نوفق أبداً فى التقرب إليها أو مصادقتها . وكانت محاولة كل منا للحديث إليها تواجه ببرود قاتل وحياد مؤلم من خلال إجابات مختصرة لا تحمل الرغبة فى المزيد وتحدث إليها أحدهم بسخافة .

فقالت له : يجب أن تفرق بين أن تكون طالبا وأن تكون لقيطا !

وفى يوم ، أردنا العبث بها ، فكتبت شعراً فى عينيها ، وجعلنا أحدهم يتصف بالجرأة يدفعه إليها ، وبعد أن قرأته ، نظرت إلىّ من بينهم جميعا . . فنظرت تجاهها وابتسمت ابتسامة حملتها بعض السخرية من طبقتها وحياتها .

بعد يومين استوقفتنى على سلم الكلية ، وقالت : شعرك مهذب ، ولكنك غير ذلك . ثم تركتنى ومضت . . ونجحت فى أن أجعلها تقرأ كتبا من مكتبتى ، وأن تخرج معى لأحدثها عن أحزانى .

قالت لى يوماً : أنا أتعاطف مع أحزانك ولكنى لا أحبها .

ثم سمحت لى أن أحدثها بحديث الحب ، وأن أصحبها إلى بيتها بوصفى زميل دراسة .

أحببتها . .

وقابلت حبى باستلطاف ومشاعر أخوة أملت أن يتحولا إلى حب . واعتقدت أنى سأنجح فى أن أجعلها تتخلى عن عالمها من أجلى . ولما نشرت لى قصص فى المجلات نقلت رغبتى فى خطبتها إلى أبيها .

رد قائلا : سأموت قبل أن تتزوج ابنتى من مثلك

بعد شهور ، تزوجت وسافرت إلى أمريكا .

من هناك ، كتبت تقول : كنت تجرنى إلى ضياع لا أحبه ، ولا أريده

أرسلت لها قصصاً لى وكتبت : أنت فتاة بسيطة وهذا كل ماهنالك .

كتبت تقول : قصصك سوداء وحزينة لماذا تكره نفسك ؟ الحياة جميلة ، جميلة

انقطعت رسائلها عنى ، وأنا الآن موظف صغير ، بائس . تخليت عن أحلام الأدب رغبة فى أن آكل عيشاً ثم أتفلسف . والآن أجلس فى انتظار فتاة تأتى لتنحت حجراً ـ تركته رودانيا مكان قلبى ـ على شكل قلب يستطيع الحب ويعاود الغناء .

القاهرة : طلعت فهمى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد فضل

قصة

زهـــرة .. الأســـوار العـــالية

البيوت قصيرة متلاصقة . . يظهر كل بيت فتحة على هيئة عين صغيرة ترمق الأسفلت فى فضول دائم ، وراء الأسفلت يكمن المبنى الأبيض الشامخ ، تلتف حوله أشجار كافور غليظة الجذوع ، غزيرة الرأس تنحنى لتغمس شعرها فى مياه الترعة ، تحت أحد هذه الأشجار وقف « علوى » فرأته الصغيرة منتصبا واقفا رائحا غاديا حول عربة « الخضار » ومن أمامه يتكىء الصغير « محمد » على جذع شجرة ، يعبث بعينيه ويديه فى بعض الكتب المتناثرة على حشائش الضفة حينما يشتد الضغط على الأب يضطر الصغير إلى ترك كتبه ويخف عارضا عليه المعونة فيتقبلها بعد احتجاج . تمتد الترعة وتتلوى لتفصل الأسفلت عن سور السجن العالى . بعد العودة من المدرسة تصطحبها الأم إلى العربة ، فى يد الأم شنطة الخضار ، بيدها هى « قصة جديدة » بينما تكون الأم مشغولة بالمساومة مع « علوى » تتبادل هى والصغير الأحاديث المحببة حول شارلوك هولمز وأرسين لوبين ، وحينما تعلق بها نظرة عابرة من عين الأب تعرج أحاديثها ــ كرها ــ إلى المقرر والامتحان والمدرسين .

يحين منها نظرة إلى السور العالى المدجج بالأسياخ الحديدية ، والأسلاك الشائكة خلف الترعة ، بالداخل يرتدى أبوها الزى الميرى المرصع بالأزرار النحاسية . . يضع « كاباً » على رأسه ، لا يكف عن التنقل من مكتبه المواجه لمكتب الضابط إلى الصالة . . إلى العنابر . . دائما وراء العساكر . العساكر ينادونه باحترام شديد : حضرة الصول . . الضابط يقول له بحب : ياعم . .

حينما انتقل الأب من سجن القناطر إلى طره أعطتهم الحكومة البيت الواقع على ناصية « مساكن السجن » كل البيوت الأخرى صغيرة ومتماثلة فى الحجم ، أما بيتهم فأكبر وتحيط به جنينة صغيرة . . جاءت أفواج المساجين فى نوبة عمل لترتيب البيت . . كانت تراهم يصعدون السلم الخشبى وينزلون بخفة القرود ، فى أيديهم المسطرين أو الجردل أو الفرشاة ويتبادلون النظرات والأحاديث الودية حينما ينظرون إليها يضحكون . . ضحكات وحشية تتفجر من ملامحهم القاسية ، يشيرون إليها فتقترب متوجسة ، لا تنسى أنه فى مكان ما ، ووقت ما قتل أحدهم شخصا قد يكون رجلا أو امرأة كبيرا أو صغيرا أو حتى صغيرا مثلها . تأنس لنظرات الحنان المتدحرجة من ملامحهم المشققة الجافة كما تتدحرج قطرات الماء من بين ثنيات الصخر . . يهجع خوفها حينما يربتون عليها ، يقبلون بنظراتهم ضفائرها الطويلة المعقودة فى الشرائط الملونة . يتوسلون اليها أن تشترى لهم السجائر من الدكان القريب . غالبا ما تحزن . . ولكنها تذهب بعد أن تضيف الأم تأييدها إلى إلحاحهم .

بعوده الضامر ووجهه المصوص اقترب منها ، انتظمت ملامحه الذاوية ابتسامة شاحبة اقترنت بقلق خفيف سرى فى أطراف جسده ، انبعث من عينيه بريق خافت وهو يدس يده فى السترة الزرقاء ، لمحت وردة حمراء تتألق من بين ثيابه . همس بانفعال وهو يقدمها لها :

- اسمك وردة ؟

ترددت . (يقول الأب إن عطوة هو المراسلة الخصوصى لمكتب الضابط ، لذلك تراهم دائما ثلاثة) .

- بل اسمى زهرة .

- وهذه أيضا زهرة ، ألا يوجد لديك علبة صغيرة ؟

بحرص حملها . . دفن العود والجذور والشتلة فى العلبة ، وسّدها إفريز النافذة عبثت نسمة عابرة برأسها فتمايلت أوراقها القرمزية ضاحكة . . هتفت فى فرح وحماس :

وردة رائعة ! من أين حصلت عليها ؟

- من بين الصخور البارزة لجدار السجن .

تألقت الدهشة فى عينيها .

- استيقظت ذات صباح فطالعنى وجهها الجميل يطل علينا من خلال القضبان الحديدية لنافذة العنبر ، أما الجذور فكانت نائمة بين طيات الجدران

أسرعت تحمل العلبة بين يديها ، تتأملها بلهفة ظاهرة . . حول وجهه إلى النافذة .

(نافذة صغيرة أيضا تعترضها نفس القضبان الحديدية . . أما الأخرى فأعلى من سور السجن وتطل على وجوه الأشقياء وظلام العنبر ، هنا تطل على الشارع الواسع ، ووجه الصغيرة البرىء)

- راعيها بإخلاص . . حتى لا تموت !

فى أيام الأجازة فجرا ، وعلى الصدى المتباعد لوقع خطوات الأب تهب مستيقظة تسرع إلى النافذة . . تروى زهرتها وتنتظر ، تصافحها طراوة النسيم ووجه الأسفلت خاليا لامعا إلا من طابور العساكر المنتظم على الصفين . . تتوقف السيارات . . يختفى المارة . . تعرف أن موعد طابور العمل قد حل . . لا يمضى وقت طويل حتى تراهم فى ثيابهم الزرقاء الكالحة وطواقيهم يزحفون من البوابة الكبيرة عبر الترعة إلى الأسفلت ، جيش من النمل الضخم . بسحنهم الجافة يقطعون الطريق . . بنظراتهم النهمة الزائغة ينقرون الأرض والسماء والنوافذ والأسطح . . بوعيهم المشرئب وفضولهم البظمىء وسمعهم المرهف يزدردون وجوه الأطفال والنساء وأصواتهم ، يلوون أعناقهم بعصبية ذات الشمال وذات اليمين كسرب من الطيور الضالة انفلت خلسة من القفص : الحديد يصل بين أيديهم ، والعساكر يسيرون من خلفهم وجوارهم . . يحصون خطواتهم القلقة ويقودونها إلى الطريق الوحيد الذى لا يوجد طريق غيره فى قلب المقطم

همس الأب أن السجن فى حالة طوارىء والعساكر سيكونون جميعا فى خدمة خارجية ، ثم ارتفع صوته قليلا :- يجب أن تمنعى « بتتك » من الخروج اليوم .

قاطعته الأم :- سيكون حفلا جميلا . . لماذا لا تصحبها معك ؟

احتد الأب :- ليس من الضروى ، فهذا الباشا مشهور بعلاقاته الوثيقة مع الخواجات ، سيشرف الحفل عدد كبير منهم .

رددت الأم وهى تسلم وجهها المتجهم للحائط :- فى كل مرة يذهبن ! أنت وحدك الذى تعترض .

الأستاذ الكبير يلمع تحت الشمس . . تتأود الأعلام الملونة مستسلمة لوشوشات ومداعبات النسيم العابث فوق السور العالى . . الأرض المفروشة بالرمال الصفراء تتخللها أحواض الزهور المستطيلة والمربعة ، تتطاير البالونات والأوراق الملونة منطلقة لتودع اسم الأمير والأميرة فى حضن السماء . ليالى كثيرة تنام على صوت أمها وهى تصف لها سحر الثياب المزركشة على أجسام أعضاء الفرق الموسيقية . . فتيات المدارس والملاجىء ذوات الحركات الرشيقة واللباس المهندم وهنّ ينطلقن فى باقات منظمة . . يقدمن عروض الرقص والغناء ، ينطلق صوت النفير فتندفع فرقة من الفرسان إلى قلب الملعب فى جسارة وخيلاء ، يستقبلها الجمهور بالصياح والورود ، تطوف على الجالسين رافعة أيديها بالتحية . . يمزق الهدوء صوت انطلاق الرصاص إيذانا ببدء السباق . أجفلت مرتعدة . . تتسلط عليها من خلال الوجه الأشقر والعينين الصفراوين نظرة حادة كنظرة النمر وإلى جواره جواد ضخم ينتصب مزهوا بقامته العالية وشعره الكستنائى اللامع ، يدس فمه وأنفه بين عشب الأرض . وقفت مترددة تهم بالرجوع . . عاجلها صوت الأب :

- زهرة سلمى على الكابتن !

بخطوات مترددة وأنظار مرتخية إلى الأرض تقدمت . . التصقت بنظراتها ساقان غليظان حمراوان يبرزان من الشورت الكاكى فى غلالة من الشعر الأشقر ليستقرا فى « بوت » مفلطح كالقارب . . . طبنجة سوداء كبيرة تتدلى من الحزام الأصفر . ضحك الكابتن ، طوح رأسه إلى الوراء مد اليها يدا مكتنزة تحتضن « باكو » شيكولاته ، صمتت ، انكمشت وتراجعت ، أنقذها صوت الأب من الخلف

- خذيها يا زهرة . تشجعت غالبت خوفها وتقدمت ، أطبق على يدها الصغيرة رفعها فى الهواء قذف بها إلى ظهر الجواد وقفز وراءها ، غزّ الجواد بعصاه ، أطلق ضحكة هيسترية انطلق

الجواد على أثرها يدك الأرض بسناكبه ، ثائرا نافرا سحابة من الغبار حول البقعة الخضراء التى يدور حولها ، صرخت مستيقظة على صوت أبيها وهو ينهى أمها عن الخروج فى ذلك اليوم ولكن بصوت أعلى من قبل .

صعدت إلى السطح . . انتفض خوفها ، تجسد لها صاحب الوجه الأشقر والبنطلون الشورت والساقين الغليظين يسير متبخترا إلى جوار السور تتبعه فرقة من الفرسان ، رأته يشير إلى شجرة الكافور الغليظة حيث كان يجلس « علوى » وابنه إلى عربة الخضار . . تحركت فئة من الفرسان فى الاتجاه الذى حدده « الكابتن » . . تحركت فئة فى الاتجاه المقابل أصبح الطريق محصورا بين جحافل الفرسان فانقطع المرور ، استدارت السيارات والمارة من الطريق الآخر ، ارتفع على قمة الشارع صوت الطبل والزمر وموسيقى القرب معلنا وصول فرقة المارش العسكرى . فى تلك اللحظة كانت الشمس تصعد متحسسة طريقها إلى أعالى المبانى لتنشر أشعتها الذهبية على المكان . انبعث صوت « البروجى » فانغرس الطريق الخالى بالعساكر من كل لون . ردد الأسفلت وقع حوافر جواد « الكابتن » وهو ينتقل به يمينا ويسارا ملقيا بتعليماته فى كل اتجاه . . ضج الأفق بصوت كلاكسات ضخمة ، فبرزت سيارات سوداء مهيبة تتصدرها الأعلام الصغيرة تبتلع الطريق وتتهادى بين صفين من الكونستبلات ، تناثر هتاف المتفرجين وتعليقاتهم من النوافذ والأسطح ، ازدادت حرارة الشمس وأصلت المنطقة العراء ، احتقن الوجه الأحمر المكتنز ، احمرت العينان ، التهبت الجفون ، أخرج منديله بعصبية مر به على وجهه ، لكز بطن الجواد ففزع رافعا قائميه الخلفيين صاهلا . . شدد يده على اللجام فازدادت حركة الجواد توترا . . رفع الكعب وجعل يمسح العرق من وجهه ورأسه ، ازداد تسلط الأشعة فنضجت جبهته عرقا غزيرا ، أرخى اللجام فأوسع الجواد خطواته ، راكضا عبر الطريق الأسفلتى محاذيا للنوافذ ، ازداد تناثر الأوامر من فم « الكابتن » المتوتر . . وازدادت حركة الفرسان وارتباكهم ، اندفع الكابتن يواصل ركضه . . يجتاز الكوبرى ، يلوك الكلمات والأوامر إلى كل من يواجهه ، يلوح بيده فى اتجاه السجن والفرسان وأشجار الكافور . . أوسعت الشمس خطواتها فتوسدت قلب السماء ، انسحب من أمامها كل آثار للظل حتى ظل الأوراق ، التهب رأس الكابتن . . عاد يمسح رأسه ووجهه أسرع إليه أحد الجنود بكوب من الماء المثلج . . فى تلك اللحظة ومن مكان ما طارت طوبة شقت الفضاء وهى تئز ، واستقرت فى صدر الجواد ، فانتفض ارتفع صهيله ، قفز عاليا ، ترنح الكابتن وهوى على الأرض ، تخلخلت الطوابير على الجانبين . تفرقت ، خف البعض إليه . . أشرع البعض سلاحه وهرول فى اتجاه الطوبة ، حمل الكابتن على محفة إلى السجن . . ابتلعته البوابة الكبيرة .

انشقت الأرض عن سيارة جيب ، قبل أن تقف قفز منها ضابط اغتصب انتباه الجميع ، هتف فى وجه المأمور بكلمة واحدة : « جون ؟ » أجابه المأمور بالتحية ، أشار إلى الداخل . هدر صوت العربات المصفحة التى تخترق الطريق هابطة من المعسكر بالمقطم ، تفجرت طلقات الإرهاب فى السماء ، انضم فريق الفرسان المصطف حول الطريق إلى العربات . شكلوا فريقا للبحث تحرك بقيادة أكبرهم رتبة ، بعد دقائق عادوا يحملون جسدا صغيرا مكبل اليدين والقدمين واندفعوا به إلى داخل السجن عبر البوابة التى فتحت على مصراعيها هتفت زهرة : محمد . ثم نظرت إلى أمها وصرخت : أبى ! واندفعت . . امتدت إليها يد الأم بحركة عفوية تحاول منعها ، طوت درجات السلم بخطواتها المضطربة ، تعرف طريق السجن جيدا ، عبرت الأسفلت والكوبرى ، لم يكن هناك أثر لعلوى ولا للعربة . كانت الخضروات مبعثرة أسفل الكوبرى ومختلطة بالماء والطين . يتضاعف انفعالها ، صدرها يعلو وينخفض هتف السجان الواقف على البوابة : زهرة ! اخترقت الحشد والجلبة والذهول فى طريقها إلى الردهة الخارجية ، قادتها الغريزة إلى غرفة جانبية يقف على بابها ثلة من ذوى البذل الميرى بينهم الأب ، بالداخل تمدد « جون » على السرير الأبيض . . انحنى عليه أحد الأطباء ، تجهم وجه الزائر المهم وهو يتبادل والمأمور الكلمات ، خرجت كلمات المأمور مضطربة متلعثمة ، احتبست الدهشة فى صدر الأب وهو يهمس باسم ابنته ، تجلت الدهشة فى أعين الجميع ، انهمك المأمور بمعاونة أحد الضباط فى الشرح بالعربى والإنجليزى ، دون أن يبدو على وجه الخواجة أى أثر للاقتناع ، همس عطوة فى أحد الأركان وأقدامه تصطك : (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) . صرخت زهرة : ليس لأبى شأن ! واندفعت إلى الأب تلتصق بجسده تتمسح ببنطلونه تتعلق بيده ، تحسس الطبيب كل جزء من جسم « جون » دس سماعته فى صدره نقر بأصبعه ظهره أرسل جون آهه ممطوطة واهنة ، بدا عليه الارتياح ، انتقل إلى وجه الزائر ، انتصب جذع الطبيب ، أخذ نفسا عميقا وتهيأ للكلام . . تعلقت الأنظار بفمه فى انتظار الكلمة التى قد تودى بحياة الصغيرة أو تنقذه . . لم تطق الصغيرة رددت : لقد ألقوا بضاعته فى الترعة . . ! شرخ صوتها النحيل جدار الصمت المشحون ، تفتقت ملامح القائد عن شبح ابتسامة ماكرة ، تحول بوجهه إلى

المأمور ، قطع الصمت المتوتر بصوته الأجش : بنت من ؟ وغمز بحاجبيه ويده إلى الصغيرة ، ازداد ضغط الأب على يدها ، أحاطها بذراعه وانكمش فى أحد الأركان ، واصل القائد تصويب نظرته الثاقبة المتنمرة على الوجه البرىء ، ربت على أكتافها بحنان مفتعل : وكيف عرفت ذلك يا صغيرتى .

سارع المأمور إلى نجدة الأب وقال بلهجة يظن أن الكابتن يفهمها : إنها طفلة صغيرة ! إنها بنت حضرة الصول . اقتحم الصمت من جديد حركة غير عادية لفرقة القناصة وهى تدق الأرض بخطواتها الصارمة المنذرة ، كانت تدفع أمامها « علوى » هذه المرة ويداه مكبلتان بالحديد ، وماسورة مدفع غليظة مصوبة نحو رأسه ، توقف انتباه الأب على ملامح القهر الممزوج بالتحدى فى عينيه ، صدره المفرود فى استهانة ، خطر له أن يغافل الجميع ويزوغ بالصغيرة صرخ القائد فى وجه علوى ، اختلطت اللهجات فى صراخه . ارتفع صراخ الصغير من الزنزانة فارتجفت لها الأبصار والآذان والقلوب ، لوح القائد شامتا منذرا إلى مصدر الصراخ ، إزدادت ملامح علوى تحجراً خانته أعصابه للحظة فصر على أسنانه ثم عاد إلى بروده من جديد . أشار القائد إلى الساعة الكبيرة المعلقة فى صالة السجن ثم إلى فريق الفرسان المتربص بالأركان فتحرك فى اتجاه البوابة ، تيقظت أحاسيس الأب على همسة من أحد الأركان المنزوية فى الزحام فتنبه إلى وجه عطوة المصوص يهمس بعينيه ويديه وملامحه إلى الفتاة والبوابة الخلفية .

تردد الأب فدفعه الزملاء ليعبر البوابة ، التقطت أذنه همس عطوة مشجعا :

- أفلت بالصغيرة .

استقبلها صوت طلقات نارية تتطاير فى السماء ممزوجة بقرع الطبول والدفوف .

تدفق الهواء الطلق إلى صدره فتراخت قبضة الضيق عن نفسه . جاشت مشاعره فجعل يدعك أصابع الصغيرة بكفه وهو يرمق تكاثف الألوان النارية فى السماء وتحولها إلى قوس قزح إيذانا ببداية الحفل .

تلفت الأب إلى الصغيرة : فى عينيها فرحة ظاهرة محلقة ، وعلى شفتيها سؤال حائر :

- لماذا كان يصرخ القائد فى وجه « علوى » ؟

أجاب فى إيجاز : كان يسأل عن مصدر الإصابة .
لم تشف الإجابة غليلها فازداد بريق التساؤل فى عينيها .

- كان يقول إن الإصابة إما أن تكون من الطوبة أو من ضربة الشمس ، إذا كانت من الطوبة فلابد أن يجلد الإبن أمام أبيه .

فسألته : فإذا لم تكن ؟

رفع الأب وجهه إلى أعلى . . كانت الشمس قد انزوت مختنقة فى غيوم المساء .

الإسكندرية : محمد فضل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابراهيم فهمى

قصـــة

بحـــر النيـــل

ملحوظة لصفيّة مكى :

... تسألينى يا صفيّة ، عمّا فى يدى ؟.. أقول لك ، لا هو الحب ، ولا الغرام ، وما تحت يدى ؟ .. أقول لك هـالمدينة ، ترابيزة ، أكتب عليها ، بالروح لبلادى ، ولا أحد يعشق مثلى ، فيحب مثلى ، ويكتب مثلى ، والغرام ، لبلادى ، بلادك ، والدنيا من بعدك ، من بعدها .. يا صفيّة ، هوان .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

.. لا البلاد .. بلاد .. ولا الدنيا دنيا ، ولا القمر .. قمر ، ولا الشمس بنت السما بلّت أجنحتها فى « بحر النيل » ، ودلته على مكاننا ، ومن ورائها الأوز ــ مواكب ــ غنّ لنا يا عثمان بشير ، غنّ ، والبلاد ، فى أفواه الناس أسامى ، غنّ لنا واضرب على الغاب ، فنرقص ، رقصة الشمس لمّا تشرق ولمّا تغيب ، وغابت عن بلاد الكنوز ، فغابت عن الدنيا ، أمانة تضرب لنا يا عثمان ، فنغنى حتى تغنى الدنيا معنا ، وحتى يسمعنا « بحر النيل » هناك من الوطن القديم ، فيرجع لنا ، ينادى الشمس بنت السموات العُلى ، كى تبل أجنحتها فيه ، وتدله على مكاننا الجديد ، ومن خلفها الأوز ــ مواكب ــ ساعتها لا يؤجل الكنوز الكبار ، مواعيد الزفاف إلى ساعة تنطفىء فيها نار البنات ، اضرب لنا يا عثمان ، فتغنى كما كنّا نغنى والدنيا معنا ، والبلاد .. بلاد ، فيعرف كل حبيب غناء حبيبته ، فيترك ما فى يده ، إن كان شراع مركب مسافر ، إن كان بيتا يبنيه على يده ، فتتلاقى جماعة على الجانبين ، تهرب من عيون الكبار بين المراكب ، تسألنا الأمهات عن السحر فى يدنا ، .. نقول الحب وغرام الأحبة ، وعن السحر فى قلوبنا ، لا نعرف سره ، واسألى يا أمى ، الحبيب الغالى ، والقلب سره فيه ، وما كان فى اليد فى اليد ، وما كان فى القلب فى القلب ، كنت يا عثمان ، تضرب لنا على الغاب ، « ونحّنا » خارجات بالزبديات على رؤوسنا تضرب لنا أغنية نرقص عليها ، ومعنا الشمس ، والحريم يرقصن بعد كل السنين ، كنت تضرب لنا يا عثمان فنرقص ، ولا أحد يمنعنا ، حتى تكسرت الزبديات ، وشربت الأرض من اللبن الرايب ، وخاب فينا أمل الرجال عند « بحر النيل » على المراكب ، قالوا : لا بنات ولا لبن ، فضربنا الآباء ، وضربتنا الأمهات ، يقول الكبار : « للرقص ساعة ،

وللحب ساعة ، لكننا لا نعرف إلاّ ساعة واحدة ، هى ساعة هوى ، والدنيا يا هُوىّ[1] ، هى ساعة واحدة ، ساعة الحبيب الغالى ، هى ساعة غرام .

.. هناك لمّا كانت الأرض .. أرْضاً والسماء .. سماء والشمس .. شمساً ، قالت نساء الكنوز : نهاجر يا عثمان ، قال ولد الكنوز : .. نهاجر يا بنات . و« بحر النيل » الساعة ، غاضب علينا ، يقول الكلام المنقوش على كفّ الملك العظيم ، إذا خالف الكنوز الوصايا ، وكذبوا ثم نسوا أن يرموا « لبحر النيل » الهدايا ، يطردهم من الأرض ، التى ولدوا عليها ، ولا تتحمل النساء بذهب الملوك ، قالت البنات : .. هى هانم حسين ، أخذت من ذهب الأميرات ، تحلّت وتزينت ، ثم قالت : .. يابنات كل الخير من عرق زوجى .. « عثمان بشير » .

.. تقول صفيه مكى .. أضع أذنى على الأرض ، أقول : دقة القلب ، دقّتان ، .. دقة لحبيب القلب ، بشورى ، ودقّة لك « يا بحر النيل » ، أقول ، وأنا صفيّة بنت الكنوز ؛ .. بالله عليك يا بحر ، النار فى القلب والجسد مواجع « يا بحر » نكبر « نحْنَا » البنات من دون بنات العالمين ، قبل العام بعام .. تعود يا بحر ، ويتزوجنى بشورى ، ولو لم ترجع ، يعايرنا الناس الكنوز ، بعد الزمان بزمان ، يقولون : أول المحبين ، أو العشاق ، أول المتزوجين فى غيابك . يا سيد الدنيا ، بشورى ولد عثمان ، وصفية بنت مكى .

.. تسأل صفيّة مكى ، عثمان بشير ، سيد الكنوز أجمعين ، عن « بحر النيل » لما قالت عنه للنساء والبنات .. راجع يا هوىْ ، والشمس بنت السماء ، قالت لصفيه مكى ، .. يا صفية ، سأنزل فيه ، أبل أجنحتى فى مائه ، وأدله على مكانكم ، وقالت لعثمان بشير وقالت لبنات الكنوز ، تقول صفيه مكى : « كذّاب يا عثمان بشير ، كذّاب ، الساعة تكذب علينا يا عثمان ، كما ها لبلاد الكذّابة ، و« بحر النيل » ، لا يرجع ولا تبل الشمس أجنحتها فيه ، وتشير له على مكاننا ، كانت البنات يتزين له ، يلبسن أجمل الملابس ، يحتفظن له بأحلى العطور ، يتدربن على رقصة الفيضان العظيم ، يقول عثمان بشير : « لا ياصفية ، الشمس ، هى أول القادمين ، ووراءها الأوز ــ مواكب ، وبحر النيل ، العريس ، تفتح له صفية ، مجرى ، فيأتى عند بيتها ، والصغار يأخذون الورق ، يصنعون له مراكب صغيرة ، يسمونها بأسماء البلاد القديمة ، والبُحاره ، شدوا السوارى على المراكب ، ساعتها ، تجرى الفلك بأمره ، على مياهه ، باسم الله مجريها ، ومرسيها ، فتقول صفية : .. ها لفرح كله ، ولا ترجع ، يا سلام ، يابحر النيل ، لك ساعة شوق ، تساوى الدنيا ، وما فيها .. !

.. تقول بنات الكنوز ، لمّا تأخر سيد الكون عن مواعيده ، .. « دمع العين لا ترجع به البلاد ، يا هُوْى » ، وعددن الأسباب ، قلن : .. غضب عليكن « بحر النيل » يا بنات لأنكن لا تحتملن العشق بالجوابات فاعطيتن أنفسكن لعثمان بشير فقام بالواجب ، خير من البحّارة الغرباء ، وترمى كل واحدة اللوم على أختها ، لمّا فتحت شامية عز الدين ، لعثمان فى آخر الليالى بيتها والعذر لك يا شامية ، لمّا فاتك الزوج المسافر بالسنين ، وحزن « بحر النيل » ، وإمّا هى هانم بشير ، لمّا دخلت المعبد فى نصف الليالى ، مع عديلة دهب ، وفاطمة دهب ، وتبادلن على التماثيل العارية بكامل أشيائها ، المزاج ، وخلعن السراويل ، وكل واحدة تعرف أن عثمان بشير بذاته ، يقف بين التماثيل ، فيتعاركن عليه ، بعدها يرسل عثمان للرجل المسافر ، يقول له : .. جماعتك فى خطر ، فيرجع لها ، يذوق لحمها بعد السنين الطويلة ، فتحبل ، وكأن الولد من أصلابه ، وإمّا هو عثمان بشير أغضبك « يابحر » ، وإما بنات الكنوز ، لكن « بحر النيل » لا ينسى أحبابه أبدا ، وبعد الهجر ، يعود الحبيب ، وإمّا هم المسافرون ، نسوا ، ولا أرسلوا لنا بالاسم فى الجوابات ، هداياهم ، محبة لبحر النيل ، قالت صفيّة ساعتها هناك ، .. أرمى نفسى فيه يا هوْى ، عنكم يا مسافرين ، لكن « بحر النيل » لا يجب إلا باسمه والساعة يسأل الصغار عثمان عن موعده لمّا يرجع ، وكيف ؟ .. احك لنا يا عثمان ، كان عثمان ، وحده يعرف فيضانه ، ومشرق الشمس ، ومغيب الفصول ، وعدد البنات ، وعدد الحريم وحكايات الجدود والأحبّة ، وأسماء الكنوز جميعهم ، من حلفا حتى مصر المدينة ، ويخطىء أحياناً ، حتى فى اسم عياله ، تقول له البنات ، الساعة ، أخبرنا « يا إنباب »[2] .. أخبرنا .. !

.. يعرف عثمان ، أن « بحر النيل » لا يرجع الساعة ، ولا يرجع أبداً ، وعثمان الساعة لا هو عثمان ، إلاّ إذا رجع « بحر النيل » عرش من فضة يضرب فى نصفه بعصاه ، فينشق له نصفين ، بينهما طريق ، فتعبر النساء والبنات حتى الضفة المقابلة ، فى وقت الفرح ، ووقت الحزن ، ولو شاء يمشى عليه ، دون أن تبتل له قدم ، ولا طرف جلباب ، لكنه الساعة

(١) يا هُوىْ : تقال للنداء

(٢) « إنباب » : يا أبى

غاضب عليك يا عثمان ، ولا يرجع أبداً ، وأنت يا عثمان من دون « بحر النيل » لا تساوى الرخيص ولا الغالى .

الساعة يبكى عثمان ، سيد الكنوز ، وللعشق أحكام ، لمّا تحلف هانم عليه ، تقول : ولا جد أبوك ، ولا جمعك ، ولا أنت تلمس شعرة واحدة من رأسى ، إلاّ إذا رجع ، « بحر النيل » ورأيته بنفسى ، ساعتها ، كما وعدتك ، أعطيك نفسى ، والبس لك ، وأتعطر ، وأنزل « بحر النيل » كأوزة مهاجرة ، أرقص لك ، وأغنى ، واستحم فيه ، من كل شهر ، من العربى ، حتى أكمل تسعة شهور بالتمام ، فيعطيك ولداً ، الله عليه من ولد ، أمانة يا عثمان ، لا تلمس شعرة واحدة من رأسى ، إلاّ إذا رأيته ، « بحر النيل » ، ساعتها ، لا أعاند ، الشوق القاسى على قلبى العاشق لك يا سيد الدنيا ، وأتدلل عليك ، كدلال بنات الكنوز ، اللاتى لا يمسسهن من بين أفخاذهن بشر ، وإلاّ ، فى غيابك ، يا بحر النيل ، ألد من بطنى ، ولداً كما تمساح ، خرج كوحش من البحر ، فى ساعة فيضان عظيم .

.. تقول صفيّة مكى : .. تقول لى يا بشورى يا حبيبة القلب يا صفيّة ، أمانة « بحر النيل » ، راجع ، وأمى هانم تقول « لانباب » عثمان ، لمّا يقول لها : « يا تاج الشطين ، تقول له : العشق فى غيبة سيد الدنيا حرام فيكاد يجن ، تقول أمى هانم : « الله يا مزاج الرجال ، تعشقكم طول العمر ، وعشقنا عندكم ساعة زمن ، تنامون بعدها جوارنا كما الكلاب ، فاضحك أقول لك : بكم تعشقنى يا ولد هانم ؟ .. بالدنيا يا صفية ، بكم تعشقنى يا ولد عثمان ؟ .. « بانباب عثمان ذاته يا صفية ، بكم تعشقنى يا ولد هانم ؟ .. بأمى هانم تاج الشطين يا صفيّة ، بكم تعشقنى يا بشورى ؟ .. ببحر النيل ، سيد الدنيا ، فأقول لك : .. وهبتك النفس ، والروح من بعدك هوان يا بشّورى .

.. كلّما سألتك واحدة من البنات عن « بحر النيل » يا عثمان ، تضحك ، وتخاف أن يموت قلبك الحى من الضحك ، فتجده مات منذ زمن ، ثم تبكى على طيبة قلوب البنات والدنيا لا هى على حالها ، الغريب يبكى ، وأنت لا تبكى يا عثمان ، بكى البحارة الغرباء ، لمّا رأوا بنات الكنوز ، قبل الرحيل ، يأخذن العهد منك يا عثمان ، أن يعود « بحر النيل » ، وراءهن كما الطير الأليف ، شرطاً ، حتى يرحلن إلى بلاد غير البلاد ، والبنات حتى الساعة أمانة فى عينيك ولو سألتك واحدة من البنات ، تقول : الحمد لله ، لا يفهم كلام الحريم ، غيرك يا عثمان ، الساعة لا ترى عيناك ، إلاّ بلاداً غير البلاد ، وشمساً غير الشمس ، ؛ كأنك صغير السن يا عثمان ، تخاف أن تخرج إلى الشوارع فى هالبلاد فتوه ، والبيوت مرصوصة أمامك بلا روح تتمنى البنات ، فيقلن : هنا تتجمع مواكب الأوز ، لمّا يرجع ، « بحر النيل » بعد غياب ، وقريب من البيوت قطار يصفر ، يرجع من مصر المدينة ، فلا تطرب له البنات ، كما كن يطربن لمّا تصفر الباخرة « البوستة » ، لمّا كانت تصفر ، كأن صفافيرها زغاريد ، فتهتز خصورهن ويرقصن ، حول البيوت عربات ، تصرخ كما الحزانى على الطريق

.. يقوم عثمان ، ، سف الليالى ، ويغنى كى تسمعه « هانم » فتقوم من النوم ، وتفتح عينيها وتهز صدرها على السرير « العنجريب » تتقلب بجسدها كما تتقلب على الجمر ، تفك شعرها تلاعبه بالعين والحاجب ، فلا يحتمل ولد الكنوز ، عثمان ، يخلع سرواله ، وينصب العرس ، فتترك له العنجريب وتنام على الأرض ، فيقول لها . الله .. الله عليكن يا بنات الكنوز ، أمانة أحبك ، يا هانم أغلى من « بحر النيل » بشوية وأول مرة تبدلى قمصانك يا هانم بعيداً عن عينى ، فلا تعطيه نفسها إلاّ إذا رجع .. « بحر النيل » ، سيد الدنيا بالسلامة ، فيقول عثمان : .. « لا شىء أبداً يغلب قلب العاشق ، « يا هوُىَ » ، لا شىء يغلبنى يا هانم ..!

.. كان عثمان بشير ، يكذب فى العادة ، على هانم ، يقول لها : .. أعبر الغرب بالمراكب ، يا هانم ، للسلام على العائدين ، من مصر المدينة ، لكن فى الحق تكون قد أدارت رأسه واحدة من بنات الغرب ، ولمّا يرجع لها ، يقول .. لا يعرف قيمة البلح الإبريمى ، « يا هانم » إلاّ من ذاق البلح « الصيص » ثم يستحم فى بحر النيل ، ويخاف أمانة تخاف يا عثمان ، من هانم قيراط ، ومن « بحر النيل » ، أربعة وعشرين ، تقول : « بحر النيل » حولنا ، نغسل فيه الذنب ، والكذب ، الساعة لا تحتك ولا فى يدك ، البحر يا عثمان ، لكن غرام هانم وغرامك فى الخلف السعيد غرامان ، عندك ولد يا عثمان ، « بشورى » والخلفة على الدنيا ولدان ، وها لبلاد ، لا يرقص لها القلب ، وتخاف لو يرقص قلبك فيسكت ، وتخاف ، لو سكت قلبك ، قبل أن تنام معك هانم ليلة فى الغرام ، على سرير « عنجريب » واحد .

كان عثمان يكذب على هانم ، كذبة بيضاء كقلبه ، يقول لها : عبرت « بحر النيل » حتى بلاد النوبة « الفانجا » ، رأيت بنات الفانجا « البيض ، من نسل « المجراب » والقائمقاب ، والكشاف يا سلام ، يا هانم ، البنت ؛ كأنها لبن الحليب العيون « زرق » كماء « بحر النيل » ، وخضر كزرع الربيع ،

ورأتنى واحدة ؛ أغنى على مركبى ، فغنت لى ، قالت : تزوجنى يا زينة شباب الكنوز ، عندنا ثلاثة فدادين ، وخمسون نخلة ، وأبى حسّه على الدنيا ، واسمى قمر وأمى اسمها « داريا » وأبى اسمه عبد الفضيل ، فتقطع عليه هانم الكلام ، تعرف بنت الكنوز أن عثمان الساعة يكذب عليها كذبة بيضاء ، وبنات الفانجا « الكشاف » ، لا يتزوجن الكنوز أبداً ، فتقول له : . . تزوج يا عثمان ، تزوج ، وافعل ما بدالك ، الساعة ، والأرض لا هى أرض ، ولا السماء . . سماء ، ولا الشمس بنت السموات العُلى ، دلّت « بحر النيل » سيد الكونين ، على مكاننا ، وصارت له دليلاً وأنا عثمان لا تغلبنى حيلة أبداً ، كانت أيام القلوب البيضاء والكذب الأبيض ، كانت تتدلل علىّ هانم ليلة ، فتفتح لى بنات الكنوز البيوت ليالٍ ، الساعة ، تخاف الحريم ، أن يلدن من بطونهن عيالاً كما التماسيح ، وأرسل إلى الأزواج فى مصر المدينة ، فلا يكون لكلامى عندهم معنى ، و« بحر النيل » غائب عنّا الساعة ، « لابحر النيل » قدام عينى ، فأخاف منه ، لمّا أكذب ، والكذب لأجل عيون هانم حلال .

. . قال عثمان . . يا هوْىْ ، يا بنات يا حريم ، « بحر النيل » الغالى ، سيد الدنيا ، والشمس بنت السماء ، صارت له دليلاً خلع عثمان عمامته ، ورفرف بها ، كأعلام المراكب ، وشاور بيده على سراب الصحارى ، لبست صفيّة مكى ثوبها الحرير الأخضر ، وبشارتها الحرير الخضراء ، التى خلعتها ، وحزمت بها خصرها ، كى ترقص الساعة ، تركت مركوبها فى البيت ، وفردت الملاءات مع النساء تحت قبة الشمس ، تفرح صفية مكى ، فتزين الفرحة ، الوجه ، كأن القمر فى جبين ، والشمس فى آخر ، ترفع صفية ذيل جلبابها ، وتدور حول نفسها دوائر . . دوائر ، وبشورى جوارها ، « وبحر النيل » وحده « يا بشورى » يعرف سر العشق فى القلوب ، لبست الحريم كل واحدة أحلى ما عندها ، وأشعلن المسك والصندل فى المباخر ، ورفعن الصغار على الأكتاف ليروا « بحر النيل » الراجع بعد غيبة سنين وغنين ، طلبن من عثمان ، أن يضرب لهن على الغاب ، فقال : . . أنا مع حبيبة القلب هانم ، وتخلّف عن المواكب ، للقلب ساعة يصبر عليها ، وعثمان صبر على هانم بالأيام ، كأنها السنوات قالت البنات : تقدمى المواكب يا هانم ، وارقصى لنا ، فقالت : أنا مع زوجى عثمان ، وتخلفت عن المواكب ، قال عثمان « . . وأنا معك » يا هانم ، قالت فى حضرة « بحر النيل » ، وهبتك الروح ، والنفس والجسد يا عثمان ، ولمّا وضع عثمان يده على لحمها ، غابت هانم عن الدنيا ، وقالت كلاماً ، لم يسمعه عثمان من زمن ، العين فى العين ، اليد فى اليد ، الصدر فى الصدر ، القلب فى القلب ، والعين على « بحر النيل » الراجع ، بعد غيبة ، حتى تلد هانم ، على كرامته ولداً قمراً ، لا هو كما وجه تمساح خرج من « بحر النيل » فى ساعة فيضان عظيم .

. . تجرى البنات ، وراء سراب الصحارى ، وخلعن المراكيب « حزمت « فضيلة موسى خصرها ، وفكّت عوضية باشرى شعرها ، تجرى البنات وراء سراب الصحارى ، وتغنى صفة ، ويضرب بشورى على الغاب تجرى البنات وراء السراب ، كأنه « بحر النيل » ولا يلحق به أحد ، ترمى كل واحدة نفسها على تراب الأرض ، ولا الأرض ، أرض ولا السماء سماء ، وصفيّة تنادى النساء ، الساعة كى تستريح كل واحدة على صدرها ، فتسقيها بنت الكنوز من ريقها ، كأنه الماء السلسبيل ، فتقول لها : « يشرب » بشورى من ريقك الحلو ، وتظلّلها بشعرها من نار السماء ، ولا السماء سماء ، تقول صفيه . . يا إلهى مارأيت مثلكم يا كنوز أحداً يموت من العشق اثنان لو غابا منى فى الدنيا أموت ، « بحر النيل » وبشورى ، تجرى البنات وراء سراب الصحارى ، كأنه « بحر النيل » لا له أول ولا آخر حتى مالت شمس المغارب ، وانطفأ سراب الصحارى لمّا حسبته بنات الكنوز على رأى عثمان بشير ، كأنه الماء السلسبيل ، وكأنه يلامس الأرض ، كبحر فيّاض ، تقول صفيّة مكى : كانت أمى شريفة ، تشير لى على سراب الصحارى كأنه « بحر النيل » تريد أن تلاعبنى ، فيكون بعيداً علينا ، ولمّا تغيب الشمس منى لا أجده ؛ فأقول : ضحكت على يا أمى شريفة ، « وبحر النيل » تركنا إلى بلاد « غير البلاد ، لكنه يناديا ، فنعود إليه فرحين الساعة ، لا الشمس ، شمس ، ولا البلاد . . بلاد ، ولا الأرض ، أرض ولا رجع لنا « بحر النيل » ، ودلته الشمس على مكاننا الجديد ، ومن ورائها الأوز ، مواكب ، وعثمان بشير ، لا هو عثمان بشير ، ولا هو سيد الكنوز ، ولا هو سيد العالمين ، عثمان ، الكذّاب ، ولد الكذّاب ،

. . رجعت بنات الكنوز ، من دون « بحر النيل » ، ودون الشمس بنت السموات العلى ، ودون الأوز ، مواكب ، تقول هانم حسين ، كذبت علىّ يا عثمان ، قلت لى . . يا بنت الكنوز ، « بحر النيل » ، هناك ، راجع ، واليوم عيد ، الليلة عيد ، وكل الليالى ، فوهبتك النفس والروح ، قلت لك يولد من بطنى فى زمانه ، ولد من زمانه وأعطيتك الروح ، والجسد ،

الساعة ، . . يولد من بطنى ولد فى غيابك يا سيد الكون ، كما تمساح ، خرج لتوه من فيضان عظيم ، الساعة يا عثمان ، لا للحب معنى ولا للبلاد معنى ، ولا الشمس بنت السماء ، دلّته على مكاننا ومن ورائها طيور الأوز ؛ مواكب سلام ، لا الشمس . . شمس ، ولا القمر . . قمر ، ولا الأرض . . أرض ، ولا الدنيا . . دنيا ، ولا الناس . . ناس

القاهرة : إبراهيم فهمى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جمال بركات

قصة

قسم الخراطيم

ـ لقد تعودتم الكسل . . لم تعودوا تصلحون إلاّ لقراءة الجرائد وشرب الشاى

ـ يافندم سعادتك . الموضوع أن الـ . . . .

ـ ولا كلمة ! . اذهبوا إلى مكاتبكم وسأباشر الموضوع بنفسى

يأتى صوت السكرتيرة :

ـ رئيس مجلس الإدارة يافندم

ـ رئيس الـ . . الـ . . نعم ، نعم . .

تمسك السماعة بيد مرتعشة

ـ الـ . . الو . . نعم يافندم ، نعم غدا ، غدا يافندم ستكون على مكتب سعادتك . . حاضر يافندم . . حاضر . . حاضر يافندم

تنزل السماعة ببطء . . تسحب نفسا عميقا . . تخرجه . . ترفع وجهها إليهم . . مطأطئى الرءوس . . تصرخ فيهم

ـ فيم وقوفكم ؟ اذهبوا ، اذهبوا

يهرولون مغادرين المكتب ، تمسك بعض الملفات ، تفرّ أحدها ، تلقى بها . . تمسك رأسها (لماذا أجيبه غدا ؟) ، تفتح درجا ، تخرج علبة حبوب ، تبتلع قرصا ، تلقى بالعلبة . . (هذا المعتوه ! . أيظن أنى مفتاح اللعبة ؟ لو أعرف من الذى جعله يبدأ بى !) ، تنتبه على صوتها

ـ مدير البحوث والتطوير يافندم

ترفع السماعة

ـ لا ، لا . . أرجوك أرسلها إلىّ الآن . . نعم . . لقد طلبنى منذ دقائق نعم . . نعم ربنا يستر . . مع السلامة

(هذا الغبى ! . أيحسب أنى ساذجة ؟ . قبل خمسة أعوام كان يشكو لكل زملائه من مشكلاته المالية ، وفور ترقيه لدرجة مدير تغير الحال ، الملابس الأنيقة والسيارة والورشة التى افتتحها باسم زوجته ، كل المناقصات تأتى إليه ليقرر صلاحيتها للشركة . . وأخيرا ، لا يسأله أحد وإنما يسألنى أنا)

تمسك بالقلم ، تخط بعض الكلمات . . تضغط زرا . . يدخل على الفور

ـ أفندم

ـ هذه الورقة تسلمها إلى مكتب الإنتاج وتسألهم عن الطلبية الجديدة

ـ حاضر يافندم

يتراجع بظهره إلى الباب ، يستعد للخروج ، يوقفه صوتها

ـ اسمع

ـ نعم ياباشمهندسة

ـ مر على سكرتارية مدير المبيعات واطلب منهم البيانات التى طلبتها أمس

ـ حاضر يافندم

يومىء برأسه ويمضى . . تنقر على المكتب لحظة ، تضغط زرا . . يأتيها الصوت الناعم

ـ أمرك ياباشمهندسة

ـ سمية ، اطلبى لى الأستاذ أحمد نبيه

ـ حاضر يافندم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تقلب بعصبية فى بعض الأوراق . . تتوقف أمام توقيعه . . (لو يعرف الرئيس الجديد أنه يمتلك مصنعا للخراطيم ، وأنها تصنع بنفس خامات الشركة بعد أن تباع لشخص صورى من طرفه ، على أنها تالفه ! لو يعرف أنه يعرقل بيع إنتاج الشركة ويرسل العملاء ليشتروا من إنتاج مصنعه الخاص . . وفى النهاية يطلب منى أنا أن أبحث عن الأسباب !)

ينبهها صوت السكرتيرة

ـ مدير المبيعات على الخط يافندم

ـ أهلا . . أهلا أستاذ أحمد . . كله على الله . . نعم ، نعم أرسلت لإحضارها . . لا . . لا ، سأحتاج لبعض الوقت . . البركة فيك . . متى . . لا ، لا لقد قلت له إنها ستكون على مكتبه غدا . . ربنا يستر . . ربنا يستر .

تضع السماعة ببطء . . (ربنا يستر)

تضغط بإصبعها . . يدخل مهرولا . . تخلع النظارة عن عينيها ، تمسحها

ـ قهوة ياعلى

يحنى رأسه ويتراجع . . يلحقه صوتها

ـ انتظر

يتسمر فى مكانه

ـ أمر سعادتك

تصمت لحظة ثم تشير بيدها

ـ اذهب أنت

تمرر يدها بين خصلات دب فيها الشيب . . تتذكره ، إنه الطرف الأساسى فى المشكلة . . تتنهد ، يوم حضورها لاختبار التعيين كان يجلس فى صالة الانتظار . . ألقت تحية الصباح ثم سألته عن الاختبار . . نظر إليها مبتسما ثم أجابها بأنه ينتظره .

بعد تعيينها توثقت العلاقة بينهما . . لم يكن يخفى إعجابه بلباقتها . . خفة ظلها . . رشاقتها وخصلات شعرها . . كان يأتى لها بالتقارير اليومية المطلوبة منها دون أن تنزل أو ترى عنابر المصنع الملوثة بالكربون الأسود . ظنت أنها مسألة وقت ويطرق بابها . . لكنها مع مرور الأيام أدركت ما يبغيه عندما رأته فى موقف محجل مع سكرتيرة رئيس القطاع . . يومها قررت أن توافق على أول طارق لباب أبيها .

(أصبح الآن مديرا للإنتاج ، ما يأخذه من العملاء يعادل ما تأخذه الشركة ثمنا للبضاعة ، من لا يدفع تظل طلبيته مستبعدة من خطة الإنتاج ، فيلا مصر الجديدة وشاليه شارع الهرم وحاشية من النساء وفى النهاية يأتى من يسألنى أنا ؟

ـ رئيس القطاع يافندم

ـ هه . . نعم ، نعم ، أعطنى الخط

ـ قال إنه سيأتى لسيادتك بنفسه بعد دقائق

لم يفعل ذلك أبدا ، فى بداية عملها كان مديرا ، كان يختلق الأسباب لا ستدعائها إلى مكتبه وشيئا فشيئا ألمح لها عن مكنون نفسه ، كان الرفض وقتها يعنى رسوبها فى فترة الاختبار . . راوغته وما طلته ، لم ينل منها إلا ما أرادت هى أن تعطيه له .

(ماذا يريد ؟ ألا يعرف أن عوامته على النيل هى لب المشكلة ، شقة ابنته التمليك هى صلب الموضوع ، رصيده فى البنك ، ومصنع البلاستيك الذى يشيده لابنه ، وطاقم السيارات ؟ ثم تسأل من لم تشتر إلا سيارة يتيمة !) .

يطرق الباب

ـ ادخل

يتقدمه كرشه المنبسط أمامه ، تهم بالوقوف لتحيته ، يشير بيده ويخطو نحوها

ـ وألله ما أنت واقفة !

ـ أهلا يافندم ، أهلا

يصلح وضع النظارة على عينيه ، يعتدل فى جلسته

ـ طبعا أنت تعرفين ما أريد أن أقول

ـ سيادتك تعرف حرج موقفى

يبسط يده مهونا

ـ لا حرج ولا حاجة لا تضخمى الموضوع ، أكثر من هذا وعالجناه

تسلط نظراتها عليه ، يسترسل

ـ ألم تصلك التقارير والمقايسات ؟

ـ كل ما وصلنى لا يبرر ما وصلنا إليه

ـ أين خبرتك ياعفاف ؟ تصرفى !

بعصبية :

ـ حاولت . . أرسلت إبراهيم وسعدون و . . .

يضرب المكتب بقبضته ، يعلو صوته

ـ انزلى بنفسك . . عاينى وفصلى المقايسات المطلوبة

يهم بالوقوف ، تومىء برأسها ، يلتفت قبل أن يخرج

ـ على فكرة . . ابدئى بالخراطيم

(سأبدأ بها . . لكن أين سأنتهى ؟)

ـ القهوة ياباشمهندسة . . أية أوامر أخرى ؟

ـ هه . . نعم ، لا ، لا . . رح انت

تهم بالنهوض ، يعرقلها الكرش المتدلى تحت المكتب . . تتحسر على الرشاقة التى ذهبت ، تسحبه سحبا ، تحمل بعض الملفات والأقلام ، تضغط زرا .

ـ سمية أنا نازلة المصنع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تخرج إلى الممر . . يبدو لها طويلا جدا ، تجاهد فى السير إلى السلم ، لأول مرة منذ تعيينها تنزله غير متجهة إلى البيت . . تتقطع أنفاسها ، تقف لحظة لتلتقطها ثم تواصل السير . . عند باب الإدارة تقف ، تستند على لوحة الإعلانات تنظر يمينا ويسارا ، تراهم يروحون ويجيئون ، يحملون عجائن سوداء ، لفات سلك ، مواسير حديدية طويلة . . منظر غريب على عينيها . . تهم بالسير . . يطرأ على رأسها سؤال مخجل . . كان مفروضا أن تعرفه منذ خمسة عشر عاما ، يحاول لسانها أن ينطق حروفه . . يتلعثم . . تحاول ، تقترب منهم . . وجوههم غريبة عليها . . تخرج الحروف مرتبكة

ـ أنت يا . . أين قسم الـ . . الـ . .

يلتفتون ناحيتها . . . تهتز الأوراق فى يدها . تستدير عائدة

جمال بركات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سمير فوزى

قصـــة

انكســـار المـــرايا العـــالية

من ساعة أن جئت يا أبى بسيارتك الجديدة بطول المدرسة لتأخذنى وعيون العيال ترمينى بالحسد . من لحظتها وأنا أحملك معى ، فى المدرسة فى الشارع ، أنت أبى فتتسع العيون حسداً حتى ناظر المدرسة بدأ يهتم بى ، سعيداً كنت وكنت أسعد أكثر وأنا أتسحب فى عز الليل ومن ثقب باب حجرتك فى شقتنا الجديدة أو حتى القديمة أرى قلمك الرصاص يتحرك مع المسطرة الكبيرة يبنى على الورق عمارات أعرف أنها بعد أيام ستكون عمارات حقيقية ، كنت أسرع إلى حجرتى ومن حقيبتى الصغيرة أخرج قلمى الرصاص ومسطرتى وعلى ورق كراستى أرسم خطوطا طويلة وقصيرة مستقيمة وملتوية دائرية ومستطيلة لكنها كانت تعاندنى دائما كانت مجرد خطوط أخبرك فى الصباح أرى جبهتك العريضة تنكمش وعينيك الضيقتين تضحكان من أجلى

- لما تكبر وتدخل كلية الهندسة تقدر ترسم عمارات على الورق

- امتى بقى أكبر !

وكنت عندما تسير إلى جوارى ممسكاً بيدى أشعر أن قامتى بطول قامتينا وأن بإمكانى لمس أعلى فرع فى الشجرة القائمة أمام باب العمارة . .

قالت لى البنت ذات العينين الخضراوين والشعر الأصفر الطويل التى أجلس إلى جوارها على دكة الفصل

- أبوك شكله حلو

قلت لها - أبى مهندس كبير

قالت لى - أنت فيك شبه كبير منه

قلت - لما أكبر هاكون مهندس كبير مثله

جاءوا يدكون الأرض بنعالهم الثقيلة والناس صيام وصوت المؤذن يدعونا للإفطار . من يومها لم يتكلم منك إلا دموعك التى لم تستطع إقناعى ببراءتك . لم أسمع منك ولو مرة واحدة أنك مظلوم ، كنت أراك تحاول إخفاء عينيك عنى فلا تستطيع فتحتوينى بين ذراعيك صاح العيال ورائى فى المدرسة فى الشارع ابن الحرامى أهه . ابن المرتشى أهه . حتى البنت الحلوة تركت الدكة إلى جوارى وجلست إلى جوار واحد غيرى ، عيناها الخضراوان لم تعودا تبتسمان لى ، قدماى كانتا تتوسلان للأرض أن تبتلعنى وهم يرشقوننى بك . .

أحتمى بصدرك يا أمى ، تتشنج دموعى وأنا بين ذراعيك تبكين يا أمى وأبكى ويبكى هو هناك خلف قضبان الحديد، أمى التى عشت معها وأبى لم تكن تعرف البكاء ، كنت لا تعرفين إلا الصراخ والصوت العالى دائما فى وجهه ، دائما كان صوتك أعلى منه . مازال صوته فى أذنى وهو يحاول أن يهدىء من غضبك المستمر .

- يعنى كان لازم يا أمى الشقة والعربية يكونوا جداداماها شقتنا القديمة .

فى حصة التاريخ قال لنا المدرس أن من عظمة أجدادنا القدماء أنهم لم يتعلموا الهندسة فى الكليات وبنوا الأهرام ولم تسقط أهرامهم ، وسقطت عماراتك أنت يا أبى على رؤوس الناس ! بعد أن ذهبت عنا كنت أتسحب إلى حجرتك ومن ثقب الباب أنظر . يصفعنى ظلامها . أعود متدثرا بدموع حسرتى عليك ، أدخل من باب الشقة . أول ما يطالعنى صورتك العالية المعلقة قبالة الباب ، مازالت الصورة تضحك رغم أنك هناك لم تكف عن البكاء ، كانت رقبتى تؤلمنى من طول وقوفى أمام الصورة أفتش فيها عن أبى حتى تأتى أمى وتبعدنى عن صورتك التى تضحك .

فى المدرسة عيون العيال وألسنتهم تتربص بى ، أخافهم كنت أخشى أن تعايرنى الجدران بك ، لن أذهب إلى المدرسة مرة أخرى ، توسلت أمى

- لازم تروح علشان تبقى باشمهندس
- العيال بيشتمونى
- هاشتكيهم للأستاذ

فى الفصل وقف ينهاهم عنى قال لهم إننى ليس لى ذنب فيما فعلته أنت ،

- اللى هايزعله هاحط وشه فى الحيط أسبوع . .

من يدى أخذنى إلى البيت أجلسنى أمامه على أول دكة فجاءت البنت وجلست بجوارى ، صمتت عنى الألسنة وسبتنى العيون ، داعبنى كثيراً لأضحك وأعود إلى أمى فتضحك هى الأخرى سعيدة ، وكانت تسعد أكثر وهو يمسك بيدى حتى باب الشقة وكانت كثيرا ما تدعوه للشاى فيشربه وينصرف .

كيف لم ألحظ من قبل أنه يشبهك يا أبى عيناه الضيقتان ، جبهته العريضة حتى صلعتك الخفيفة فى مقدمة الرأس ليس لك شاربه الأنيق عندما أكبر سيكون لى شارب فى مثل أناقته .

عايز أبقى مهندس مثل أبى أو مدرس مثلك علشان أحب العيال وأعلمهم وأعطف عليهم

- يبقى لازم تذاكر كويس . .

فى حصة الهندسة كأننى الوحيد فى الفصل كان يعيد الدرس حتى أفهمه أنا ، فى زياراته لشقتنا كتاب الهندسة كان دائماً بيننا وكان وجه أمى الجميل يلمع بياضه من السعادة وكنت سعيداً من أجلها ، فى رحلة المدرسة إلى القناطر أجلسنى الأستاذ بجواره على المقعد الأمامى للسيارة عندما نزلنا لم تنزل يده عن كتفى إلا لتحتوى كفه رأسى فتلهو أصابعه فى شعرى ، ترك الجميع وأخذ يلاعبنى الكره الراكيت وكان ينهزم لى فأضحك أذكر أن أمى كانت رافضة تماما هذه الرحلة ووافقت عندما توسط هو لى كانت تطمئن على معه .

ليلتها يا أبى نمت من المغرب بعد أن رأيت بعينى منتخب الكرة يعطى ظهره لكأس العالم كان الأستاذ يجلس بجوارى وأمى تجلس أمامنا والأرجل تتخبط داخل الشاشة ولما انتهت المباراه طرت إلى فراشى ودموعى تتوجع معى ، العشاء رفضته ، حتى عندما جاءنى به الأستاذ بنفسه إلى الفراش ، كل ما أذكر بعد ذلك أننى تنبهت لا أدرى فى أية ساعة إذ أحسست بعطش شديد يلهب حلقى وبرغم علمى بأنك مازلت هناك ومازالت حجرتك تعانق الظلام فإننى لم أتخلف عن النظر إليها كانت عيناى تنسرقان منى إليها ، لكنها تلك المرة كانت مضيئة إلى ثقبها ساقتنى دهشتى أمى والأستاذ كانا عاريين تماماً إلى جوار أوراقك ياأبى ، لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك وماذا فعلا لكننى أذكر جيداً أننى فى الصباح لم أصح للمدرسة ولم تأت أمى لإيقاظى .

شبرا الخيمة : سمير فوزى إبراهيم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة

وبوغلن فى الحفر

دائما حينما يفتح دولابه الصغير ، ألاحظه ، كيس من قماش أزرق بهت لونه ، وفتحته مربوطة بخيط رفيع دقيق يكاد لا يبين . حمله بيديه الاثنتين ، ووضعه على سريره السفرى المفروش الآن بملاءة بيضاء ، تتناثر على أطرافها ورود خضراء صغيرة ، وفى قلبها تستقر وردة ، عريضة أوراقها ، وساقها تنحنى فى شدة حتى تحسب أنها ستنكسر .

جذب طرف الخيط فى بطء ، يتبع متابعة فراغ العقدة البيضاوى وهو يضيق حتى ينحل تماما . أدخل يديه داخل الكيس ، برزت قطعة حجرية على شكل رأس مثلث وباكتمال خروجها ، بدت وليس لها شكل محدد ، كأنها كسرت بقسوة وعنف ، تناولتها منه ، وقلبتها على وجهها وكان هناك نقش واضح ، لفتاة فرعونية يظهر ثوبها الشفاف الرقيق ملامح جسدها ، وتبدو وكأنها ترقص ، ومن حولها انتشرت زهور اللوتس ، واستقرت إحداها داخل ضفائر شعرها الطويل ، ارتفع صوته ، وهو واقف أمام الدولاب ، ويفتش فى داخله عن شىء .

ـ عثرت عليها منذ سنوات طويلة ، كنت مازلت شابا . . . ظهرت من قلب أرضنا ، ونحن نحضرها لنبنى البيت . . اندهش الجميع وهم يرونى أجرى وأخطفها قبل أن تهشمها الفأس . . . أردت أن يقاسمونى حبها كلهم ، حتى شعرت برغبتهم ، فحجبتها وجعلتها بعيدة . . . . كأن فكرة بناء البيت بزغت فى حياتنا ، لتصبح خطوة نحوها . . . .

جلس أمامى ، ووضع على ركبتيه شنطة جلدية كبيرة ، فتحها وأخذ يفتش فى محتوياتها فى حرص شديد .

لايعرف السكان أشياء كثيرة عنه ، استأجر الغرفة التى فى السطح ، منذ سنوات وكان يخرج مرتديا سترته السوداء القديمة ، وقد ظهر حشو ياقتها ، وبنطلونه الأزرق المخطط بخطوط رفيعة ودقيقة .

كنت قد سكنت الشقة التى تحت غرفته وفى يوم وجدته يكلمنى ، رحب بقدومى وأكد لى أننى أحسنت اختيار المكان . . وحينما رفعت وجهى ، وجدت ابتسامة خفيفة فوق وجهه . سألنى مباشرة هل سأظل أسكن الشقة بمفردى ؟ أجبت :

ـ لفترة طويلة . قال إنه ينتظر زيارة له وفى أقرب وقت .

فى البداية كان كثير الحديث عن غرفته ، يصف لى كل شىء فيها وكأننى لا أراه ، ويطلب منى أن أدقق فى أشياء أهملها . . فى كوب مكسور . . . وجه مرسوم على حائط الغرفة . . . أسلاك نحاسية يعرفنى أنها أوتار آلة قديمة ، واستغراقه فى الوصف ، يكسبه دائما وجها . . أحبه . . وأتمنى أن يبقى ، ولا يذوب فى لحظات صمته الطويلة . قال وهو ما زال ينظر فى داخل الشنطة ويفتش

ـ قال أبى : اتركها أزيدك جوارى . . حاول كثيرا أن يأخذها منى . . ليقذفها بعيدا . . رفضت ، كثرت محاولاته . . فسافرت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صمت ، وهو يفتح كراسة بدون غلاف ، أصفر لون أوراقها ، وانثنت أطراف بعضها ثم قال :

ـ طلبت منهم أن يزيدوا عمق الحفر . . كنت أعرف أن هناك أخريات مثلها . . هناك . . رفضوا . . قال أبى : نريد الدار . . كنت أحفر بعد أن يناموا . . كن مبتعدات جدا . . ولم أصل . تناول ورقة مطوية ، من بين صفحات الكراسة ، فردها . . نظر فيها قليلا ثم ناولها لى امرأة عارية تماما ، تعقد ذراعيها فوق رأسها ، وتفتح عينيها على اتساعهما وعلى صدرها موشوم اللوتس والفتاة الراقصة ، وفى أسفل الرسم كتب بحبر أزرق بهت لونه بمرور الزمن . . .

« رسمتها منذ سنوات بعيدة . . . لا أتذكر متى . . . لكن ساعة الميدان كانت تدق بشدة ، أشار ناحية الوجه المرسوم على الحائط المواجه للدولاب وقال :

ـ حاولت رسمها هنا . . رواغتنى . . وتسربت من بين يدىّ . . كنت أخاف أن تتلاشى وتغور داخل . . وانتبهت فى لحظة . . وامتلكتها على هذه الورقة . . أريد أن تعود هذه اللحظة . . لأحفرها على الحائط . . مكانها هنا وليس فى الأوراق . . . أخذ الرسم . . ورفعه إلى أعلى . كادت يداه تصطدمان بمصباح الغرفة الصغير المتدلى من السقف . . وبدا وكأنه يريد رؤية شىء داخلها . . ارتفع صوته

ـ عشقتها مثل . . لم تكن كالآخرين . . كانت فى البداية ، تطيل النظر إليها . . ثم انطلقت تحكى عنها . . كانت دوما تراها ، وهى تغنى فوق زهرة اللوتس التى تغطى مياه النهر ، تحكى ولا أستطيع سوى الصمت وتأملها . . روت لى كيف رأتها . . وهى تركض فى الشوارع وتعانق الجميع . . ثم عادت قبل الغروب لتسبح طويلا فى النهر . . وقفت أمامها عاجزا عن الكلام ، حينما طلبت منى أن أحفرها فوق صدرها . . ارتعشت يداى قليلا ثم انسابتا ، فوق الصدر . . وسألتها ودماء الحفر لم تجف بعد . . كيف فعلت هذا ؟ أجابتنى قبل أن تغيب . . لم تفعل أنت . . بل هى

ـ كيف التقيت بها ؟

ـ هى التى أتت . . طرقت الباب . . كانت تعرف المكان جيدا . . حدثتنى قليلا عن صعوبة الطريق . . ثم سألتنى عنها . . . لم أمنعها وهى تفتح الدولاب ، وتأخذ الكيس وتخرجها . . قالت إن أخريات مثلها سيأتين . . كلهن يعرفن البيت لكن فى انتظار لحظتهن . . .

ـ لماذا غابت ؟

تمدد فوق السرير ، وأسند رأسه على حافته المعدنية ، ظننت أنه سيصمت ولن يجيب ، ارتفع صوته :

ـ فى البداية لم أفهم . . لكن الآن أشعر أنها تجوب البلاد . . عارية الصدر ليرى الجميع . . هل ستأتى ثانية ؟ . . . لن تذهب إلا إلى الذى لم ير . . عرفت عنها أكثر منى لقاؤهما وافتراقهما ومضة لكنها كانت كافية للقاء لا ينتهى قال بعد أن طوى الورقة ، وضغط بأصابعه على حافة الطبّة !

ـ أثق أننى حفرتها على صدور الكثيرات . . لكن لا أعرف متى وكيف . . فقط أجد الدم يغطى يدى ، وفقط أرى فى ركن الغرفة إحدى وريقات اللوتس . . . فى لحظات أشعر أنهن متحصنات بجدران هذه الغرفة ، يراقبننى وأنا أحيا معها . .

اندفع هواء ليل الشتاء البارد ، حينما فتح شباك الغرفة المطل على الشارع أخذ ينظر إلى الطريق ، وبين حين وآخر يتنفس بعمق كأنه يريد ملء صدره بالهواء . . شعرت أنه دخل فى صمته . . . ولن يتحدث

ـ سأنزل . . سأراك غدا

قال وهو يلتفت إلى فى بطء :

ـ انتظر لحظة أن يأتين جميعا . . سأطلب منهن أن يحفرنها فوق صدرى ويوغلن فى الحفر . . لن أتألم ، سأصمت تماما . . وربما بعدها . . أجوب البلاد . . وربما أعود إلى البيت . . . .

القاهرة : منتصر القفاش

أمين بكير

قصة

كتلة اللحم

عروس روض الفرج ترقص وسط هالة من الضوء ، وسط سحابات الدخان المتصاعدة من عشرات النراجيل التى يدخنها زبائن المقهى العتيق الذى يحتل ناصية شارع السوق بروض الفرج .

الصبى الصغير عصفور يدور وسط الزبائن صارخاً فى معلمه رضا الواقف خلف « الناصية » وبصوت جهورى .

ـ وعندك عناب ، كمان قهوة سادة ، شاى ميزة ، سحلب . .

وتتوالى التصفيقات والنداءات . هديراً تطلب « عصفور » وعصفور يتحرك وسط الكهارب التى ترقص والدخان المتراقص صاعداً نحو عنان السماء ، ولا يملك إلا أن يجيب :

ـ ايوه جاى يانعم . .

لكنه يرمق فتاة تسير فى خيلاء ، يتأملها ، يدفع بغطاء رأسه مما فيها النظر يسيل لعابه ، يضطرب جسده مع تموجات الردفين وثوبها الخفيف الضيق ، يلتهب خياله فجأة :

ـ اخ . . استريا اللى بتستر ! .

ويعض على أصابعه ندماً وحسرة ، يظل واقفاً متأملاً إياها حتى تختفى عن نظره ، يفيق على تصفيقات الزبائن ونداءاتهم المكررة التى تتعالى فتحاصره وتشعره بالاختناق فيصرخ ـ على عينى جاى . . حاتفرج . . وعندك واحد بندق . .

ويعيد غطاء الرأس إلى وضعه السابق فى مؤخرة رأسه ، يفكر قليلاً ويتذكر أنه لم يذق مرة فى حياته طعم البندق .

ويتحرك نحو الناصية ماراً على بنك المعلمة جمالات صاحبة المقهى التى لم تحضر بعد ويشعر بالخوف عليها ، يفكر فيها دوماً ، يرقبها دوماً . . يشعرها بوجوده دوماً ، يحلم بها دوماً ، يتكاثر الدخان ويلف الأضواء مثل سحابة تحجب عنه كل شىء إلا المعلمة جمالات ـ يفكر أنها لم تحضر بعد وقلبه من الحسرة والخوف يكاد يتمزق ، وفجأة تظهر المعلمة عند ناصية الشارع تتبختر وكأنها الأميرة فوق الهودج ، ينصب قامته ، يبتلع ريقه ، يطمئن قلبه ويرفع صوته وكأنه يريد أن ينبهها بوجوده :

ـ هات كمان تعميرة حمى . .

ويصرخ رضا خلف الناصية فى غضب ويفيق عصفور من سرحته الطويلة وهو لا يدرى لماذا يخصه رضا وكل هذا الجمع من الزبائن بتلك اللعنات الغاضبة وهذه الغطرسة ، ويدور وسط الغاضبين دورة والمعلمة جمالات لا تعيره أدنى اهتمام وتلقى بتحية المساء على رضا الواقف خلف الناصية ويفشخ رضا ضبه بضحكة يستقبلها بها ، والنار تزداد اشتعالاً فى صدر عصفور الذى يعود بالصينية فارغة من الأكواب ليعيد الكرة دورة أخرى موزعاً المشاريب والطلبات على زبائن المقهى . وفى صدره بركان لا يهدأ وأراد أن يقذف رضا الواقف خلف الناصية بالصينية فى وجهه لكنه فكر سريعاً لو أنه فعل ذلك لغضبت المعلمة عليه ولربما طردته فكيف يعيش بعيداً عنها إنه يشعر بأنه كالسمكة التى تعيش وسط الماء وإذا خرجت منه

فستموت حتماً ، ويكظم غيظه وينظر إلى المعلمة طويلاً . دافعاً بغطاء رأسه إلى الأمام متأملاً إياها فى نهم ولوعة ، يمسحها بناظريه للمرة الألف ، جسدها الممتلىء صدرها النافر المتحدى بياض جسدها الضارب فى اللون الوردى ، خصلات شعرها المخملى الأسود الذى انفلت بنعومته من أسفل،قمطة الرأس ذات الترتر والوردات أسنانها الذهبية التى تصيبه عندما تبتسم بالخيال ، ذراعيها الممتلئتين الناعمتين ، يضرب نفسه لكى يفيق من حلم صعب المنال ويجأر . .

اخ . . استر يالى بتستر !

وينظر إلى المعلمة التى « تكركع مع رضا . فيبتسم عصفور ظناً منه أنها إنما خصته هو بتلك الضحكة فيعيد غطاء الرأس إلى وضعه بمؤخرة رأسه ، ويصلح هندامه ويصرخ فرحاً . .

ــ حلاوتك يامعلمة ! .

وتنظر إليه المعلمة فى جفاء وتمد يدها نحوه وفى صوت قاطع تأمره :

ــ هات المارك ونزل المشاريب . . اعملك همة !

يلقى بالمارك ويحمل الصينية ويدور بين الزبائن دورة وهو كسير القلب وينهمك رضا فى إعداد الطلبات ، ويدور عصفور على الزبائن الذين لا يرحمون ضعفه ولا يشعرون بما يشعر به من المهانة ، لا يدرى أحد عن قلبه شيئاً ، تتعالى الأصوات .

ــ عصفور . . هات قهوة . .

ــ حاضر .

ــ عصفور . . شغل التليفزيون . .

ــ من عينى حاضر . .

ــ عصفور . اعدل الإريال . .

ولكن من الذى طلب من عصفور أن يعدل الإريال . . صوت ناعم دافىء . يلتفت نحو المعلمة جمالات ويصيخ السمع فى مكر حتى تعيد لسامعه ما قالته .

ــ اعدل ياواد الإريال . . الصورة مش حلوة .

وتسرى فى جسده رعدة لذيذة . . المعلمة بنفسها هى التى تطلب منه ذلك .

ويسرع نحو الجهاز تاركاً ما بيده من أكواب وزجاجات فارغة يكاد يطير فرحاً ، صارخاً :

ــ على عينى حاضر !

يصلح عصفور من وضع الإريال ، يطير من مكانه أمام التليفزيون إلى الوراء فى خفة وكأنه حمامة صغيرة مرحة يداعبها نسيم الصبح ، تتضح الصورة بعد محاولات عدة .

يقف صاغراً بجوار الجهاز وفى رضى يهمس :

ــ هه . . الصورة كدة أحسن ؟

ــ براوا عليك !

وينظر إلى وجهها مليا ، يتأملها كما لم يفعل من قبل . ترمقه فى غرابة ، تضحك ، يرتج لحم الصدر فيطيش صوابه ، يدعك أذنيه وكأنه يطفىء حريقاً شب فيهما ويجأر :

ــ اخ . . استرها يا اللى بتستر !

ويصرخ رضا من خلف الناصية لاعنا ساخطاً :

ما تيجى تشيل الطلبات ياعصفور وتخلى ليلتك تعدى ياابن الـ . .

وتتصاعد الأصوات صاخبة غاضبة ، تحاصره من كل جانب ، وتتعارض رغبات الزبائن بين مشاهدة الفيلم العربى ، ومباراة كرة القدم المعادة أو الفيلم الأجنبى ويصرخ رجل ممتلىء الجسم كالطود فى صوت كالرعد :

ــ احنا عايزين نشوف المصارعة . اقلب على المصارعة ياد ياعصفور .

ويحتدم الصراع ، تختلط الأصوات ، تنشب المعارك بين زبائن المقهى وعصفور يرقب كل هذا من بعيد ولا يخشى إلا أن يهرب أحد زبائن المقهى دون أن يدفع ما عليه من حساب . ويصاب بالتصدع من الداخل . شرخ بداخله كان يتسع ، دوار شديد فى رأسه ، يضغط رأسه بكلتا يديه صارخاً فى ألم :

ــ الصداع . . الصداع !

الدنيا ظلام ، عصفور يتحرك بآلية مخيفة وبيده طلبات الزبائن الجديدة . .

ــ الشاى الميزة ، القهوة السادة ، الشيشة . انتو مالكوش بيوت ياخلق ؟

عيناه تلمعان فى الظلام ، يزداد الصداع فى رأسه حتى لم يعد يرى بعينيه أى شىء ، استند بجوار الباب ، جبينه يتصبب عرقاً ، يسرح ببصره نحو الزبائن ويفكر.كل منهم مستمتع ، كل منهم قد ابتلع عشرات الأكواب من السحلب والبندق والشاى والقهوة والبارد ، وعصفور وحده الذى ارتبط مصيره بهذا العذاب اليومى المتجدد منذ نعومة الأظفار ، وقفزت إلى رأسه فكرة غريبة . لماذا لا يقوم أحد الزبائن الجالسين على المقاعد ليعد له الشاى الوصاية والبورى المخصوص والشيشة الحمى والبندق الحقيقى ، ويجلس هو على المقعد فى معلمة وينادى على الجرسون فى عظمة وعنجهية . مثلما يفعل معه كل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الزبائن ؟ لكنه سرعان ما يطرد الفكرة من رأسه ويهمس لنفسه فى خيبة رجاء .

ـ ياخسارة المجدعة ياعصفور !

ويدلف إلى المقهى المعلم أبو سنة ، طويل القامة ويتسلل خوفاً من كل الأعين ويلتصق بعصفور مناولاً إياه ورقة سلوفان مبرومة يفضها عصفور على عجل يضع محتوياتها بين أسنانه ، يودع أبو سنة بعد أن يناوله الثمن ، يسرع عصفور نحو الناصية ، يصب لنفسه كوبا من الشاى دون أن يحليه بالسكر . ويظل يرشف الشاى الساخن تباعاً . ويمصمص شفتيه حتى تكتسى عيناه بسحابة زرقاء . ويدور برأس قد ابتعد عنه الصداع ويتباعد تدريجياً ويظل عصفور يضحك بلا معنى أو مبرر لضحكاته التى استلفتت نظر رضا الواقف خلف الناصية فصرخ .

ـ مالك ياد ؟ أنت فشّتك عايمة ليه ؟ شيل الطلبات وودّيها للزباين واتعدل معاى لا أعدلك أنا . ولا أنت اتسطلت زى كل ليله . . . !

ويركز عصفور بصره على المعلمة جمالات وهى تتكلم مع أحد الزبائن وتسوى خصلة شعر قد انسدلت ، ويتنهد عصفور فى حسرة ، ويجأر بانكسار :

ـ حاضر يامعلم رضا . .

عصفور يتحرك فى آلية مخيفة ، الدنيا ظلام ، الزبائن تطير من المقهى ، كل الزبائن لم يعد لهم أرجل ، كلهم يناولونه ثمن المشاريب ويطيرون . ويخطف عصفور نظرة إلى المعلمة ورضا . ويفتح فمه مشدوها عندما يرى المعلمة تضحك عندما يقرصها فى ذراعها . وهى « تكركر ضحكة مستسلمة لما يهمس لها فى أذنها ، يستشيط عصفور غضباً ، ينتش النقود من أيدى الزبائن فى عصبية ، يلقى بالنقود فى جيب الفوطة الملتفة فوق عنقه وكأنها حبل المشنقة ، يطحن أضراسه غيظا ، يزفر فى حرقة ، يصوب النظرات النارية نحو خصمه الذى لا يبالى وجميلته التى لا تدرى عن احتراقه شيئا ، يعود عصفور إلى نفسه خوفاً من الضياع إن هو أخطأ فى الحساب مع الزبائن ، يثقل جيبه بالنقود ، يخلو المقهى من الزبائن ، يسرع إلى التليفزيون ، يضغط على الزر فتختفى الصورة ، يجلس مراجعاً حساباته ويعد النقود ، رضا يعد المارك أمام المعلمة جمالات ، ينظر تجاه عصفور مستحثا إياه أن يمثل أمامه والمعلمة لساعة الحساب ، يضحك عصفور ويحاول أن ينهض ، جسده قد صار كالخرقة البالية ، لا يستطيع أن يصلب طوله . وسحابة زرقاء تغلف رؤيته ، كل شىء أمام عينيه صار ضبابياً ،

المعلمة جمالات تعيد عد المارك الذى قدمه لها رضا ، تلقى بكل المارك داخل فتحة بالوعة البنك الصغير الذى أمامها ، تضع مبسم النرجيلة التى كانت تدخنها جانباً ، تتمطى ، تتثاءب تتوجع ، يثقل توجعها نفس عصفور ويوجع صميم قلبه ، يسرح بعيداً عن وجوده معها ويحلق عبر السحابات التى تغلف عالمه . ويتخيّل نفسه فى منطقة بعيدة . . بعيدة جداً حيث السماء والبحر ، وكل شىء فى بكارته ونضارته ، فى عالم وردى استحضره من خلال سحابات الدخان الزرقاء ، المعلمة جمالات تأتى إليه فى ثوب شفاف يبدى كل مفاتنها ملموم الوسط وتسير إلى فتاها عصفور المنتصب كالخيزرانة صحيح الجسم منتصراً . وفى شباب متدفق وحيوية وانطلاق ، يحتويها الفتى عصفور بذراعيه القويتين ، يضمها إلى صدره ، تتوجع فى أنوثة فتوقد نار الرغبة فى صدره ، يجلسان معا على بساط من السندس الأخضر ، يبثها شوقه ، يطفىء نار صدره حين يحكم احتواءها فى ضمة مفترسة ، تتألم تتلوى بين ذراعيه ، تلهث ، ينزع عنها الثوب الفضفاض يتأمل هذا الصدر المرمر ، يغيب عن الوجود لحظة ، يطفىء ما بداخله من نيران مستعرة ، يهدأ ، ينهض منتصراً ، تذوب اشتياقا وتموء عند قدميه مثل هرة ينتصب الفتى كالمارد الذى استلب من سماء الكون نجمة عزيزة المنال .

يفيق عصفور على صفعة قوية فوق قفاه فينطرح أرضا ويجأر للضربة المباغتة .

ـ أنا فين ؟ .

تحاصره الشتائم من رضا ومن جمالات التى انقلبت سحنتها غضباً وصارت كالنمرة المفترسة ويخرج صوتها سياطا تشوى جسده الواهن .

ـ هات المارك الباقى معاك . وهات الغلة جتك القرف فى منظرك . . ؟

يناولها كل ما معه ، تبرم النقود الورقية وتدسها فى الصدر النافر فتغيب وسط هذا اللحم المترجرج ويحسد النقود على كل هذا النعيم الذى باتت فيه ، يتأمل الصدر النافر يجأر :

ـ استر يااللى بتستر

تنفر منه جمالات ومن نظراته الوقحة تمطره بالسباب

ـ يارضا شوف لنا صبى غير الواد ده . . دا وشه فقرى . . ودايما مسطول ولاّ مافّين . اديله التأمين بتاعه وغوره فى داهية .

عصفور يتقوقع فى ركن بجوار المقاعد المتراصة يجأر بالبكاء . يسير نحوه رضا وينظر إليه مليا ، يجره كالشاة ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقذف به داخل المقهى فيخرج صوته فى رجاء : عشان خاطرى يامعلمة . دا واد غلبان . بكره يكبر بكره يعقل .

تبصق جمالات لاعنة الولد الأجرب الذى انطرح أرضا مثل كلب وأطفأت نور المقهى ورحلت فى صحبة الأخر .

الدنيا ظلام . . عصفور يرقد على الأرض ، المقهى صار زنزانته . . جثته السمراء تلتصق بالبلاط الذى مرت عليه مئات الأرجل ووضعت فوقه عشرات النراجيل وقذفت فوقه مئات البصقات ، السحابة الزرقاء تتلاشى تماما من رأس عصفور ، الدنيا ظلام ، عصفور يعوى ، يبلل البلاط الأسود بدموعه وترتفع فى سكون الليل آهة حزينة أضاعها فى هذا السكون الموحش نباح الكلاب أمام المقهى . .

القاهرة : أمين بكير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حسين عبيد

قصة الخطة

(١)

دخلت الزوجة الحجرة المقدسة - كانت الوحيدة التى لها حق الاقتراب - تلمست طريقها بحذر نحو الشمعدان ، وسط الظلام ، خشية إيقاظ السيد . فالشموع التى أوقدتها بالأمس . ظلت تذبل ببطء ، حتى انطفأت ، فى انتظار عودتها عندما يجن الليل . لتوقدها من جديد .

أبدلت الشموع القديمة بأخرى جديدة . أشعلتها . انتشر النور . تراقصت بعض الظلال على الجدران التى تزينها نقوش وألوان زاهية . عندئذ أشرق السيد بمحياه الوادع . اضطجع بجسده الضخم على الفراش تطلع إليها . تلاقت عيونهما . كانت تلك لحظة جليلة . اقتربت منه . رأته ساهما ، سارحا فى ملكوت آخر . . مشت نحو الباب بهدوء . أحضرت إناء العسل الأبيض وبعض الخبز . وضعتهما قرب الفراش . حملت مبخرة الفحم النباتى . بدأت تحرق البخور . عندئذ انتشر عبيره فى الحجرة . .

نهض السيّد . اقترب من النافذة . . بدا الجبل أمامه ساكنا رغم شموخه . قال : سنستقر هنا لفترة لا أدرى مداها . . كان اختيارى لهذا المكان وسط الصحراء إلهاما . .

ـ وهل سيتركنا فى حالنا ؟

ـ تعرفين أن العداء شديد بيننا . . لكننى سئمت المطاردة ! .

ـ وهل سيطاردنا هنا . . فى الصحراء ؟ !

ـ لقد تتبعنا من قبل . . إلى كل مكان ذهبنا إليه . .

هبت نسمة باردة . تاهت عيناه فى ظلمات الصحراء . انجذبت إلى ساحة الحصن - الممتدة كمستطيل ، ترتفع على جانبيه أعمدة عملاقة - حيث احتشد الاتباع . توتر . . « تبعنى هؤلاء المخلصون سنوات طويلة ، ضحّوا فى سبيل الدعوة بكل غال . لم أورثهم سوى العذاب . . لذا يجب أن تتغير الأحوال » .

رجع إلى فراشه . انكمشت الزوجة بجواره . تناول لقمة من العسل الأبيض . مضغها جيدا أطرق لوهلة : يجب أن ينتهى هذا الترحال المستمر . . يجب . .

تناول لقمة أخرى . حملق فى فراغ الحجرة أضاء وجهه فجأة . . « ومضت فكرة كالسحر ! »

ابتسم للمرة الأولى منذ عدة أيام : هكذا نرتاح مستقبلا . .

ابتسمت الزوجة أيضا . لكنها لم تجرؤ على سؤاله ، فقد أقبل على الطعام بنهم شديد . .

(٢)

أشرق يوم جديد . تسلل ضوء الشمس إلى داخل الحجرة . . كانت الزوجة قد نامت فى حجرتها منذ فترة طويلة . لكنه لم يذق طعم النوم ليلته . استند على حافة النافذة

الحجرية ، العريضة . رأى رجاله يتناوبون الحراسة ، وراء الجزء العلوى من السور ، بينما بوابة المدخل الضخمة مغلقة . .

« نحن هنا فى مكان حصين . .لكنه قد يكتشف هذا المقر أيضا . . عندئذ تبدأ جولة جديدة من المطاردة ! »

بدأ أتباعه يستيقظون . كان يرقبهم حالما ، وهم يتحركون . . « هل حان لهم أخيرا أن يستريحوا ؟ ! »

غادر النافذة . مشى متمهلا فى حجرته الواسعة . . « لقد ضحّوا من أجلى كثيرا . . من أجلهم يجب أن اتخلص منه . . أنا أفهمه بحكم سنوات الكراهية الطويلة . أعرفه منذ الصغر . أحفظ طباعه جيدا . . أستطيع أن أخمن بسهولة ردود أفعاله تجاه أى فعل لى . . ومن هنا يجب اصطياده . . »

سمع ضوضاء تنبعث من ساحة الحصن . دخلت زوجته لاهثة : اعذرنى . . جئت أخطرك . . أنه اكتشف مكاننا . . رآه الرجال على مقربة عدة أميال ، فى اتجاهنا . . ومعه أتباعه . .

أومأ لها بهدوء : فليحضر الآن أو غدا . . فأنا مستعد هذه المرّة !

(٣)

أرسل له مبعوثا عند الظهيرة . كانت رسالة السيّد موجزة . عكست كلماتها الرغبة فى السلام ، والكف عن المطاردة ، مصحوبة بدعوة عاجلة لزيارة مقرّه دليلا على حسن النية . .

إستجاب الآخر للدعوة مرحبا ، تماما كما هو متوقع . .

(٤)

فى صبيحة اليوم التالى ، جاء الآخر وسط رجاله ، اخترق بهم صحن الحصن . . كان السيّد ينتظره ، بعد الممر ، أمام مدخل صومعته . . هنا لا يستطيع أى من الاتباع أن يتقدم إلا بإذن خاص من السيد ، ونادرا ما سمح بهذا التجاوز . تقدم الآخر وحده . عَبَر الممر . تصافحا فى صمت . اتجها ناحية الدرج ، الموصل للشرفة العلوية . . كان الدرج بدون حاجز . اختار السيد أن يكون للداخل بجوار الحائط ، فصار الضيف فى الجانب الخارجى . .

وبدأ يصعدان معا . . كان السيد يبيت الغدر . نظر إلى جانب وجهه خلال الصعود . استعاد فيه صورة الصبى الصغير ، وهما يلهوان معا فى طفولتهما . يختبئان فى أحراش النهر . يصطادان السمك . يسبحان . .

كادت السلالم تنقضى والشرفة تقترب . . لكنه كان مفتونا بأيام صباهما . . دراستهما معا . تنافسهما . فوز أحدهما على الآخر . . « كيف انقلب الحال فجأة . . كيف ؟ ! »

أحسّ بعينى زوجته تراقبانه من مكان خفى . . « كنت أعرف أننا إذا وصلنا إلى الشرفة معا ، فإنّ فرصة العمر ، للتخلص منه ، تكون قد ضاعت للأبد . . لكنى لا أستطيع أن أزيحه من حافة الدرج ، لينزلق إلى بير السلم ، فيبدو موته قضاءً وقدرا . . كنت مأخوذا بالأيام الماضية . . »

انتهى السلم . وصلا معا إلى الشرفة التى يفيض منها النور . أصبحا وجها لوجه فى مواجهة جماهيرهما المشتركة . . أقبلا معا . . تواجها . تلاقت عيناهما . احتضن أحدهما الآخر . . كانا يحتضنان عمرا بأكمله ، ويبكيان سويا ، كما لو كان طفلين صغيرين . .

ومن بعيد وصلها تهليل الجماهير ، المحتشدة فى ضوء الشمس .

القاهرة : حسين عيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد حجاج

قصة

ابتسامة فى وجه الربيع

لست أدرى تماما حقيقة ما يدور بداخلى .

وكل ما أدريه حقيقة ، هو أننى أصبحت ، وبصورة تدريجية أفتقد ذلك الاهتمام الحنون ، وتلك الرعاية الحميمة ، اللذين كانا يميزان جوهر العلاقة بينى وبين سائر البشر ، وأيضا كل الكائنات الحية ، بل وجميع الأشياء بلا استثناء .

لم تكن هذه ، حسب ما تقول الذاكرة ، هى المرة الأولى ، التى يحدث فيها ، أن أقع أسير مثل هذه الحالة ، ولكن الشىء الذى لم يحدث قبلا . هو أن تظلا هذه الحالة ونفسى . على هذه الصورة من التلازم ، فضلا عن أن تطول رفقتهما إلى مثل ذلك الحد .

ولم يكن ما يحدث عندى ، من تغييرات وجدانية ، بطبيعة الحال . يربحنى بل إنه كثيرا ما كان يوقعنى فى دوامات من الحيرة ، أبحث فيها عن السر الكامن وراء ما أنا فيه كما أنه لم يكن ليرضى جماعة الأصدقاء تلك الصفوة القليلة من ممارسى ذلك الفن ، فن التشكيل بالخطوط والألوان ، ممن جمعتهم اتجاهات متقاربة ، وممن كنت ألتقى بهم ، فى أحيان كثيرة ، فى مرسمى الخاص ، أو حتى فى أماكن أخرى ، فيما يمكن أن يكون ندوة ، أو لقاء فنيا .

ومما جعل الخطوط تزداد تقاطعا أمام عينى أننى كنت قد بدأت ألحظ أن هؤلاء الأصدقاء كثيرا ما كانوا ينقلون أبصارهم وسط فيض من الحيرة والقلق بين لوحاتى القليلة الأخيرة تلك ، وبين عينى بل إننى سرعان مابدأت ألمح فى عيونهم علامات الاستفهام تنمو وتكبر ، حتى اكتظت بها صدورهم وضاقت بها ، فكان حتما أن تخرج عبر ألسنتهم لتقف فى وجهى متسائلة مستفسرة .

وذات لقاء ، طلب هنى واحد من الأصدقاء ألا أتخلى عن المنطق والحكمة اللازمين لدراسة قضيتى تلك ، وأضاف آخر ناصحا بأننى يجب على . بطبيعة الحال ، أن أعقد مقارنة .

- مقارنة ؟!

- نعم مقارنة

بين ما أقوم برسمه هذه الأيام ، وبين ما سبق أن كنت أبدعه فى الماضى ، وتحدث أحدهم مشيرا إلى لوحة لى « آدم وحواء » وقال آخر ، أو رائعتك الأخرى « وصول الإنسان إلى القمر » ، وتساءل ثالث بصوت تسرب من قلبه إلى عمق ضميرى : أين يقع ما تقدمه الآن من لوحات من تلك الإبداعات السابقة ؟

ووجدتنى أنزلق بالفعل إلى المقارنة .

وفى نفس ذلك اليوم قضيت فى مرسمى ليلة كاملة ، أخرجت صورا للوحاتى السابقة ، وبدأت أقارن ، كنت أقرأ لوحاتى قراءة جديدة ، وأدرسها تفصيليا وأقارن وأرى ، رأيت هناك حسا فنيا مرهفا ، وتناغما فى الألوان وليونة وإنسيابية فى الخطوط . . قيم فنية على درجة من الشاعرية والسمو ، كانت تنطق بها أعمالى السابقة إلا أنها بالتأكيد غير جلية ، ولا موجودة هنا فى لوحاتى الأخيرة . وكنت أخرج من دراستى ومعاونتى هذه بنتيجة واحدة مؤكدة هى أن مؤشرات القيمة

الفنية لأعمالى تسير فى اتجاه معاكس لتراكم الزمن ومعنى ذلك أننى كنت فى الحقيقة أنحدر ، أتدهور فنيا .

ورحت أبحث من جديد عن سبب جوهرى يمكن اعتباره مسئولا عن ذلك المنزلق الخطر الذى رأيتنى أتردى فيه ، وكنت أفكر وأردد فى حيرة أن ما أنا فيه الآن يمكن أن يكون من حيث الظهور متزامنا مع حدث هام هو الزواج فهل يا ترى يمكن أن أعتبر زواجى بهذه المرأة بمثابة مسئول أو حتى شبه مسئول عن كل ذلك الذى يحدث لى ؟

كنت فى الهزيع الأخير من الليل وبدأت أحس بجفاف فى الحلق ، بل وبدأت أشعر باضطراب فى أنفاسى ، وأنا أصل بالفعل إلى درجة قصية من الإرهاق وبدأت فكرة النعاس تداعب خيالى ، وأنا أفكر مع نفسى بأننى لم أعد أصلح الأونة ، إلا لأن أنام . كان جسدى راقدا ، ويبدو أننى ظللت على هذه الحال ، لفترة طويلة ، أحاول أن أسهو عن الأشياء أناى بها عن مخيلتى وأنام إلا أن الأشياء كانت تتراجع إلى دائرة الشعور ، فى إصرار منها على توكيد الحضور ! فأنزلق معها إلى لعبة المراوغة . أغافلها ، أتناساها ، لعلى أنساها ، ولربما يكتنفنى خدر وأنام .

كانت الأشياء قد بدأت تفقد سطوعها فى رأسى ، والأحاسيس تفقد حدتها فى وجدانى ، وراحت الأفكار تأخذنى تدريجيا نحو دهاليز خافتة الضياء ، ثم تنحدر بى إلى سراديب سفلية داكنة ، ورحت بالتدريج أهوم فى عوالم أخرى وبينما أنا على هذه الحال إذ ببعض ذرات تقبل ناحيتى ، مع تتابع بعض الأفكار ، وتتراكم ، وهى لا تزال تقبل سابحة على أجنحة الخواطر وتتراكم الذرات تقبل على كثيرة غامرة مع تهويمات المشاعر ، وتتراكم فوق جسدى . وبدت هذه الذرات كأنما هى بعض من كثيب ، بعضه لا يزال يتتابع عندى ، وبعض منه لا يزال يتتابع ناحيتى كان الكثيب يلملم خيوطه ويتراكم على جسدى ، وهو لا يزال يستجمع أجزاءه ويحط تماما فوق صدرى بل إنه راح تدريجيا يحيط بكل ذرة من كيانى .

لا : لم أعد قادرا على أن أجذب أنفاسى . بل إنها توشك على أن تتوقف وصبرت غير قادر على أن أفكر ، ويبدو أن عقلى أصبح الآن مهددا بشلل عام تحت وطأة الكون كله .

غير أن بذرة الإرادة كانت لا تزال تتواجد فى أعماقى ، وأنا أتراوح بيأس بين الاستسلام الكامل ، أو حتى مجرد الرفض ، نعم لابد من شىء ، فقد بدأت القدرة على التفكير تعاودنى ببطء شديد فليكن ذلك الشىء هو المقاومة . بدأ الوعى يعود إلى عقلى كاملا ، وأنا أحاول أن أستجمع ذرات ذاتى المنسحقة تحت أكداس هائلة من التراكمات ، نعم لأحرك منى ذرة ، أو حتى خلية ، أو نأمة لأحاول أن أحرك منى إصبعا ، أو يدا ، أو ذراعا ، لأحاول .

وها أنذا أستجمع شتات إرادتى أوجهها كلها إلى ذراعى ذراعى اليمنى محاولا جهد الطاقة ، أن أحدث به هزة ما « أوه » لأحاول مرة أخرى ، وها أنذا أحاول أدفع بقوى كلها إلى يمينى ، هيا ، هيا يا يمينى ، « أووه » ، لا . لاياس ، قوى مرة أخرى « أووه » ، مرة أخرى أيضا « أوووه » ، نعم ، نعم ، هذا ، هذه هى ، هذه هى يمينى تتحرك ، هى تتحرك حركة حقيقية .

وبدأ الكثيب يتمطى ، ويتزحزح من فوق صدرى ، وأنا أشاهد تكويناته تتحرك ، كان كائنا ضخما رهيبا ، وكان للكثيب لدهشتى رأس ، وكان له وجه ، وأنا أحملق فى هذا الوجه ، ويبدو أنه كان وجه امرأة ما . رحت أعاود التطلع فيه ، رأيت أنه وجه امرأة ، امرأة أعرفها ، كانت ملامحه تشى إلى حد بعيد بملامح وجه هذه المرأة ، رأيت أن أدقق النظر ، فيما يقى فى متناولى ، من ملامحه ، الا أنه كان فى هذه الأونة قد ولى واختفى تماما .

أخيرا

وبعد مجاهدة مضنية ، تمكنت من أن أحرّر جسدى من كل أثر لذلك الثقل الهائل والجسد المعنّى يتوق الآن إلى ــ ولو للحظات ــ الراحة والنوم ، غير أنه صار الأونة يخشى ذلك تماما بقدر ما يتحرق شوقا إليه .

وبقيت فى فراشى راقدا ، أتقلب من جنب الى آخر ، حتى نمت إلى آذانى فى النهاية ، أصوات أطيار تغادر ، أوكارها ، فبزغ الهدوء فى قلبى ، وبدأ التوتر يزايلنى ، وخلايا جسدى تتجه تدريجيا نحو السكينة ، وشعيرات الأعصاب تمضى نحو الارتخاء ، وكان جسدى كله يدخل عبر غلالات الوسن الهلامية ، ثم يمضى إلى حالة من الاستغراق الكامل فى النوم .

كانت روحى هائمة لا تزال ، فى عوالم الوسن السحرية ، حينما كنت أنظر وأرانى أشير بسبابتى إلى لوحة ما ، كنت أقف بين لفيف من الأصدقاء ، وسط قاعة خاصة بعرض الأعمال التشكيلية ، إذ كنت ــ فيما يبدو ــ أقيم معرضا لأعمالى ، وكانت القاعة تزهو بلوحات تتألق بالقيم الفنية الرفيعة ، واحدة منها تلك اللوحة التى كنت أشير إليها بسبابتى ، وأنا أشعر أننى فى غاية الحبور ، لما حققه معرضى من نجاح ، وإقبال جماهيرى ليس له نظيره ، أصداء متوالية فى الصحافة ، كلها تعبر عن الاستحسان والانبهار ، وحتى أصدقائى أيضا ، كنت

أراهم يعبرون باندهاش عن مدى غبطتهم بأعمالى تلك ، وأسمعهم يلقون ناحيتى بفيض لا ينقطع من عبارات المديح والثناء .

إلا أننى كنت ، بالرغم من ذلك ، قلقا ، ذلك أن العهد لم يكن قد نأى بى كثيرا عن تلك الأيام ، التى كان هؤلاء الأصدقاء أنفسهم يتجهون فيها إلى بتساؤلاتهم ، ويكيلون لى انتقاداتهم ، يلقون بها وابلا فى وجهى ، ورأيتنى أفكر مع نفسى فى حيرة ، أن كيف يتهيأ أن يتغير الأمر بهذه السرعة ، ينتقل هكذا فجأة من النقيض إلى النقيض ، وسمعتنى أردد مع نفسى ، أن ذلك ربما يكون نوعا من الوهم ، أو حتى مجرد حلم من الأحلام .

وأفقت أخيرا ، وقبل أن ينتهى النهار ، كان جسدى قد حظى بقسط ضرورى من الارتياح ، وأنا أحس الآن بأننى فى حالة جسمية لا بأس بها .

ورأيت أن أخرج إلى نزهة قصيرة ، فى محاولة منى لتجديد ما أراه ، وما أفكر فيه ، وفى أثناء نزهتى كنت أفكر فيما رأيت ، فى تلك اللوحة التى كنت أشير إليها بسبابتى ، وفى ذلك المعرض الذى أقمته ، وفى ذلك النجاح الفريد ، الذى تحقق لى ، وكنت أقول مع نفسى ، إنه قد اتضح لى أخيرا ، أن ما حدث لم يكن ، على أى نحو من الأنحاء ، حقيقة ، بل هو مجرد حلم ، وأننى ما كنت إلا هاذيا ، وأن تلك الحقيقة التى أعرفها ما زالت تمثل أمامى بكل أبعادها .

قادتنى قدماى إلى حديقة مجاورة ، كانت الحياة هناك تجدد شبابها ، بعد أن انقشعت برودة الشتاء القاسية ، مع حلول شهر مارس ، فالليونة تسرى فى الجفاف ، واليبس يتحول إلى طراوة ، وأوراق الأشجار تنمو وتخضر ، وبراعم الأزهار تتفتح ، وجلست أرقب الأزهار ، تلك المخلوقات الصغيرة الساحرة ، كم هى عبقرية التكوين ، مرهفة الجمال ، ألوانها صافية تبعث البهجة فى النفس ، أريجها فواح يبعث الانتعاش والأمل فى الوجدان .

كنت أتطلع نحو هذه الأزهار ، أملأ حنايا النفس من جمالها ، أستنشق بارتياح عبيرها ، وكنت أردد مع نفسى بأننى يجب على أن آخذ العبرة من هذه الحياة ، تلك التى تجدد نفسها على الدوام ، نعم يجب على ألا أستسلم ليأس ، لن أستسلم للواقع ، مهما كانت قسوة ذلك الواقع ، ويجب على أن أبدأ العمل منذ اليوم ، بل منذ الآن ، من أجل تحويل رؤى المنامية إلى حقيقة .

راح الظلام يرخى سدوله ، والمصابيح تضاء تدريجيا ، تحركت مزمعا العودة ، وما أن دخلت الى مسكنى ، حتى اتجهت على الفور الى مرسمى ، وأخرجت ورقة وقلما ، وبدأت أرسم ، رحت أصور على الورق ، ملامح مشروع جديد ، لوحة قادمة . وكان الليل قد أقبل بالفعل ، وهدأ الكون ، وسكنت كل الأشياء من حولى ، وحتى زوجتى كانت قد هجعت ، وأمسى الجو مناسبا العمل . نشطت علقت اللوحة بالحامل ، أحضرت الأدوات ، أعددت الألوان وبدأت . والمشهد الذى بدأت تشكيله يمثل جانبا من حديقة ، يتوسطه وجه لفتاة فى ربيع العمر ، يفيض شبابا وجمالا ، يشرق بابتسامة ساحرة ، والأزهار من حوله ، تكوينات بديعة ، ألوان بهيجة ، أزهار فى ريعان الربيع ، تحوى كل زهرة منها ، فى صميم تكوينها ، نمنمات تمثل انعكاسا مرئيا لملامح وجه الفتاة ، فى كل زهرة وجه مبتسم .

وساعات الليل تمضى ، وأنا منهمك فى عملى ، غارق فيه ، رسمت الوجه الفاتن ، ذوب من الحلاوة والعذوبة والشاعرية ، تجمعت فى صورة وجه ، عينان تركز فيهما كل سحر الكون ورقته ووداعته ، أنف جميل متناسق التكوين ، شفتان قرمزيتان ، تبتسمان فى عذوبة ، تنفرجان ، فتكشفان عن صفين نضيدين من أسنان فى لون ضوء الصباح .

ابتسامة ابتسامة فى وجه الربيع .

إلا أننى كنت فى هذه الأثناء قد سمعت بعض صوت ، لم يلبث أن تحور إلى أصداء حركة ما ، ثم إذا به وقد تبلور إلى حفيف ثياب تتحرك ، فتقترب ناحيتى ، يبدو أن هذه المرأة قد تيقظت ، وجاءت لتقطع على وحدتى ، خلوتى فى محراب الأثير .

جاءت ، وقفت فى مواجهتى ، قالت إنها تراقى ساهرا أرسم ، سألتها عما أيقظها ، لكنها تابعت « هى لوحة جديدة ! » ، راحت تحدق فى اللوحة طويلا ثم أردفت تقول ،

ـ نفس العينين .

ـ أى عينين ؟

ـ سبق لك أن رسمت نفس الملامح فى لوحتك السابقة .

رأيت أن أتظاهر بالانهماك ، قلت بدون اكتراث

ـ ربما

ـ وجه من هو ؟ ألست أعرف له صاحبة !

ـ سليها ربما أجابتك هى .

ـ ألا تريد أن تخبرنى أنت ؟

ـ ليست له صاحبة بعينها .

ـ بل له صاحبة بنفس هاتين العينين

رأيت أن أعالج الأمر بلباقة ، قلت فى هدوء .

ـ كيف ؟

ـ هو ذاك . . . وهى تلح عليك فى أفكارك .

ـ أحقا ؟

ـ فى يقظتك وفى منامك .

ـ أتكاشفين أفكارى فى يقظتى وفى منامى ؟

ـ هل أخبرك بما هو أكثر ؟

قلت فى سخرية بادية

ـ ماذا أيضا ؟

ـ اسمها

ـ وكيف عرفتيه !

ـ سمعتك تردده وأنت نائم ؟

ضحكت وقلت

ـ وما هو

- « منى »

بدأت أتضاحك ، إلا أنها راحت تتهمنى صراحة بأننى أحب « منى » تلك . رددت أن ما تقوله هراء ، وسألتها فى رقة أن تمضى إلى فراشها وتنام ، لكنها رفضت ، وأصرت على اتهامها تفجرت ينابيع الغضب فى قلبى ، فصحت فى وجهها أن تصمت غير أن صوتها راح يزداد حدة ، وهى تطلب منى أن أعترف وبأنه لا فائدة ترجى من الإنكار .

فى هذه الأثناء كانت ترد إلى مسامعى أصوات نوافذ تفتح فتصطك بالجدارن ، وكان باستطاعتى أن أرى من النافذة المفتوحة ظلمة الشارع الداكنة تتحول إلى ضياء تدريجى ، وهى ، هذه المرأة . بالرغم من ذلك لا تزال تصيح .

- اعترف

- بماذا ؟

- بأنك تحبها

- إذن أنا أحبها .

تقدمت نحو النافذة ، نظرت إلى الخارج ، كانت النوافذ تفتح ما تزال ، والضياء يزداد انتشارا ، ورؤوس كثيرة ورقاب وأنصاف أبدان تطل من النوافذ يزداد عددها بين لحظة وأخرى ، بل إننى بدأت ألمح بعض الصور الآدمية وقد بدأت تظهر فى أرض الشارع ، ثم تتزايد تلقائيا مع تتابع اللحظات ، كنت مهتاج النفس فقد كان كل هؤلاء الآدميين ، ينظرون ناحيتى بوجوه مستفسرة ، رحت أنا بدورى أتطلع نحوهم ، وسرعان ما بدأت أتحدث :

- أيها الناس

- ؟؟؟ ، ؟؟؟

- أيها الناس . . هل استيقظتم جميعا . . هل أفقتم من خدر الوسن وأحلامه ؟ . . فأنا أريدكم جميعا أيها الأصدقاء . . وبلا استثناء لتستمعوا إلىّ . . . ولتكونوا شهداء على ما أقول . . فالحب . . كما تعرفون . . ريحانة هذه الحياة . . فرجة الأمل الوحيدة . . فى سماء هذه الدنيا الأرضية . . واحتنا الريانة الظليلة . . وسط هجير ذلك الكون . . فكلنا أيها الأعزاء نحب . . وأنا أيضا أحب . . نعم أحبها . . أنا أحب « منى » فهل تعرفون حبيبتى . . هل تعرفون « منال » ؟

ووجدت نفسى أهيم فرحا ، بل إنها راحت تتطاير منى شعاعا طيفى الألوان ، من بهجة ما بدأ يصافح مسامعى من أنغام ، كانوا جميعا يرددون فى وقت واحد ، فى صوت واحد ، وكأنهم يقرأون من كتاب مفتوح :

- ذوب من الحلاوة والعذوبة والشاعرية ، تجمعت فى صورة وجه ، عينان تركز فيهما كل سحر الكون ورقته ووداعته ، أنف جميل متناسق التكوين شفتان قرمزيتان ، تبتسمان فى عذوبة ، تنفرجان ، فتكشفان عن صفين نضيدين من أسنان فى لون ضوء الصباح .

القاهرة : محمد حجاج

هشام قاسم

قصة | صباح الخير

إنه . . صباح جميل ، صباح الخير . الحياة تمضى ويمضى معها الناس . يوم جديد يبدأ فى تلك الحارة . كل شىء يحدث فى موعده كأنما تحكمه ساعة كونية تنتقى الحوادث وترتبها متناسقة واحدة وراء الأخرى فتلضمها بخيط رفيع من الزمن . لقطة وراء لقطة تدور كلألىء فى مسبحة الزمان .

عندما تهم الشمس بفرش أشعتها وتلمع الحارة بلون فضى يقوم شوقى بفتح مطعمه . يوقد النار تحت الزيت ويتنشر صوت اشتعال الموقد فى فضاء الحارة الساكن ، فيتنبه أهلها أن ليل النوم قد انتهى وأن يوما جديدا يهل . بعدها بنصف ساعة يقوم سعيد اللبان بفتح محله ويبدأ فى إعداد قدره ، وتقف عربة الخضار أمام دكان عم عطا الله الخضرى ويلقى صاحبها جوالات الخضار على الأرض . ثم يفتح عم ياسين بقالته وتلحق به عربة العيش فيستلم أقفاص الخبز ، ويزدحم الأطفال والرجال على مطعم شوقى ويتعاركون على شراء الفول والفلافل ، هكذا تتابع حركة أكل العيش .

ثم تدب أمواج الحياة بالمنازل ، وضوء فصلاة ، إعداد الإفطار فتناوله ، إعداد الأولاد للذهاب إلى مدارسهم . ثم يرتدى الرجال أرديتهم ويتهيأون للخروج ، وست البيت كالنحلة تدور هنا وهناك . . . .

منذ الساعة السابعة تبدأ طوابير الحياة تنتقل إلى الحارة أولاد الحارة يفرشون الشارع وهم فى طريقهم إلى المدرسة ، والطالبات يتجمعن كخلايا صغيرة أثناء سيرهن . الموظفون يحثون الخطا نحو أعمالهم . . ويبدأ صباح الحارة فى الهدوء بعد ذلك .

. . . . لكن الصباح يمر دون أن تنادى الحاجة نبوية على شوقى ليضع لها الفول بالسبت . ماذا جرى ؟ . . انفك عقد الزمان وضاعت تلك اللقطة من سلسلته ؟

عندما تدق الساعة الثامنة صباحا تنادى الحاجة نبوية من نافذة حجرتها بالدور الثانى على شوقى :

– يا شوقى . . يا شوقى حُط لى بشلن فول . مع أنه ليس فى هذا الزمن شىء بشلن !

تعيد الحاجة نبوية نداءها عدة مرات بألفاظ تاهت معالمها لتقدمها فى العمر فقد تجاوزت الخامسة والسبعين منذ زمن . وبعد فترة يرد عليها شوقى وهو يداعبها مقلداً طريقة كلامها بينما تلعنه وتسبه لتأخره عليها .

فإذا قلت كمية الفول التى يضعها لها بالطبق أنزلت السبت من جديد ونادت عليه وهى تكيل له الشتائم « بشلن يا مغفل مش بقرش صاغ » .

ويزيد من الكمية وهو منهمك فى الضحك فهو لا يعبأ بالثمن الذى تدفعه . بعد أن تنتهى من شراء الفول وتنادى على عم عطا الله الخضرى لتطلب خضار الغداء ، فإن لم يكن على قد مواصفاتها أعادت نزول السبت من جديد ونادت عليه ليبد له . ويتلقى منها هو الآخر وابلاً من الشتائم .

ثم تنادى على عم ياسين البقال . هكذا تظل الحاجة نبوية بمسكنها لا تغادره إلا للضرورة ، وتكون نافذة حجرتها التى على الشارع وسيلة اتصالها الوحيد . بالعالم الخارجى . تبدأ فى إزاحة الستار عنها فى الثامنة صباحا تماما وتحكم غلقها بعد أن تقتنى جميع مشترياتها ولا تعيد فتحها إلا فى صباح اليوم التالى . ولا يعرف أحد كيف تقضى بقية اليوم وهى تعيش بمفردها بعد أن رحل رفيق العمر وتبعثر الأولاد من حولها ، فلا هى تذهب إلى أحد ولا أحد يزورها .

عندما مرت الساعة الثامنة فى ذلك الصباح ولم تناد الحاجة نبوية على شوقى أصابه اضطراب وأرسل صبيه إلى شقتها ليتبين الأمر . وعندما مرت الساعة الثامنة والربع ولم تناد على عم عطا الله الخضرى انقبض القلب وذهب الى شوقى ليطمئن ، ولحق به عم ياسين عندما مرت الساعة الثامنة والنصف .

عاد صبى شوقى وأخبرهم بأنه لم يتلق استجابة على نقره باب الشقة . تبادل الثلاثة النظرات لوهلة وقرروا الصعود إليها .

ولكن عندما وصلوا الدور الأول تسمرت أرجلهم ولم يستطيعوا نقل خطواتهم خطوة واحدة فتراجعوا عن إكمال صعودهم إلى شقتها بالدور الثانى وقالوا لعل غفوة النوم قد طالت معها اليوم .

وفى اليوم التالى : قالوا : لعل واحداً من أولادها قد اشترى لها احتياجاتها فلم تناد .

وفى اليوم التالى قالوا : لعل لديها فائضاً من الطعام فلماذا تنادى إذن ؟

حتى اليوم لا يعرف أحد ما جرى للحاجة نبوية فكلهم يهابون الصعود إليها .

لكن هل حدث عطب بساعة الكون حتى لا تمر عقاربها على خروج الحاجة نبوية من خلف النافذة ؟ بالتأكيد اضطربت دقات الساعة فى صباح الحارة . . صباح الخير .

القاهرة : هشام قاسم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مسرحية

حيوانات الليل

مسرحية شعرية من فصل واحد

محمد فريد أبو سعده

كرسى خشبي مستطيل فى حديقةٍ عامة .. شجرة .. الوقت عصراً .. الفتاة جالسة على الكرسى وظهرها للجمهور .. تنتظر فى قلق شخصاً ما .

يدخل « راغب » فى العقد الخامس .. نحيفاً .. خفيف الحركة .. أشيب الشعر .. ملابسه غريبة وفوضوية .. يتوقف مستندا على الشجرة ويبدو أنه يتمتم بكلمات ما .. ثم يكتشف الفتاة فيقترب منها » .

راغب : عفواً ياسيدتى
هل يمكنُ لعجوزٍ مثلى أن يجلسْ

هند : (توسع له مكاناً)

راغب : شكراً (بعد فترة صمت يُلاحظ فيها قلق الفتاة)
يحدثُ أحياناً
أنْ نخشى بعضَ الناسْ
نتخوفُ مِنْ هيبتِهمْ
أو نتوجسُ من بعضِ الكلماتِ أو الأفعالْ
ويزيدُ توترُنَا حينَ يكونُ علينا
أن نُمضى بعضَ الوقتِ معَ الأغرابُ
هذا ما يحدثُ لِى (صمت)
هل هذا أيضاً .. يحدثُ لكْ ؟

هند : (قلقة وبدون رغبة فى الحديث)
أحياناً

راغب : أحياناً .. هذا معقولٌ جداً (الفتاة تبتعد قليلا بلباقة)
هل يحدثُ هذا الآنْ ؟

هند : كَلاَّ

راغب : كلاَّ ؟ (مندهشا)

هند : أقصدُ بعضَ الشىء (تحاول القراءة فى مجلة معها)

راغب : مفهومٌ .. مفهومٌ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(يحاول اشعال الغليون ويفلح أخيرا)

هذا وقتٌ طيبْ
فى هذا الزمنِ يكونُ الوقتُ جميلاً
حين نفرُّ من الأبنيةِ الصَّمَّاءْ
ما أجملَ ملمسَ هذا العُشْبْ !
ما أجملَ تلك النسمةَ وَهْىَ تُماحِكُ
شعرَ امرأةٍ حسناءْ
امرأة تقرأ
ما أجملَ هذا التبغْ !
لا يمكنُ للرجلِ العاقلِ أنْ يَتَحَمَّل
تلكَ الأبنيةَ الخرساءْ

(الفتاة تراقبه خلسة وهى تصطنع الانغماس فى القراءة . .

يقف راغب ويدور ببطء حول الكرسى وقد شَبَّك يديه خلف ظهره ويرتفع صوته قليلا مدندناً بأغنية قديمة)

أقولُ وقد ناحتْ بقربى حمامةٌ
أيا جارتا لو تعلمينَ بحالى
أيضحكُ مأسورٌ وتبكى طليقةٌ
ويضحكُ محزونٌ ويندبُ سالى !

(يجلس ثم يكتشف خيطا نابياً من بنطاله فيشعل عودا من الثقاب ويحرق الخيط بينما هند تراقبه وقد زايلها القلق منه وحل محله الفضول ويلوح على شفتيها شبح ابتسامة . . يكتشف هذا راغب فجأة)

راغب : علَّمَنى ذلكَ يَحْيَى
هند : يَحْيَى ؟
راغب : حزنٌ مختومٌ فوقَ القلبْ
ماذا تقرأُ سيدتى ؟

هند : (وقد أُخِذَتْ) أبداً . . أخبارَ السفَّاحْ
راغب : السفاحْ ؟ . معقولٌ جداً (تعود الفتاة إلى الصمت)
هل تقلقُ سيدتى مِنِّى ؟
هند : أبداً
راغب : فلماذا الهربُ إذنْ ؟
هند : أهربْ ! (مندهشة) أهربُ مِمَّنْ ؟
راغب : مِنْ شىءٍ ما
طبعاً . . طبعاً
لا يمكنُ أنْ تأتى امرأةٌ وتمدَّدَ رجليها فى العشبِ
لتقرأ اخبارَ السفاحْ
هند : حقّاً
إنى أنتظرُ خطيبى
راغب : (بسعادة وهو يصفق)
معقولْ . . معقولٌ جداً
سيدةٌ فى مثلِ جمالِكِ لا يمكنُ أن تهربْ
بل تجلس حتى يأتى رجلٌ ما
هذا معقولٌ جدا
أنا أيضاً
فى الزمنِ الماضى كانتْ لى سيدةٌ رائعةٌ
كنا لا نجلسُ فوقَ المقعدِ أبداً . .
أبداً
بل نجلسُ فوقَ الخضرةْ
كانت تستندُ إلى تلك الشجرةْ
وأنا
كنتُ أنامُ على ساقَيْهَا كالطفلِ
أُدخنُ غليُونى
وتُغَنِّى لِى (يمثل المشهد أمام الفتاة)
لا أذكرُ تلكَ الأُغْنِيَةَ الآنْ . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هند : (وقد زايلها القلق وصارت تبتسم لكل ما يحدث)
إنه لم يجيء بعدُ !

راغب : لن يجدَ امرأةً مثلَكِ فى العالَم

هند : غزلٌ أمْ إطْرَاءْ ؟

راغب : كانتْ تتعرَّى لِى

هند : (مأخوذة) أرجوكْ !

راغب : (متوجها لها وقد نزع قبضة من العشب)
هل تدركُ سيدتى كم يصبحُ هذا العشبُ طَرِيّاً
وَنَدِيّاً فى الليلْ فى الظلمةِ حينَ نكونُ وحيدَيْنِ وعُرْيانَيْنْ ؟
(يلقى على حجرها بقبضة العشب وينحنى ليقبض أخرى بينما تنتفض واقفة وتهم بالابتعاد)

هند : أرجوكْ .. لا تتكلَّم .. لستُ امرأتكْ

راغب : (متلطفا معها)
هذا زمَنٌ وَلَّى
عندما كنتُ فَحْلاً يتوقُ لكلِّ النساءِ
ولكنها رَوَّضَتْنِى
وصرتُ لها وحدها (بألم)
ثم ضاعتْ وجاءَ الزمانُ الرجيمْ

هند : (تعود وتجلس هما الآن متخالفان على المعقد)
لِمَ غابْ
لن أبقى أكثرَ مِنْ ذلكْ

راغب : كانت تنتظرُ إذا ما غبتْ

هند : اختارَ السفرَ وخلَّفَنِى وحدى

راغب : كانت تتفجَّرُ ضحكاً حتى تسقطَ فوقَ العشبْ
كوماً من عطرْ

هند : ضيَّعَ أحلامى فى (البيت)

راغب : كانت رائعةً حين تنامُ وتلعقُ صدرى كالقطةْ

هند : لا يمكنُ أن نبقى فى الشارع طولَ الوقتْ

راغب : وتحبُّ السهرَ وتصنعُ أوهاماً وتقولُ العالمُ حُلْمْ

هند : الوقتُ يمرْ

راغب : العمرُ يمرْ

هند : الحبُّ يمرُّ ولا يتبقَّى غيرُ التوبيخِ اليومىْ
مِنْ أمى أو زوج أمى

راغب : هَجَرَتْ أبَوَيْهَا من أجلى

هند : (تقف فجأة بنفاد صبر)
لن أصبرَ أكثرَ من ذلك !

راغب : (ينتبه إلى وقوفها المفاجىء)
ما بكِ ياسيدتى ؟

هند : لا شىء
لا شَىْءْ
إنى ذاهبةٌ وَكَفَى

راغب : للفخِّ المنصوبْ
للعمر الضائعْ ؟

هند : لا تَسْلَنى فأنا لا أدرى .. لا أدرى

راغب : أعرفُ أنك تمتلئينَ بهذا الهَمِّ العامْ
فلنجلسْ

هند : نجلسْ !

راغب : ولنقطعْ هذا الوقتَ السَّىْءْ

هند : الوقتُ الفخْ
دَعنى . انى متعبةٌ ياسيِّدْ

راغب : « راغبْ » هذا إسمى

هند : وأنا إسمى هند

راغب : اسمٌ طيِّب

هند : لكنى سيئةُ الحظْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

راغب : ياسيدتى
نحن نعيشُ على أوهامْ
كلٌّ منا يتخيرُ وهماً ويعيشُ بِهِ أوْ لَهْ
فإذا غيَّرْنَا الأوهامْ
أمكننا أن نتغيرَ أيضا

هند : أوهامْ ؟ (مندهشة وهى تجلس)

راغب : هذا رأيى

هند : لا أدرى . . لكنى

راغب : عفواً
تتغيرُ نظرتُنا للعالمِ حَسْبَ الوهمِ المختارْ

هند : لم أسمعْ هذا مِنْ قبلْ
إنك تبهرُنى ياسيد راغبْ

راغب : هل تعرفُ سيدتِ ليلَ الحيوانات ؟

هند : ماذا ؟

راغب : تلك حديقتُهُمْ (يشير إلى مكان خارج المسرح)

هند : أعرفْ

راغب : هل تهوَى سيدتى رؤيةَ تلكَ الحيواناتْ

هند : طبعاً

راغب : فى الليلْ ؟

هند : (باستنكار ودهشة) ندخلُ فى الليلْ ؟

راغب : بالضبطْ

هند : (تبتعد قليلا فى خوف) لابد وأنكَ مجنونْ !

راغب : أتصدِّقُ سيدتى ما تبصرُ من أحوال الحيواناتْ

هند : لا أفهم

راغب : هذا معقولٌ . . معقولٌ جداً

هند : كيفْ

راغب : لا يمكنُ لامرأةٍ مثلِكِ أن تعرفَ أنَّ الحيواناتِ نهاراً
غيرُ الحيواناتِ إذا هبطَ الليلْ

هند : لا أفهْم . . لا أفهمْ

راغب : لكنى ياسيدتى أفهمْ
فأنا جرَّبت الظلمةَ والصمتَ مع الحيوانْ
إذ يصبحُ هذا الليلُ رماداً يهبطُ شيئاً شيئا
حتى نغرقَ فيه ويصبحَ للنأمةِ والصوتِ مذاقٌ آخر
ياسيدتى . . قد شاهدتُ الرعبَ وموتَ الرغبةِ فى عَينِ الحيوانِ المأسُور . .
الصوتُ المتحشرجُ يصبح همهمةً ونداءً محموماً لفضاءٍ أوسعْ . . فى جهةٍ ما .
تصبحُ تلك الأقفاصُ يداً هائلةً للقنَّاصِينَ الظَّلَمَةْ

هند : شىءٌ مدهشْ !

راغب : أتقاسمُ مَعَهُ هَمّى
منتمياً للصدقِ وللحزنِ وللشوقِ العارمِ للحَرِيَّة
آهٍ . . لو تبصرُ سيدتى هذى العينْ
العينُ المشتاقةُ للكونِ جميعاً
للجَرْىِ وللقنصِ وكسرِ الأقفاصْ
العينُ الحالمةُ بشىءٍ
أبعدَ من هذا العالمْ
العينُ المتوحشةُ البريَّةْ

هند : (تقوم من على المقعد وتجلس على العشب وهو بتردد يضع رأسه على فخذها ويدخن غليونه)
لكنى لا أعرفُ شيئاً عنكْ

راغب : عَنِّى ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هل تعرفُ سيدتى شيئاً عن هذا العالمْ ؟

هند : طبعاً بعض الأشياء

راغب : أنا جزءٌ من هذا العالمْ

هند : لم أفهمْ

راغب : كَىْ نبقى فى العالمِ سعداءْ
لابد لنا من بعضِ الفهمِ
وهذا يكفى

هند : حقاً (تنتبه إلى تأخرها)
هاأنتَ تؤخرُنِى

راغب : البيتْ

هند : (فى هم واضح) الفخ

راغب : ولماذا لا تبقينَ معى ؟

هند : أينْ ؟

راغب : فى هذا العشبِ الرائع

هند : فى العشبْ ؟

راغب : مع تعديلِ الوهمْ

هند : (حالمة حتى نهاية المسرحية)
الوهمْ ؟

راغب : يصبح هذا العشبُ الرائعُ بيتاً

هند : بيتاً !

راغب : واذا ما جاءَ الليلْ

هند : الليلْ !

راغب : نتسلقُ سورَ حديقتِهِمْ
نتجولُ بينَ الحيواناتْ

هند : الحيواناتْ !

راغب : خلفَ السورِ العشبُ ونورُ البدرِ
وَفَرحٌ بالحريّةْ

هند : الحريةْ !

راغب : نتسمّعُ تلكَ الأنفاسَ ونبصرُ عينَ الحيوانْ

هند : عينَ الحيوان !

راغب : (يقوم ويرقص حول المقعد الخشبى وحول هند والشجرة بينما هى تضحك وتضحك ثم تنتحب بشدة .. فترة صمت يحل فيها الظلام تماما ولا نرى أحدا أو شيئا على المسرح)

صوت راغب : هيًا

صوت هند : هيا

صوت راغب : ليلٌ رائعْ

صوت هند : رجلٌ رائعْ

صوت راغب : ما أجملَ تلك اللحظةَ ياهند !

صوت هند : فلنمسكْ بالعمرِ الهاربْ

صوت راغب : هذا السور

صوت هند : احلْنى

صوت راغب : هيًا

(صوت سقوط جسم .. تأوه وضحكات)

جلدة : محمد فريد أبو سعدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

غنائيات أحمد الرشيدى

محمود بقشيش

- ولد بمدينة القاهرة عام ١٩٣٤
- تخرج فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة (القسم الحر)
- اشترك فى جميع دورات المعرض العام ، وجمعية فنانى الغورى ، ومعرض الربيع ، واشترك فى بينالى الاسكندرية الرابع عام ١٩٦١ ، ومن المعارض الدولية : بينالى فرنسا الدولى الرابع ، كما اشترك فى العديد من المعارض المصرية بالخارج منها : معرض الفن المصرى فى « الجراند باليه » بباريس عام ١٩٧٦ ، والفن المصرى المعاصر فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٦ .
- أقام ١٢ معرضاً فردياً حتى الآن .
- قام بالعديد بالرحلات الداخلية ، والخارجية
- عضو بمراسم الفنانين بوكالة الغورى حيث يوجد مرسمه الخاص .

مدخل :

المفردة الرئيسية فى قاموس الفنان « أحمد الرشيدى » ، والتى التصق بها هى المرأة ، وبالتحديد وجهها ، وهو وجه « قناعى » لا يمت لامرأة بعينها بقدر ما يرمز به لكيان أكبر : ربما كان الوطن ، شأنه فى ذلك شأن « محمود مختار » ـ الأب الروحى للحركة التشكيلية المصرية المعاصرة ـ الذى جسّد مفهوماً للوطن بواسطة عنصر المرأة الريفيه ، المهجّنة من ملامح فرعونية ، وملامح رومانية ، وحباها بالجمال ، والصحة ، والعافية ، ليُقيم الجسور ـ من وجهة نظره ـ بين الموروث القديم ، والإنجاز المعاصر . لكن فى حين نحت « مختار » وجوها إنسانية تنتمى إلى فن (البورترية) لا يعدّ « الرشيدى » من رسامى هذا الفن ، أمثال أحمد صبرى ، وبيكار ، وعز الدين حموده ، وصبرى راغب ، وجمال كامل ، لأنه لا يتوقف عند وجه بعينه فى محاولة اكتشاف إمكاناته الجمالية ، والتعبيرية ، وعندما يضطر إلى ذلك سرعان ما يلوذ بوجهه المستعار ، ثابت الملامح ، الذى يُغنى الفنان عن التوقيع على لوحته إذا شاء . ولو تأملنا تلك الوجوه القناعية عبر تاريخ الحركة التشكيلية المصرية فسنرى اختلافات عميقة بينها ، تكشف عن « أوطان » لا وطن واحد ، متباينة فى مستواها الطبقى ، والحضارى ، كما تتمايز فى أشواقها المستقبلية ، استعار « الرشيدى » لامرأته (سواء كانت مجرد امرأة ، أو رمزاً لكيان أكبر) وجهاً فرعونيا وجعل لها عينين شديدتين الاتساع ، لا تنظران إلى شىء بل تسحبان المتلقى إلى إعتامها الداخلى المبهم . تتألق بالزينة . تكشف بحذر عن مفاتنها .

●

إن لوحاته تفصح عن انحياز صريح إلى المرأة » ، ونبذ صريح لعالم الرجل . يحتشد لها بالألوان الساخنة ، والخطوط اللدنة ، المقوسة ، والمتموجة ، والمسترسلة ، ويلحّ إلحاحاً لا يعرف الملل على إحاطتها بجوٍ مسالم ، لا يعرف غير الوئام والسكينة ، ويزيّنها بالحلى والزخارف ، ويجمّلها بالمساحيق لتكون متعة للعين . قد يتسلل بين الحين والحين منظر طبيعى مؤلف ، لكسر الرتابة غير أنه سرعان ما نكتشف أن معظم تلك المناظر كانت مجرد ذرائع يتذرع بها لتتويج رحلة نهرية لشبحى عاشقين .

إن العين لا تخطىء التعرف على لوحات « الرشيدى » فى أى معرض ، وكذلك لا تخطىء التعرف على منابعه ، فهو يستلهم بعض ملامح الفن الفرعونى ، والزخارف الشعبية ، ويغوص فى الموضوعات الأليفة ، وإذا كان (الرشيدى) يشارك

العديد من الفنانين المصريين فى استلهام الموروث الفنى ، فإنه يتوجه بزاده إلى دائرة التجميل ، ونشدان الراحة ، وتسكين الآلام !

●

من ثوابت الفنان أيضاً ، تمكنه بالألوان الساخنة ، وانصرافه الكلى منذ سنوات عن الألوان الباردة ، وفى لقاء معه فسّر لى هذا التعلق بأنه يرى أن تلك الألوان مصرية ، وهذا رأى عديد من نقاده ، وإن كنت أختلف معهم ، وأرى فى إجابتهم نوعاً من التبسيط ، فلو أخترنا ثلاثة مناطق من مصر ، مثل القاهرة ، وسيوه ، ومرسى مطروح فسنجد فروقاً شاسعة فى اللون ، ففى حين يغطى الغطاء الترابى « القاهرة » ، ويطمس إشعاع اللون [وهذا ما لم يلحظه الفنانون التأثريون المصريون أمثال يوسف كامل ، وحسنى البنانى] ، ويغطى لون الصحراء الأصفر أحراش « سيوه » تظهر الألوان صريحة نقية فى « مرسى مطروح » ، فأى لون فى الثلاثة هو اللون المصرى ؟ . رمادية القاهرة ، أم صفرة سيوه ، أم صفاء ، وصراحة مرسى مطروح ؟ إن « الرشيدى » بطبيعة الحال ليس فناناً تأثرياً تشغله متغيرات الجو ، واللون فى الطبيعة وربما تعلق بمفرداته اللونية لأنه أحبها ، أو اقتنع بها ، وزادت ثباتاً بآراء نقاده . !

●

لنتأمل الآن مجموعة من لوحات معرضه الأخير الذى أقيم بقاعة السلام بالزمالك ، واخترت لها عناوين وصفية حتى يسهل متابعتها . ولنبدأ بالثنائيات ، وأولها لوحة بعنوان [امرأتان وفنجانان من القهوة] واللوحة تتسم ببساطة التكوين ، شأن باقى لوحاته ، وكالعادة ، تتسيد امرأتان اللوحة . تتماثلان فى ملامح الوجهين إلى حد التطابق ، وتلتحمان عن طريق الخطوط الخارجية المؤطرة ، والخطوط الداخلية ، فالخط الواحد يرسم حدود امرأة ، ويمتد ليكمل بعض أعضاء الأخرى ، ويحكم دائرة الالتحام بين الاثنتين ، ويشكل منهما كياناً واحداً متعدد الأطراف ، ويطلى مواقع الزينة فى الأذن ، والرسغ ، والشعر بطلاء أصفر صريح ، يشكّل به الأقراط ، والأساور ، ومناديل الشعر ، التى تكون بدورها نقاط ارتكاز ، لدائرة وهمية ، تسهم بدور تأكيدى على التحام كيانى المرأتين ، وتقوم العناصر الأخرى بأدوار تكميلية . ولأن « الرشيدى » يحرص على تقديم عالم يسوده الوئام ، فإنه يسعى دوماً إلى تجميع الشتات فى وحدة واحدة ، تنطق بوحدة الوجود ، كما يراها ، فيخلق نوعاً من التحالف ، أو الحوار الخاص بين أبسط الأشياء (فى الواقع) وأضخمها ، وربما انحاز إلى أبسطها ، كذلك الحوار بين طبق القهوة كامل الاستدارة ، ودائرة الشمس الصفراء ، فكلاهما يحتل طرفاً من أطراف اللوحة (الشمس أعلا اللوحة ، والطبق أسفلها) وعلى استقامة واحدة تنصّف المرأتين . وكما تبارك الشمس ونام السيدتين أمام القهوة ، لا تبخل فروع النبات بالمشاركة فى الترحيب بهما عن طريق إيقاع خطوط فروعه المموجة ، التى تتردد ، كالصدى ، مع الخط المموج الذى يؤطر رأسى السيدتين . ويبدو أن الفنان قد لاحظ أنه بالغ فى استخدام الخطوط المقوسة ، والمموجة ، واللينة ، فأقام حاجزاً طولياً تعلوه مشربية ، نطالع فيها ما تسمح به من أصداء فروع النبات . على الرغم من أنه اختار عناصر محددة ، ومبرراً واحداً ظاهراً (سيدتان تجلسان ، مع أدوات القهوة) وأن طبيعة هذا الاختيار تجيز الطابع السكونى . . على الرغم من ذلك استطاع أن يخلق نوعاً من الحركة (مستعارة من الفن الفرعونى ، ويطلق عليها الحركة الداخلية) ففى الوقت الذى أوجد فيه خطوطاً للربط بين الكتلتين ـ كما اشرت من قبل ـ يخلق محاور أخرى (داخلية) أهمها المحورين اللذين تشكلهما حركة الأيدى مع غطاء الرأس . ويقاومان الالتحام ، أما الوجهان فتكفى نظرة واحدة كى يكتشف المتلقى أن كل وجه غارق فى ذاته . . . بلا حزن ، أو فرح ، ينتظران شيئاً ما . . ربما تكشف عنه قراءة الفنجان ! . . ومع ذلك فهو لا يتركنا فى الفراغ ، بل يترك لنا مفاتيح الاكتشاف ، ويضعنا موضع قارئة الفنجان ! . . فتلك الشفاه الممتلئة ، الشبقة ، والعيون المليئة بالأسرار ، والقد الرشيق اللدن ، ألا توحى لنا بشوق الاكتمال بذلك الغائب دائماً عن اللوحات : الرجل ؟!

●

تتحمل العينان . . ثم الشفتان ، فى لوحات « الرشيدى » ، عبء المواجهة مع المتلقى ، بينما تختفى أو تندغم الأطراف ، ويكشف تحوير شخوصه عن ميل إلى الفطرية ، أملته عليه ـ فيما أعتقد ـ قدراته لا اختياراته ، وعلى أية حال فقد أعطت انجازات الفن المعاصر مشروعية فى قبول والاستمتاع بالتحوير الفطرى . وشخوص « الرشيدى » تتسم بالرشاقة ، والسلاسة ، والحلاوة لا الجمال ، تخلو من التفاصيل إلا من قليل من الزخارف الشعبية ، وقليل من العمق ـ البعد الثالث ـ وهو يعطى الإيحاء بالتجسيم عن طريق تضييب الخطوط الخارجية ، وإكساب بعضها بعض الظلال للإيحاء بالاستدارة . ومن هنا فقد أعفى نفسه من شروط المنظور ، فيحّرف ما شاء من العناصر لتتسق تشكيلياً . وتعبيرياً ، ويسهم شكل الملمس الخشن ـ أحد ثوابت الفنان ـ فى خلق الإيحاء بالرسم الجدارى . وهو يجهز لوحاته فى البداية بعجائن كثيفة ، وبتلقائية ، يسكين اللون ، بينما يكون الغطاء المرسوم أقل كثافة ، وغالباً ، شفافا يسمح بظهور حركة العجينة ، فيستغلها فى استخراج إيحاءات زخرفية .

●

[امرأتان ، وطبق من الفاكهة]

هذه اللوحة أكثر بساطة ، وإحكاماً فى نفس الوقت من سابقتها ، فقد أوجد درجات سلّم تصعد به العين عبر دائرة طبق الفاكهة ، الذى تحضنه ، باعتزاز ، ـ لتقل « فتاة » ـ وتستقر عند جرّة على رأس « سيدة » تقف فى الجانب الآخر من اللوحة ، وتقفل التكوين ، لترتد العين من جديد إلى إيقاعات خطية تماثل إطار الجرّة . وتقوم الأذرع ، والأساور الصفراء بتشكيل مثلثات وهمية ، ويقوم « الخط » المؤطر هذه المرة ، وبالتحديد فى المنطقة الفاصلة بين « السيدة » ، و « الفتاة » ، برسم حدود كل منهما ، وقد كلفه هذا الخط إظهار واحدة منهما ممتلئة بالحمل ، وإمالة « الفتاة » نحو « السيدة » ، وإلقاء ظل

مائل يتصل إيحائياً بيد « السيدة » لإحداث التوازن ، ومقاومة الملل الذى كان لابد أن يحدث عند القاعدة لو لم يوجد هذا الظل الوهمى . على الرغم من ضبابية الخطوط ، وعفوية اللمسات ، تبدو معالم الأشكال واضحة وتشكل كل العناصر الأساسية مقدمة متماسكة ، أقرب إلى (السلويت) ، وتتحالف مع الخلفية عن طريق اللون ، وأصداء الإيقاع الخطى الزخرفى . وفى لوحة بعنوان [امرأتان] نلاحظ أن الخطوط تقوم بنفس دورها السابق فى تشكيل كيان واحد من امرأتين متساندتين ، غير أنه يفاجئنا هذه المرة بكسر التكوين المقفل عن طريق امتداد يد إحدى السيدتين بما يوحى بخروجها من إطار اللوحة ، وتقوم إيقاعات الخطوط المقوسة ، والرأسية بدور (الكورس) المصاحب فى التحالف ، والتعضيد .

●

إن المتابع لأعمال الفنان سيكتشف التزامه بأحد مبادىء المنحوتة الفرعونية . . أعنى مبدأ المواجهة ، فهو يخاطب المتلقى بصورة مباشرة ، وبوضوح لا يكتنفه إلا القليل من الإبهام المكشوف ! . . وربما لهذا السبب لا يلتقى المشاهد بمفاجآت جوهرية ، فكل عنصر من عناصره يقوم بدوره فى نظام محفوظ ، وثابت .

●

[ثلاث سيدات يحملن السلال]

هنا ثلاثة وجوه نسائية يحملن ثلاث سلال مزخرفة ، ويواجهننا بملامح تختلف اختلافات طفيفة ، وكذلك الجرار المزخرفة ، فاختلافات الوجوه تشبه اختلافات التوائم !

وفى هذه اللوحة ، كما فى باقى لوحاته ، يظهر ميله إلى التنظيم الهندسى ، كما يظهر فى مثلثات الخلفية التى تقوم بربط الوجوه الثلاثة . إن المتأمل لهذه اللوحة وغيرها من لوحاته يلاحظ أنه يقوم بتحويل ريفيات الواقع إلى قطع من الحلوى تثير الاشتهاء ، وتفخيم الأشياء الاعتيادية ، فيجعل من السلال تيجاناً تمس الرؤوس مساً خفيفاً ، ومن الثلاثيات أيضاً لوحة بعنوان [امرأتان ، وطفلة يحملن السلال] وتشكل رؤوسهن الثلاثة ، وسلالهن الثلاث مثلثين متداخلين ، ينهضان على خطوط الجسم الطولية ، وتقوم أطراف أغطية الرأس المدلاة بترديد الخطوط الطولية ، وتشترك الوجوه فى النظر إلى المشاهد لخطب وده ، أو إغرائه بجمالهن ، أو بمعنى أدق بحلاوتهن !

[الوجوه]

يبلغ بلوحات الوجوه أعلى درجاته فى مغازلة المتلقى ، فترتفع درجة التطريب ، وكأنه يقوم بدور الخاطبة ، ويترك لنا حرية الاختيار ، والاتفاق على المهر ! ، وهو لا يفاجئنا بجديد إلا فى لوحة بعنوان [فتاة ، وسمكه] فقد استلهم مبناها هذه المرة من شكل « الطبلة » ، أو على حد تعبيره شكل « القلة » ، وزين رقبتها برمز السمكة . . رمز الخصوبة ، ويظهر الوجه شامخاً فوق قاعدة تظهر جزءاً من الصدر ، واستدارة الثديين ، ويختفى الشعر تحت غطاء مزخرف ، يحتضن الرأس ، ويحيط الرقبة ، الشامخة ، بالحنان ، وتشف الخلفية عن آثار عجائن التحضير ، التى توحى بالمشابهة مع الزخارف ، لتشارك بدور فى الاحتفال بصاحبة العرس ! ويسحبنا كهف العينين إلى أشواق داخلية لا يصعب التكهن بها ! . . وبقدر تلقائيته فى التعامل مع عناصر أخرى فإنه يكثف قدراته فى تلوين الوجه ، أما أشكال الزينة الأخرى كالأقراط ، والأساور ، والعقود ، والمناديل التى تأخذ شكل الهلال ، والسلال التى تأخذ شكل التاج ، فهى عناصر مساعدة ، تصب فى نفس الهدف ، ويستعير من الرسوم الفرعونية ، ومن فتيان « سيوه » جدائل الشعر السوداء ، والبنية ، ويجعل منها إطاراً للوجه ، وتأكيد نصوعه ، وحمايته . إن كل المثيرات الجمالية ، والتعبيرية التى التقى بها « الرشيدى » عبر رحلاته المختلفة تحولت بين أنامله إلى أحلام رومانسية . . حتى موضوعات العمل التى اختارها لم تخرج على هذا الإطار .

[الخلاصة]

إن « الرشيدى » يجمع بين الفطرية ، والاتجاه الرومانسى ، وهو أولاً وأخيراً ينتمى إلى المدرسة المصرية فى الفن ، والتى تتعدد إجاباتها فنانيها ، وتتفاوت مستوياتها ، فمنهم من تعلق بالملامح الخارجية لموروثات المنطقة الفنية ، ومنهم من حاول النظر إلى الموروث الفنى ، وانجازات الفن المعاصر عبر وجهة نظر نقدية ، وتنتقى من التراث ما يحرك نوازع الخلق ، ويحفز على الابتكار فى مواجهة واقع إنسانى ، وثقافى مختلف . يتفق التياران فى المنابع ، ويختلفان فى التوجه . أحدهما يسعى ، محملاً بمخزونه من الموروث إلى منطقة التجميل ، والتزيين ، ويسعى الآخر إلى منطقة « التعبير » « والتحريض » ، و « التغيير » وما شئت من اشتقاقات ، غير أن الاتجاهين يلتمان من جديد فى ضرورة اكتشاف خصوصية للفن المصرى المعاصر ، على أن تكون تلك الخصوصية قادرة على الإسهام فى الحيوية العالمية للفن التشكيلى .

القاهرة : محمود بقشيش

تصوير : صبحى الشاروني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

غنانـــيات
أحمد الرشـــيدى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

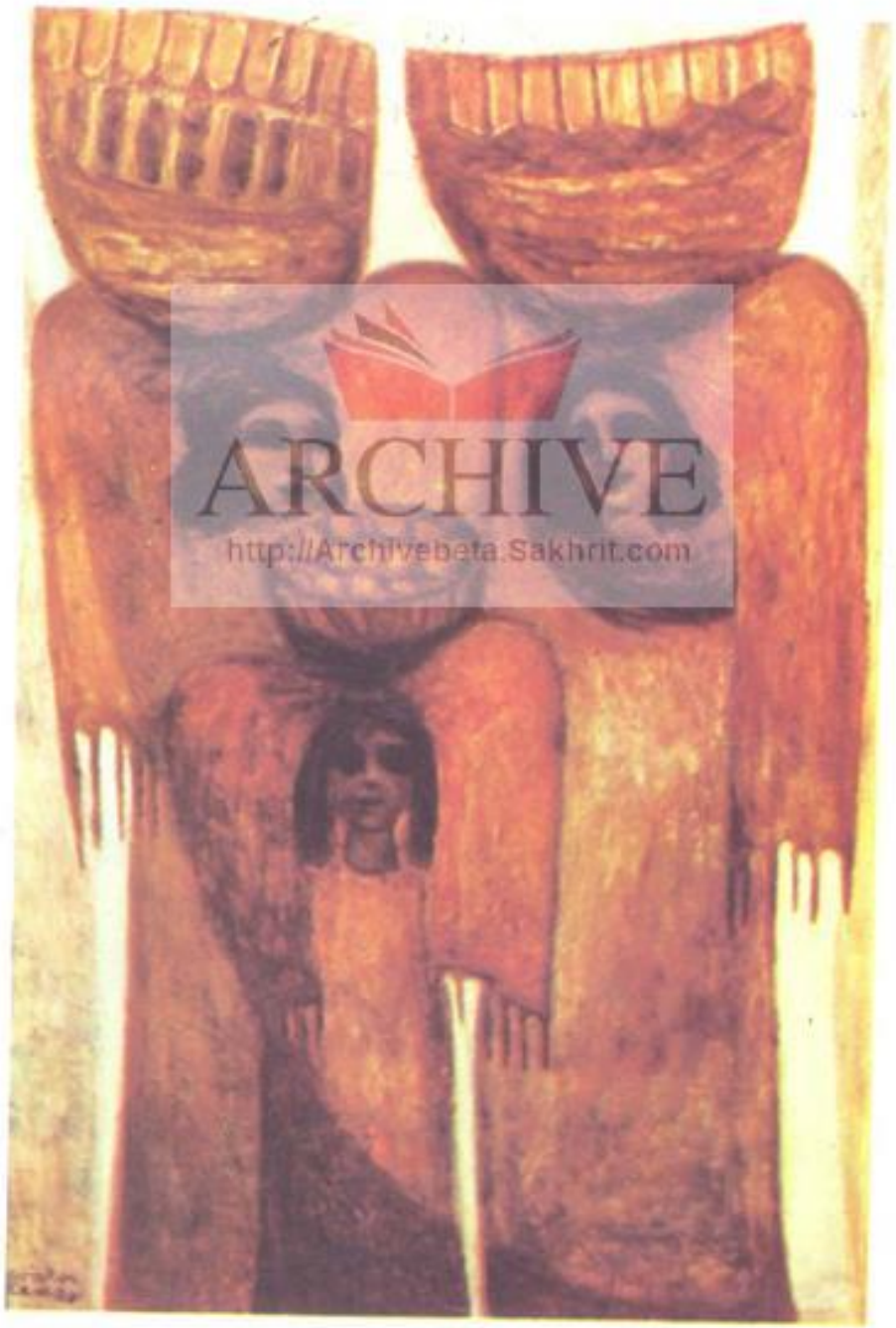
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

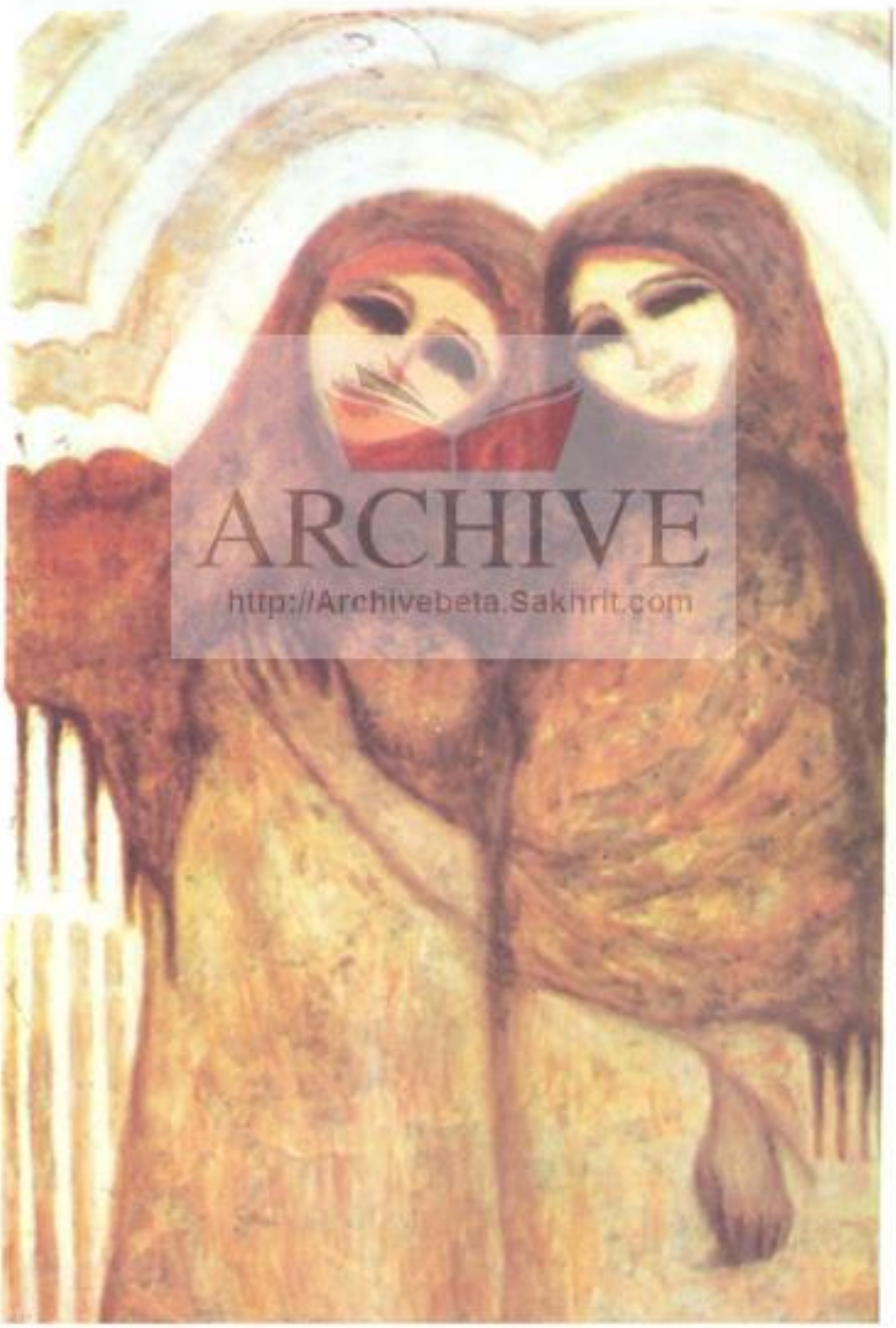
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

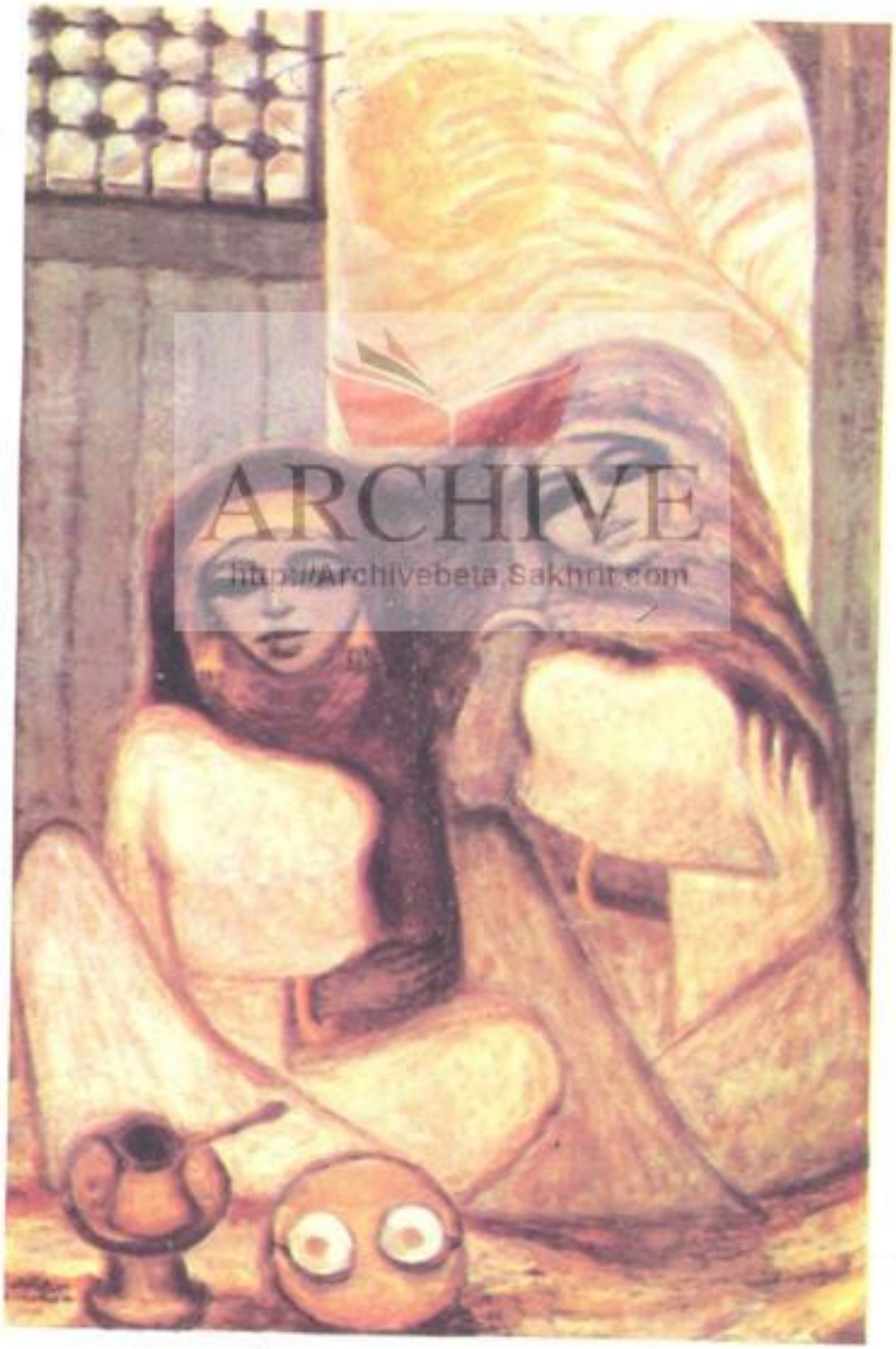
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

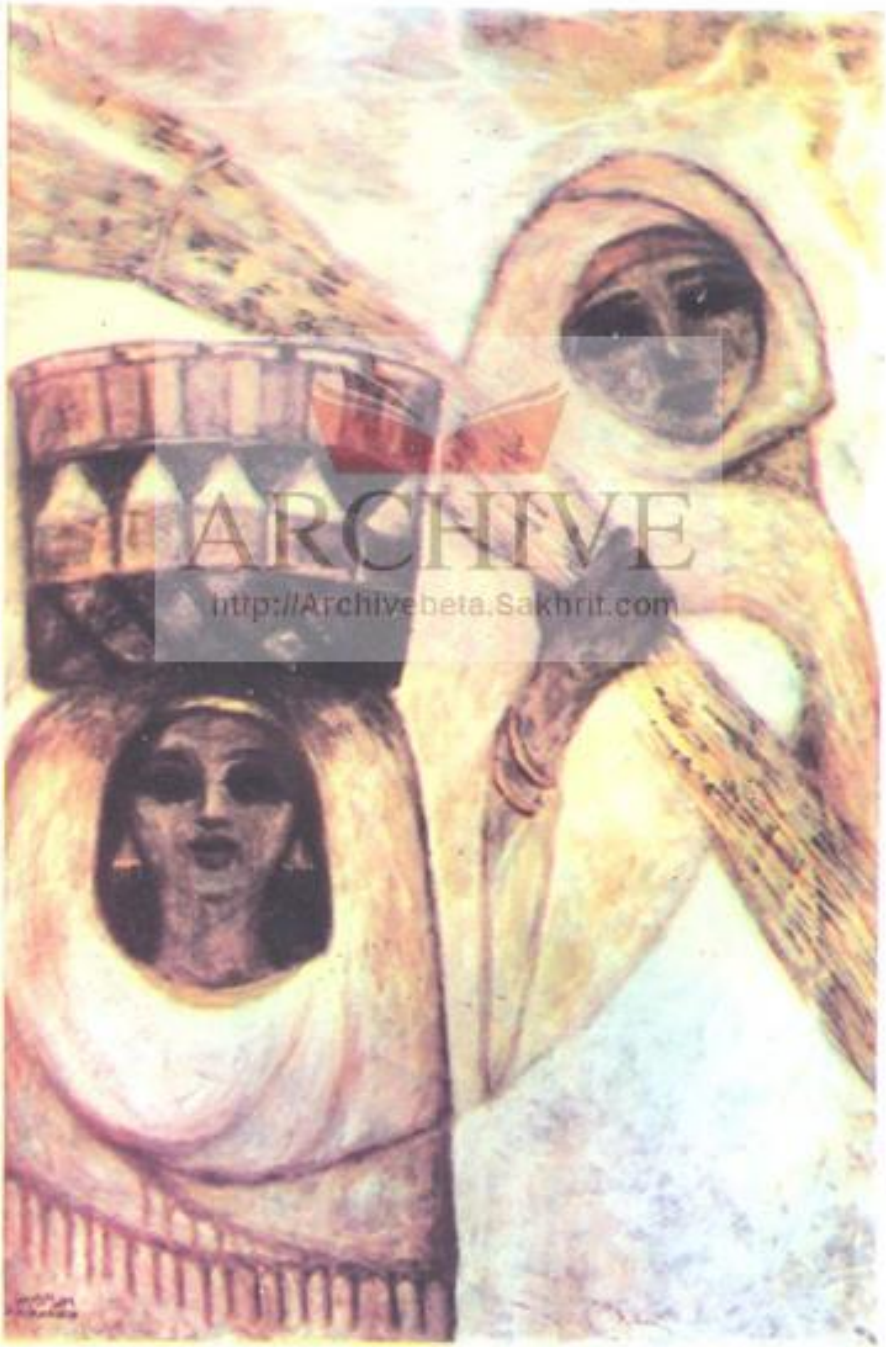
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صورنا الغلاف للفنان أحمد الرشيدى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

طابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٦١٤٥ - ١٩٨٧